
أحزان الضفادع
علاء حامد

أحزان الضفادع

علاء حامد

الفهرس

الإهداء

صورني البعض ذبيحة على مائدة العدل والقضاة ينهشون جثتي في نهم وتلذذ وهم يصدرون أحكام الإدانة – جنائية وإدارية – ضد إبداعاتي.

والحقيقة أن ما تصوره البعض ذبيحة لم يكن – حتى وأنا في بؤرة المحنة – سوى طاقة مبدعة أثرت العقل "**بالدمية**" و "**ما قبل الرحيل**" ثم "**أحزان الضفادع**" لكن آن الأوان بعد أن تبين للمتأمل خيط النور من الظلمة أن يتم شجب النظام الشمولي الذي أفرز هؤلاء قضاة محاكم التفتيش وأن يقدموا اعتذارهم للتاريخ – كما فعل بابا الفاتيكان – عم ألحقوه من دماء لحرية الإبداع بل تتم محاكمتهم باعتبارهم مغتالين للفكر.

ومن ناحيتي فلن أضمن لمن حولوني إلى طاقة متجددة باهداء.

وكذا لهؤلاء القضاة الذين رسموا للعدل يقيناً في ضميري أنه بدونهم فكل قيم بلدي هراء.

علاء حامد

تقديم

وصم الغرب المسلمين بالهمجية ولأن خانة الدين تقطع بأنني واحد منهم لهذا كان علي تفكيك الأبجدية الهمجية حتى أبرئ نفسي من وصمة أنني همجي!!

وحتى أفعل لم أجد ثمة وسيلة لتحقيق ذلك سوى استنهاض ذاكرة التاريخ في رحلة مثيرة جسيمة المخاطر داخل أحراش المستنقع الهمجي مع الهوام والتماسيح.

ولما بدأت وقعت في حيرة حادة فمهمتي ليست مجرد طرق أبواب التاريخ أو مسح خريطة الهمج أو تسجيل رجع صدى أصوات تلقتها من كتاب مقدس أو أساطير بل جوهر رسالتي التعرف على هوية هؤلاء الهمج ماذا هم وكيف هم ولماذا هم؟!

وكان على حتى أحقق تلك الرسالة أن أغوص في بحر المعرفة باحثًا عن كنه تصور الغرب لأبجدية المسلمين.

ولما فعلت عثرت على مفتاح شفرة هذا التصور.. الدين.. بعد أن تحول من كينونته الأولى مجرد دمية يتلهي بها الهمج إلى لاعب ماهر يحركهم بخيوط الغيبية والتخلف

والبدائية وكان أن تبدلت الأماكن فهيمن اللاعب الجديد على مقادير هؤلاء الهمج في مرحلة لم يتعدوها منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة بل ويرفضون في غباء مخاطرة تغييرها. مرحلة يمارسون من خلالها كل طقوسها المقدسة باستنزاف العقل في دعوات وتلاوة أهازيج عن الجن العلوي والسفلي. بإعلان الحرابة على العلم والعقل وذبح كل من يتصدى بفكره لملحمة الخرافات.. فنُصبت المشانق في دور الديمقراطية والعدالة متمثلة في قوانين تجرم الحرية وهمهمات تطالب بخنقها وأحكام محاكم تفتيش ضد الإبداع والمبدعين لا لسبب إلا لأن إله هؤلاء الهمج قريشي عربي لم يتجاوز إبداعه نطاق قبيلته ولم تسنح له فرصة التعرف على تاريخ الحضارات القديمة المصرية والأشورية والإغريقية كما لم يرتحل إلى المستقبل ليحكي عن العلم واختراعاته وأطواره فظل على حاله إله محلي منهجه قائم على فرض أوامره العلوية من خلال مبدأ الجبرية الاستسلامية وانتقلت عدوى هذا المنهج الديني إلى الواقع السياسي في نظم رئاسية فاشية أو ملكية استبدادية دعائمها الأخذ بأسباب التحضر بالتطهر من نجاسة الكلب وجنابة المرأة ولعنة الحرية ثم

التبول على نظريات العلم وإرهاصات العقل في منظومة شديدة الغرابة خصت المرأة وميزتها بحرمانها من حق المساواة الآدمية بالرجل في الميراث والشهادة ووصمتها بنقصان العقل والدين وفرضت أخيرًا قوامة الرجل عليها بالتلويح لها بالكارت الأحمر في مضمار الزوجية. سلسلة متشابكة من ألسنة لهب تحرق كل من يقترب بمفاهيمه لفلسفتها الغنائية. علاج مستعصي المشاكل الاجتماعية والأمراض المستعصية بتلاوة الآيات المحكمات رغم أن قائلها مات بمرض يتم علاجه بالرواند وقرصين أسبرين..!!

ونتيجة لهذا تم شحن بطارية الهمج بالخرافة والخزعبلة وكان أن اختلطت المفاهيم وتصارعت القيم.. فأصبح العلم قرين الخرافة بعد أن تضخم العقل بغرابات الغيبة وآمن بمسطحها الساذج فأصبح من المتعذر التفرقة ما بين البغل والحمار والجمل والفيل وما بين ملك ورئيس فكلاهما يسير على أربع. الفاشية.. الديكتاتورية. الشمولية.. خزق عيون الحرية.

هذه هي بعض خطوط خريطة أبجدية المسلمين في تصور الغرب – أقولها في تصور الغرب – والتي حاولت

تفكيكها في كتابي.. أبدًا ليست مهمتي الدفاع عن هذا التصور ولن يكون موقفي المبدئي مناوئة تلك الأبجدية بل حقيقة رسالتي هي التنقيب عن الحقيقة حتى ولو كان العثور عليها يوصمني بأنني واحد من الخوارج ضد منظومة الهمج.

لهذا كان كتابي حفلا لتتويج العقل.

البداية

أحيانًا ما تعوزني القوة والإرادة لأعلن على الناس هويتي لقد جئت إلى هذا العالم لأختلف مع الناس لأنوئهم لأستظهر من عقولهم الخاوية على عروشها الباطل الذي يغمسون فيه رؤوسهم المنبعجة بالأوهام.. أوهام الماضي السحيق. جئت لأقول لهم: إن الظواهر لا تتكرر إلا بعد عشرات وأحيانًا مئات السنين وأنا إحدى تلك الظواهر بداخلي قوة خفية رغم ضعفي ومعرفتي بأبعاد هذا الضعف فهي تدفعني لإدمان الكتابة للتمرد.. توحي لي أنني نار. بداخلي قوة آلهة الإغريق وضعف المستعبدين أحب الخطر. أمزج مادته في كل أكينتي. أنا نار.. مازوتها الغضب. الألم العذاب المعاناة من أجل الآخرين.. رغم هذا فأنا سعيد بها.. بكل تلك المعاني. بدونها يخبو اللهب وتنطفئ الشرارة.

أحب الفقراء في بلدي وتتخايل علي أمنيات كثيرة أن يرفلوا في النعيم. أن يسعدوا كبواقي الأثرياء بالمال واللقمة الطرية. وفي نفس الوقت احتقر استسلامهم. هم لا يستحقون مني الشفقة بل الضرب "بالبرتوشة" لأنهم الآفة التي تقضي

على المجتمعات وهم السبب. هل هذا ممكن أن تصبح الآفة والإنسان متطابقان كضلعي مثلث في زاويتين متساويتين. نعم.. لقد سخر منهم الأشراف وصنعوا لهم صنمًا صدقوه وآلهة يلجأون إليها لرفع محنتهم "الجوع والاستبعاد" يشكون آلامهم.. عذاباتهم. ظلم الأشراف لهم واكتفوا بالدعاء عليهم وطلب الرحمن من الصنم الذي صنعه لهم الأشراف هو الذي يهبهم ويمنحهم ويمنع عنهم أذى الأشراف وشرهم المستطير ويساعدهم في محنتهم!! ولم يكتفوا بهذا بل إصطنعوا لهم طقوسًا وحركات قدموا من خلالها القرابين حتى هيمن على كل حياتهم من صغيرة.. وكبيرة.. ثم جاء بعدهم من أضرم النار في معتقدهم.. وسيأتي بعد هؤلاء من يختلف مع هؤلاء وهؤلاء.

وأنا واحد من هؤلاء جئت لأضرم النار في الماضي من أجل المستقبل جئت لأختلف مع نفسي.. أحادثها فتتمرد علي.. أحاورها فتصدني عاشقة متمنعة.. الحق والباطل.. الشر والخير.. إدمان الإنسان لعادات وأخلاقيات ومُثل تم حرقها بعود كبريت الجديد واستلاك طرق هو فيه إلى الكفر الديني أقرب.. وباتت الهوة عميقة بين أخلاقيات ومثاليات

عصر وبين عصر آخر.. بين ما يعتقده إنسان الغابة وبين تطلعات إنسان العصر.

وانتقلت تلك الهوة إلى المجتمعات.. مجتمعات في الحضيض مازالت ترمي العفاريت بالجمرات وأخرى تبول عليهم من الفضاء. وانقسم البشر إلى أنماط كثيرة البعض يؤمن بالدين والآخرة والجنة والنار. والبعض الآخر يؤمن بنفسه هو الإله وهو البشر والبعض الثالث يوقن بالعلم والاختراع والعقل وانتشرت في الغرب آليات الاعتقاد بالعلم أما في الشرق فقد ذبحوا العقل وتنافسوا على توزيع رمّته لدى القصابين الأوقية بقرش. وحتى يصل الإنسان لفهم خليق به عليه أولاً أن يعري نفسه تمامًا من ثياب الماضي بل ويحرقها ليتعرف على هدى ضوئها على طريقه في الظلمة ليستكشف غايته.. فثياب الماضي ليست سوى صيغة إنسانية تم تفصيلها من خيوط الخرافة والغيبية بدقة على جسد الإنسان في حقبة معينة.. ما عاد يجدي معها الترقيع والخيط والإبرة..

إن الإنسان على مر العصور في محاولة للتطور وهو في محاولاته يفشل أحيانًا.. ينجح أحيانًا أخرى.. ينكفئ..

ينهض.. يجري. يتوقف.. يصيبه الإرهاق.. يعاود المسيرة وأكاد أجزم أنه ابن الغوريلا الضخمة وقبل أن يتحدث كانت لغته نهاق وعواء ونباح.. وبعد مرور مئات السنين وربما آلاف من وقتنا هذا ستكون صورته التي كان عليها قرد القرن العشرين.. لا لشيء إلا لأنه سيتعرض خلال الأزمنة المستقبلية لطفرة هائلة.. لطور مذهل خلاق.. الإنسان ليس مجرد مادة فقط لحم ودم وعظم وإدخال وإخراج بل هو في المقام الأول قوة خلاقة.. قدرة داخلية تتمثل في القانون الكامل المتكامل قانون يسير وفق أحكامه ولا يحيد عنه ولا يخرقه في الوقت نفسه له حرية الحركة ليس في اتجاه مضاد لهذا القانون ولكن داخل فروعه التي تحمل خاصية الاختيار بمعنى آخر أن الإنسان مخير داخل حتمية تطبيق نصوص هذا القانون. مخير بين الأمور المتخالفة.. خير.. شر.. أمل يأس.. حب.. كراهية.. حرية.. استعباد.. والجسد الإنساني والعقل ما هو إلا حقل تجارب التسيّار والسير.. أما كيف يتم ذلك في الأولى قانون كامل متكامل يطبق بدقة متناهية لا يمكن تعديله أو تبديله أو تغييره أو الوقوف ضد تياره. وفي السّير حرية كاملة في الاختيار لممارسة شعائر هذا القانون.

لك أن تأكل ما تشاء أو تنكح ما تريد أن تستنشق أي نوعية من الهواء. هذا هو اختيارك قانون السير لكن إذا حدث أي من تلك الأمور فلا دخل للإنسان في كيفية التسيير فهو يتم طبقًا للقانون الكامل المتكامل. إرادتك حرة.. لكن داخل قانون لا تستطيع مهما عظمت قوتك أن تحيد عنه قانون "التسْيار".. وهذا يدفعنا إلى ارتياد الكهف المظلم من خلال ركامات الماضي وأشياؤه نبعثرها ثم نتجاوزها للبحث فيه رغم ظلامه الدامس عن معنى ضروري وهام للممارسة السير وهو العوْلمة. وسيلتنا لتحقيقها الحرية. حرية السير داخل فروع قانون التسيار للتعرف على مضمونها.. حدودها.. أبعادها، وحتى تتحقق تلك الحرية ليس أمامنا سوى فوضى النقاش.

فوضى النقاش أمر بديهي إذا كنا حقًا نريد زرع كُلْية العمل العام التي تنقي جسد المجتمع من السموم وهو أمر بديهي وإن بدا في ظاهر الأمر خطير. لكن يعني إيه فوضى النقاش؟! فتح باب النقاش على مصراعيه.. في كل مكان. البيوت المقاهي.. النواصي.. النوادي.. الحدائق.. أماكن العمل.. الحواري.. الأزقة.. الغرز.. لكل الاتجاهات بلا استثناء. لكافة التيارات الفكرية. أصولي راديكالي يميني..

يساري.. متطرف.. معتدل.. مسلم.. قبطي.. يهودي.. حتى الملْحد له دور هام في هذا النقاش. وللكافة.. أي كل الناس.. كل الفئات لها الحق في المشاركة في هذه الفوضى: الفقير.. الثري.. نص النص.. الموظفون.. العمال.. الفلاحون.. رجال الأعمال.. هذه الفوضى تتناول كافة الموضوعات: سياسية.. اقتصادية.. دينية.. فلسفية.. هايفة.. مهما اختلفت في جواهرها وتفصيلاتها.. هذه أولى خطوات العولمة زرع ضمير الحرية..

وقبل أن نستطرد في الخطوات التالية أقص حكايتي.

أنا لست أنا.

أنا قادم إليكم من المستقبل القريب.

من الماضي البعيد.

آت من ظلمة الماضي.

من سكن الأشباح.. من كهوف الأديان.

لأنثر للناس طريقا.

طريق الحرية وعودة الروح.

عدت إلى الحياة.

بعد أيام قضيتها في ممالك عدة.

كنت أجوس خلالها المعاني.
وأفهم وأتفهم الأحلام والأماني.
وهذه حَكْوِتِي. أنا آت لكم بعد موتي وسأتوارى.
سأعود إلى مملكة الحق بعد أن أطوف عليكم بالنبأ العظيم.

حان وقت الإفراج!!

الدكتور "سماحة" بجواري.. الدهشة تعقد لسانه.. تحاليل وأشعة.. تخمينات وافتراضات. المرض الذي ألَّم بي غامض.. خطير.. مريب.. ينشر الفوضى في خلايا الجسد. باتت اللحظة قريبة.. دوار برأسي.. تتميل بأحاسيسي.. ألم هائل يعتصرني إنني أقاوم.. غريق يتخبط بيديه يغوص إلى الأعماق.. يرتفع إلى سطح الماء.. ينادي العالم بأسره دون أن تخرج من فمه صرخة.. كلمة.. مازلت أقاوم الموت.. تملكتني لحظة يأس واستسلام وأنا أغمض عيني. فزعت على أثرها.. لا أريد الموت. هبَّت علي رياح الحياة عاتية.. إنها النهاية لو غشاني النوم.. يداي.. نعم يداي ثقيلتان. أكياس من الرمل فوق كل جسدي. أريد أن أتحرك. أنهض.. أقاوم. أتحدث..

- ما هذا الصوت؟!..

لا أحد يرد. لا أحد يريد أن يرد. زوجتي بجواري. عيناها تدمعان.. تتمتم:

- هل تريد شيئا؟

- ألم تسمعيني؟

لم ترد علي.. فحديثي لم يتجاوز نفسي.. "مروى" ابنتي.. أرق فراشة في حديقة حياتي تقترب مني.. تغوص بوجهها الصغير فوق وجهي ورقبتي الباردة.. تحتضن بشفتيها وجنتي.. تهمس بحرارة:

- لا تفارقنا يا أبي.

- إنني أحاول يا زهرة حياتي.

كنت أعلم أن كلماتي لم تصلها.. فهي لم تتعدَّ التمتمة وتعجبت من ردها:

- وأنت غصن الزهرة يا أحلى أب!!

الدموع تغرق مآقيها وهي تتجه برأسها إلى أعلى. إلى السقف.

- كم أنت جميلة بذقنك الرقيق المدبب.

- يارب..

كانت تصلي بكلماتها.. صلاة أعمق من صلاة مسجد بأسره.. هل يمكن أن يقبل الله دعوتها. أم إنه مشغول بأمور أهم من حياة إنسان؟!

- أحبك يا أبي فلا تودعنا..

صوت ابني عادل يصلني بنبراته الحادة الزاعقة.. طعنة نصل بارد مشرشر وهو يلقي بنظرة عابرة على جسدي المسجي:

- إيه يا ست ماما.. الثلاجة فاضية. الحي أبقى من الميت.

- ميت يا عادل. الله يسامحك.

كانت هذه آخر كلماتي الغير مسموعة قبل أن تحتويني الغيبوبة وتتشوش الرؤى ثم تتمحي.

استيقظت من غيبوبتي على صراخ وعويل.. الأطباء حولي حيارى لاهثين يروحون ويجيئون.. سيرك.. الدنيا سيرك كبير أحد لاعبيه يرقد بعد أن انزلقت قدمه من فوق الحبل ينام على حصيرة الألم وقد تشعلقت ذراعاه بزجاجات الجلكوز وممرضة تدلك قلبه.. أجمل ما فيها عيناها كنت أتوق دائما لهاتين العينين.. ابتسمت.. أمل سيدفن معي..

- ماذا تريد؟

هكذا ترجمت زوجتي نظرة الاستجداء التي تخايلت على قسمات وجهي.

- أريد أن أرى وفيَّه.. أرسلوا في طلبها.

كنت أعلم أن الكلمات لم تخرج من حلقي ولكنني عدت ألح في طلبي وسؤال زوجتي يتعقبني:

- حدثنا بالإشارة.

إنها لا تعلم أن وفيَّة هذه عشيقتي أحببتها بعمق. قضينا سويا أمسيات عارية رائعة عشت معها أحلى لحظات عمري وهي تمتص رحيقي!!

- وفيَّه!!

لأول مرة يخرج الصوت من حلقي. لقد تبينت زوجتي معالم الحروف، سحائب الشك تتجمع وهي تسألني:

- وفيه.. من تكون؟!

لم تشأ العبارة أن تخرج من مكنون نفسي.. كنت أغالبها. أحاول قهرها.. إلا إنني لم أستطع وزوجتي تعاود سؤالي:

- عن من تتحدث؟!

في تلك اللحظة دهمتني غشاوة.. سحبتني دوامة إلى القاع.. اهتز جسدي برعشة خفية.. عصرتني موجات ألم غامضة.. إنني استسلم للرقة النهائية إظلامة تكلل بصري نحو الأشياء والشخوص.. وجه مروى.. آه يا وردتي الحبيبة

لماذا نضبت من وجنتيك حمرة شمس المغيب؟! كم تمنيت أن أعيش استنشق عبير حياتك..

عينا زوجتي منداة بالدموع.. تحتسي مع كل قطرة مرارة فراق دنا. كانت في الشدائد تبدو متماسكة.. قوية.. أو هكذا خيل لي والآن أراها منهارة.. بيت يهزه زلزال.. مسكون بالخوف.. ومع ذلك فيهي تبتسم.. كيف؟! إن اللؤلؤ يستولده العذاب. تتحرك داخلي كل كوامن التشبث بالحياة. كم أريد تلك الحياة من أجل "مروى".. من أجل زوجتي.. لا استطيع.. لا أقدر.. إنني أغوص. أغوص..

- بابا. بابا.

كانت هذه آخر صرخة قبل أن أضيع داخل دوامة غيبوبة زبرجدية. استفقت على جسدي يتأرجح داخل بطن سيارة إسعاف موغل في الاسوداد. السيارة تكتسح الشارع بسارينتها المألوفة. عقلي يزحف في سرداب مظلم.. عاجز عن رص المعلومات افقد التركيز والتذكر.

كم هي تافهة تلك الحياة.. وكم هي قصيرة.. هكذا وبهذه السرعة بعد أن قررت الاغتراف منها. أفكاري تتشوش أحاول النهوض بعقلي فلا أقدر إنه ما زال يزحف

في سرداب مجهول لا يرى فيه سوى الإظلام.. لكم حاولت أن أقترب من الحقيقة. ولكن أين هي الآن وقد أصبحت أمام لحظتي تلك قزم يستجدي.

السيارة تقف.. ممرضان يرفعان محفة يرقد فوقها الجسد المنهك.. أين إلى أين.. بحلقت لسقيفة السماء الزرقاء. للشمس الملتحفة بسحابة رمادية. أحاول أن أعثر على أطياف من الحقيقة من خلال شعاع واه ينفد إلى أعماقي أين هو عزرائيل.. أين قابض الأرواح لا أدري. كم أريد رؤيته.. الإحساس به.. فشلت.

انتهى جسدي إلى سرير بحجرة الإنعاش.. تقاطر الأطباء حولي.. يفحصون يقلبون في الجثة شبه الميتة!! وتتناثر كلماتهم.. وجوه صارمة جادة باردة.. توعز لرائيها بالاهتمام دون أن تعبر عن الحقيقة فالحياة عندهم كالموت.. إنسان يموت ليولد غيره.. وفي النهاية هم القابضون على المال والشهرة.. ليسوا آلهة.. إنني قريب من النهاية.. بداية النهاية.. أشعر ببرودة الموت.. بموجاته الأبدية تتكسر بقسوة وعنف على صخرة حياتي.. تفتتها تذيبها.. كم أرغب أن أمسك بقلم وأكتب الآن عن الموت.. أكتب عن حقائقه.. أية

حقائق؟! ما هو وكيف يأتي الإنسان؟! ظواهره. كم أرغب أن أرى هذا العزرائيل لأصفه للناس.. ولكن عبث عبث رغبتي.. عبث ما يقولونه إن الموت ليس سوى تغليب أسباب الفناء على أسباب البقاء. وها أنذا أموت.

الغشاوة تحجب عني الرؤى. عيناي تتجمد على يد الطبيب وهي تدفع لجسدي الحقنة تلو الأخرى علها تهبني الحياة.. أطرافي تطوقها المحاليل ضقت بكل هذا ضقت بكل ما يحاولونه.. أريد أن أحطم كل تلك الأجهزة.. زوجتي سلوى أريد رؤيتها.. انفتح الباب عن وجهها الذابل وهي تتقدم نحوي بخطوات يعايشها الإرتباك والتردد جلست بجواري. أحاول التواصل بحديثي الأخير معها.. لا أقدر.. لا استطيع دمعت عيناها الدموع يحفها الصدق.. صدق التعاطف.. تمتزج بها المناجاة.. راحة يدها الناعمة الملمس تريحها برفق فوق فمي المكدود.

- لا تشغل بالك فأنا أعرف كل شيء.

كيف واتتها تلك القدرة العجيبة على قراءة مكنون نفسي.. إنه سر لم يعرفه سوى ثلاثة وفيَّه وأنا والشقة التي كانت تحتوينا كيف لها بمعرفة ذلك. وكيف بصمتها تلك

السنين الطويلة؟ ارتبت.. إنها لا تعرف.. علي أن أعترف لها.. حملتني قوى خفية فوق جناحي الإرادة.. ثم احتضنتني بقوة واقتدار.. وأنا أحاول التشعلق بآخر أمل.. بآخر قشة.. إلا أنني في لحظة وجدت نفسي معلقا بين السماء والأرض.. وقد تحطم مني الجناحان.

- تزوجي إن شئت.. ولكن لا تحرمي مروى من حبك..

انزوت سلوى بجانب السرير.. انكمشت انكماشة مخيفة. اهتز جسدها وقد حط نسر الخوف على أملها في بقائي حيا.. هرولت مسرعة خارج الحجرة.. صوتها يتسكع في هلع داخل الردهة الطويلة:

- يا دكتور سماحة.. يا دكتور سماحة إلحقنا. زوجي في خطر. أسرع الطبيب إلى حجرتي وفي أثره زوجتي.. يستعجل الفحوص التي أجريت لي ثم يعاود فحصي. يتمتم بأسى ظاهر:

- فيروس غامض. عجزنا عن تشخيصه.

- ماذا تعني؟

- عناية الله ترعاه.

قالها رغم أنني موقن إنه لا يؤمن بوجود إله. ولكنه يحاول تخفيف آلام زوجتي:

- افعلوا أي شيء.

قالتها سلوى بحدة. دموعها تتبعها. أشرت لها بيدي أن تصمت. وأن تبقى بجواري ويدي في أحضان يديها إلى أن أودع الحياة.

بدأت أشعر بقوى هائلة تعصرني. فإذا بي داخل هذه القوى الخفية العملاقة تملكني ولا أملكها ينصاع جسدي لها ينصهر داخل أتونها. أصبحت كالحيوان الذبيح وهو ينتفض انتفاضات الموت. لم أعد أجد نفسي. مبعثرة هائمة. قوة غريبة تسيطر على ما تبقى من أشلائها الرمادية. صور كثيرة بدأت تتعاقب علي. غريبة هذه الصور لا رابط ولا خيط يجمعها.. أقمار تلد شموسا ونجوما صغيرة. شهب تحترق أمام ناظري. جبال تصطدم قامتها بصدري أدفعها بيدي.. تتطاير صخورها المدببة تتقاذفها الرياح إلى جسدي. عالم لا نهائي أسبح فيه طائرا. أغوص داخل موجاته الأثيرية الأرجوانية. يد خفية تقبض علي من الداخل. تمزق أنسجة جسدي إلى فتوت صغيرة.. تمضغ كبدي. انتفاضات

هائلة.. أغوص داخل بحر ملئ بطين لزج تعلو سطحه الأشواك. تتغرس في جسدي. ينزف دمي. ثم أطوف بحدائق وارفة الظلال. يعبقها أريج الزهور. أقطف زهرة مددت بها يدي.

- خذي يا سلوى إنها زهرة جميلة!!
- ماذا تريد؟
- أنظري كم هي جميلة.. خذيها. خذيها ولا تترددي.

إن الموتى لا يخرفون قبل موتهم.. ولكنهم يعبرون عن رؤى يرونها.

- ورقة وقلم.
- لا أفهم.

أشرت إليها.. فهمت.. لماحة.. أمسكت بالقلم بيد راعشة.. أريد أن أدون كل نبضة أكتب للناس عن الموت المجهول الذي يخشونه حتى لا يهابوه.. إنني أراه الآن ليس رؤية عين فلا عزرائيل ولا ميكائيل! ولكنه رؤية إحساس... إنه كالصقيع.

ريح باردة محملة بالبرد تطفئ شمعة شمعتان ثلاث. شموع كثيرة لا حصر لها. بدأت أخط بالقلم ورقة ثانية ثالثة.

صفحات كتبتها رغم أن يدي لم تخط حرفا واحدا أصبحت داخل عالم غريب انفصلت فيه عن جسدي أعْبر من خلاله ألوانا وأشكالا وأحجاما عالم آخر لم أره قبلا. عالم امتزج داخل سريرتي.. قمم الجبال تتطاير إلى مجاري الأنهار. الأشجار تعصفها الرياح وتقتلعها من جذورها. تتساقط أوراقها. رسائل كتبت بالمداد الأحمر تتطاير كالفراشات لعالم مجهول وجوه كثيرة.. معبرة.. إبتسامات ذابلة لكن صادقة تحمل معاني السلام والحب كلها وجوه لأقارب لي ماتو قبلي. أمي هذه أمي.. تأتيني تحضنني.. تأخذني من يدي:

- إلى أين يا أمي؟
- حان وقت الإفراج..

ارتخت يداي.. هبت صرخة مفزوعة من حلق زوجتي.

- أنقذه يا دكتور سماحة. أنقذه يا دكتور سماحة!!

كانت هذه آخر كلمات أسمعها قبل أن يحتويني الموت داخل عباءته الزبرجدية اللانهائية.

فقدت كل حواسي الأرضية. الجسدية. لم أعد أرى أو أسمع أو أشم أو أتكلم. انفصلت تماما عن جسدي. أصبحت

مضمونا بعد أن كنت موجودا.. مفهوما بعد أن كنت محدودا.. طاقة بعد أن كنت باقة.. لغتي الرؤيا.. وليست الرؤية تماما كما في الأحلام. نرى ونسمع ونغضب ونزني ونقتل دون أن نخالط الواقع أو نراق نقطة دم.. لغة غريبة كانت بشريتي تحجبني عنها طاقة كهرباء تحررت من مادتها المعدنية. كنت ثنتان فأصبحت واحدا بعد أن تحررت تماما من جسدي وأنا طريح سرير المستشفى داخل عربة الموتى في بدروم القبر المتهالك.. أنسجة رخوة متهالكة. هل كنت أنا. أنا هذه الطاقة الهائلة التي لا حدود لها سجينة هذا الجسد التافه. بهذا الرأس الضفدعي وهذان الفكان البدائيان. لماذا أحبتني وفيَّه؟! لا ليس من أجل هذه الصورة الكريهة التي أرها الآن مسجاة داخل القبر.. لا. إنها الشهرة التي أتت إلى مواكبها بعد أن أصدرت كتابي الشهير ضد الحاكم.. لكن لماذا أنا تائه. حائر.. لا أجد طريقي.. ماذا بعد!! صوت يأتيني. يخرق السكون حولي يمزقه:

- اقترب!!

اتجهت إليه. قوة غريبة تجذبني نحو هذا المخلوق الغريب.. أحسست منذ الوهلة الأولى أن وشائجا من المعرفة

تجمعني وإياه.. مخلوق لا أستطيع وصفه هفهفة جناح عصفور.. صيحة وليد يستقبل أمه. ترانيم أرغول شارد.. ومضات هادئة.. لوحة فنان.. خيال كاتب لا أدري.. اقتربت.. حديثه سهل يسير.

- آن الأوان لتعود لمملكة السلام.

- أنا؟

- وستودع عالم الألم الحسي بعد أن قضيت أكثر من ألف عام تكفر عن خطيئتك!!

- أكثر من ألف عام وأنا لم أتجاوز الخمسين.

- أخيرا سيفرج عنك بعد أن نفذت عقوبتك.

- أية عقوبة وأي سجن؟! فهمي عسير بما تحدثني به.

- لا تتعجل.. فلم يبق أمامك سوى ومضات لتعود بعدها إلى كامل طبيعتك الأولى بعد أن حققت مبادئ الملك الأعظم.

- كيف وحياتي كلها موبقات؟

- ما قد تراه خطأ قد يراه الملك الأعظم صوابا.

- هذه أيضًا لا أفهمها.

- إن مفهوم الخطأ والصواب من صنع المجتمعات.

- ولكننا نستلهم في تحديد الفاصل بينهما بما استقر في ضمير المجتمع ووجدانه من خير وشر..

- ومن يصنع هذا الضمير وذلك الوجدان؟!

- فكر الإنسان وعقله!!

- قلت فكر الإنسان وعقله.

- لكن الإنسان يستلهم فكره من الله.

- فكر الإنسان فرع من قانون الله مهمته اكتشاف الحقيقة.

- كم أنا في دهشة لما تقول.

- لو عرفت الحقيقة كاملة ما أدهشك قولي.

- وأين هي تلك الحقيقة.

- العلم هو الحقيقة.

- تقصد اختراعات الإنسان.

- بل اكتشافات الإنسان لفروع القانون الإلهي. فالإنسان يكتشف القانون الموجود ولا يُنشئه.

- غريب هذا التناقض!

- أي تناقض تقصد؟

- كيف يحقق مبادئ الملك العظيم من اتهم بالعصيان والإلحاد والزندقة.

- لأنك لم تخف الله بل أحببته والمحب لا يخاف محبوبه. فالذي يخاف لا يحب بل يكره.

- كم أنا حائر جد حائر.

طوقني الملك في حنان دافق.

- ستذوب حيرتك عندما تعود إلى مملكتك. مملكة السلام.

- حديثك هذا يزيد حيرتي.

- اقرأ تلك الوثيقة وستفهم.

- أية وثيقة؟

- إنها وثيقة الإفراج عنك.

- تقصد صك الغفران الذي يعد به المتشنجون السذج والأغبياء.

ضحك كثير ضحاك..

- بل أقصد صك الإفراج.. أنظر..

بدأت أقرأ.. ليس بعيني بل بكيان المخلوق داخلي بطاقته.. مبهور أنا بحروف الوثيقة النورانية لا حروف

مكتوبة ولا مطبوعة بل معاني تتلألأ بوميض القدرة الخلابة. "نحن الملك الأعظم.. قررنا الإفراج عن الروح الخاطئة بعد أن أمضت فترة العقوبة. غمرني الملك بنوره الوهاج تبسم تمتمته في نعومة القطيفة.

- هيا لأصحبك لمملكة السلام.

توسلت إليه قائلا:

- قبلها أريد أن أودع زوجتي وابنتي.

جزع الملك.. إنشقت الطاقة داخله إلى لا نهائي من جزئيات غاضبة مدمرة. ترتج لها رواسي الجبال تشقق قشرة الأرض. تزلزل الأمكنة.. فتجر البراكين.. رعد ومطر وسيول.. تساءلت في دهشة:

- كل هذا لأنني رغبت رؤية أسرتي!!

- ما عاد لك بعد اليوم أسرة.

- كيف؟

- لم تعد منهم. كنت مادة فأصبحت قبسا. كنت لحما وعظاما ووهما فأصبحت حقيقة!!

- كم يحز على نفسي فراق أحبائي.

- تؤثر السجن داخل إنسان على الحرية في مملكة السلام.. أمر عجيب. لقد فات الأوان. هيا. هيا..

بدأت مسيرتي بصحبته إلى مملكة السلام.. رحلة تستغرق من الإنسان آلاف السنين عبرتها في لحظات. أسرار كثيرة تتكشف أمامي غوامضها. كم الحقيقة رائعة.. كم هي مثيرة مدهشة.. عالم زبرجدي لا نهائي. رحلة خلعت عن نفسي فيها ثوب الجهالة. الحقيقة زادي المعرفة دليلي. في كل خطوة أرى منظومة كونية جديدة.. تبهرني تتزود بها نفسي النهمة إلى المعرفة.. أمحو معها ترهات العقائد.. أخابيل الفكر.. توهان العقل ذنوب الجهل.. سكر المادة.. عفن العادة الخشية من المجهول معاني تفجر لدى أحاسيس القوة.. رأيت في رحلتي القصيرة ما لم يره بشر.. اللانهائي وقد احتوته قدرة علوية.. معرفة كلية.. أنصص قانون كامل متكامل لا ثغرة فيه ولا خرم إبرة.. تتراقص على جانبي نهره الفياض نظريات إنسانية.. حقائق علمية. طاقات مبدعة تفرخ أسرارها.. كم هي دانية قطوفها.. وكلما اكتسبت معارفا جديدة زاد نهمي وأنا أنهل من أفرع المعرفة.. نحلة تمتص الرحيق تنتقل ما بين الزهور.. ما بين عوالم جديدة..

غريبة تريد المزيد والمزيد لتقرز الرحيق تطعم به أفواه الجهل.. رغبتي في المعرفة أقوى بكثير جدا من أحلامي وشهواتي الدنيوية. المرأة والمال والسلطة.. ابتسمت.. وجه الأرض يطل علي ربما الأرض تحتي.. ربما فوقي أو بجانبي.. أين؟ لا أعرف من أنا وما موقعي ولكنني أرى قطعانا وقطعانا من الخلق الكئيب.. تتناسل.. تحارب.. تزني.. تسرق تكذب.. تنافق.. لوحات تلو لوحات. أمواج يعقبها أمواج. فما أراه غريبا. عجيبا.. ليس له في الغرابة من شبيه قريب أو بعيد.. لم ير مثله إنسان ولم تسمع به أذن حديث الملك مسحور.. مسحور أنا به.. وهو ينقب عن أسرار الكون.. يعلو بي ويعلو فوق السحاب.. بين المجرات.. الشموس.. اخترق المسافات.. أرتفع فوق المتاهات.. أجوب المساحات.. أتلوى داخل حديث لا كلام فيه ولا نطق.. يصبغني بالدهشة يصيبني بالذهول يتمتم لي:

- ها قد وصلنا.

توقفنا أمام بوابه ضخمة صوت الملك يدق دقاتا مثل دقات المسرح:

- إفتح يا حورس!!

انفتحت البوابة عن رجل يدور في ساقية لا تدر ماءا سألت الملك:

- لماذا والبئر جاف؟!

لم يرد علي.. صاح نفس صيحته وهو يواجه باب آخر انفتح الباب.. أطل على عيني معمل وقوارير ورجل أشعث الشعر أغبره يجري تجاربه.. سألته.. لاذ بالصمت.. سحبني من يدي إلى ردهة أخرى.. نفس الصيحة والباب المنفتح.. هالني ما أرى رجل يسبح في فضاء الحجرة.. الصمت يلف مساحة الرغبة في السؤال لدي ونحن نغادر.. التفت إلي الملك سألني:

- تريد تفسيرا؟

- هذا أقصى ما أتمناه.

- ما رأيته هو الماضي والحاضر والمستقبل. هيا.. هيا.

- إلى أين؟

- أرشيف أعمال البشر.

نفس الصيحة.. الباب ينفتح.. شاشة ضخمة تواجهني.. أصابعة تلامس الأزرار.. الحروف تتحرك.. الأرقام تنبض فوق الشاشة.. الملك يبتسم.. يتمتم:

- هذا مرموزك!!

- أنا..ن.. هــ.. ك. "أ".

- نعم هذا أنت نظرية هندسية كونية مرموزها "أ"

ضحكت.. استلقيت على ظهري أو استلقى على ظهري وأنا أسأله:

- تحولت إلى أرقام ومنطوق ونتيجة!!

- نعم نظرية هندسية. يصنع على أساسها مئات من البشر فبعد الإنسان تحل نظريته الهندسية في إنسان آخر تماما كأي مصنوع.

- تقصد مثل السيارة والتليفزيون والكاميرا.

- أنظر ش= ٣ + ٤ - ٥= ٢، خ= ٥ - ٣= ٢.

سألت في دهشة:

- ماذا تعني تلك المرموزات وهذه الأرقام.

- إنها سجل أعمالك.. الشر والخير.. والنتيجة كما ترى تكافؤ.. لا مكان لك في الجنة ولا في النار.

- والحل؟!

- لابد من ترجيح كفة أحدهما على الآخر!!

- لو تفصح لي؟

- ستعود إلى الأرض؟!

- إلى الأرض لماذا؟

- لأنك ارتكبت خطأ بعد صدور حكم الملك المعظم بضمك إلى مملكة السلام.

- أي خطأ هذا يعيدني إلى الألم من جديد.

- هل تذكر القضية التي تخاصم فيها الفقير مع الحاكم.

- نعم.. كانت أدلتهما متساوية فنصفت الفقير.

- وظلمت الحاكم!!

- بل رجحت كفة الضعف حتى لا يسئ الناس الظن في العدل!!

- لماذا؟

- كان علي إصدار حكم لخصمين أدلتهما متساوية.

- وأدخلت في اعتبارك ضعف خصم الحاكم.

- سيكون نفس اتهامك لو رجحت القوة حكمي.

- رجحت الشفقة حكمك وكان من الأولى ترجيحه بالعدل.

- تقصد أن الحكم أخطأ لأنه صدر لصالح الطرف الأقوى.

- بل لأنه لم يصدر لصاحب الحق.

- من أجل هذه الهفوة الصغيرة تعيدني إلى عالم العذاب؟!

- بل آفة المجتمعات أن تنصر الضعيف على القوي بعد أن تحصن الرأي بالشفقة والعطف.

- لكن هذا رأي في كتاب وليس حكما في محكمة!!

- الكتاب محكمة عليا لا استئناف فيها ولا نقض.

- والآن؟!

- عد إلى الأرض هاديا ومصلحا.. إذا نجحت أعدناك إلى مملكة السلام وإذا خفقت فمصيرك جهنم.

- تريدني أن أكفر عن أخطائي بهداية الناس.. أو ليس الله قادرا على ذلك.

- القدرة لها أسبابها.. الأنبياء والمصلحون والأدباء والعلماء.. وأنت أحد هذه الأسباب هيا. هيا لا تضيع وقتنا في جدل عقيم.

- كيف أقدر على مهمة فشل في أدائها الأنبياء والرسل.

- ومن أدراك أن لا تستطيع تحقيق ما عجز عنه سابقوك!!

- لي سؤال أخير قبل أن أرحل إلى الأرض.. من أنت؟ الشيطان؟! ضحك.. الضحكة كونية.. اهتززت منها.. همهم بصوت نوراني:

- لا تنس أن تصحب معك هاديك ومهديك.. دليلك وملقنك وعصا موسى.

- تقصد السحر.

- بل المصباح.. هل تعرفه؟!

- ووجهتنا؟

- طريق الظلمات والأشباح والتهويمات تزيل غشاوتها وتنير ظلماتها للوافد الجديد.

- أي وافد هذا.. وكل شيء خامل.. أقرب إلى الموات.

- العوامل يا صديقي.

أفقت من غيبوبتي.. ظلمة كثيفة تدثرني.. جسدي متمنطق بالكفن داخل القبر.. صيحاتي تعلو وتعلو.. "أنا حي أُرزق". باب المقبرة ينفتح.. الناس ذهول.. لقد استيقظت من موتي بعد سبعة أيام من دفني.. وبت إحدى المعجزات.. أنا هذا البشر الضعيف بات إحدى معجزات الناس من هذه النقطة بدأت دعوتي لهم.

المنهج

مصباحي معي.. الطريق مظلم.. تحفُّه الخرافات والجهل.. كل شيء منطفئ حتى عمدان القيم.. أعمدة طويلة مشرئبة أعناقها.. مظلمة مصابيحها.. توقفت سألت مصباحي أجابني:

– في حاجة إلى إصلاح.

– حتى القيم..

عاودت مسيرتي.. الظلمة كثيفة.. من بعيد رأيت ضوءا أحمر منبعثا سألت مصباحي أجابني:

– نور الحانات وعلب الليل.

– في الكويت؟!

– نعم حانات للعقل وعلب للإباحية!!

لا أدري لماذا نسمى بيوت المتعة علب.. لماذا لا نطلق عليها زجاجات أو صفائح؟! الطريق الطويل متعرج تعثرت انكفأت.. برق مصباحي بابتسامة.. همس:

– من أولها!!

خطواتي وئيدة. من درب إلى حارة.. إلى شارع.. العمارات الشاهقة تطل على نهر الشارع الضيق في تحدي وصلف وكبرياء.. شامخة بارتفاعها لا يؤمها سوى أكابر الناس.. أما الشارع ورصيفه البني فلكل من هب ودب. بعضهم افترش مقاعده الحجرية والبعض الآخر يسير هائما.. ربما بلا هدف سألت مصباحي وهو ينشطر فجأة تجاه رجل وحيد يجلس في حوش تمرح فيه الأغنام:

- إلى أين؟

- أنت تعرف وجهتي.. الناس.

- ماذا تريد منهم؟!

- بداية الإصلاح أن تستمع للناس وتتعرف على مشاكلهم.

- سيجأرون بالشكوى.. الغلاء والمواصلات والقيم وتفكيك أواصر المجتمع واللصوصية المبرأة.. والإفساد المتفشي المعلن منه والمستتر وعين الحكومة الساهرة عليه.. والوزير الذي لا يترك الوزارة إلا على محفة الموت أو العزل مالي ووجه الدماغ هذا.

- مهمتك أن تصلح من حال الناس.

- صلاحهم في انصلاح حالهم.. إرادتهم من الداخل هي البخار الذي يدفع قاطرة تقدمهم وليس الإغواء..

- علينا بتنويرهم!

- كيف؟

- بمخاطبة الوهم لديهم.. بتنشيط العقل الخامل.. باستزراع الأرض الجدب.

- رغم إنني صاحبك إلا أن حديثك عسير الفهم والبلغ.

- يا صاحبي ألست معي في أن السهل هو استثارة خيال الناس وأن الإقناع عن طريق العقل والمنطق هو ركوب الصعب أو المستحيل؟

- ولماذا لا نركب الصعب؟!

- لن يسمعك أحد أو بمعنى آخر لن يفهمك. لأن الخرافة عششت على بؤرة عقله وإنسان قلبه فكيف تهدم ذلك العش الذي بنته الخرافة وقوى بنيانه الوهم والخيالات والغيبية خلال قرون طويلة!!

- إذا سايرته فقدت هدفي!

- الهدف واحد.. لكن الوسيلة مختلفة.

- حتى ولو كانت على رفات العقل!!

قلتها مستنكرا.

- كثيرًا ما نشبت الحروب لتحقيق السلام.

- أرهقتني بجدلك العقيم.

- فيصلنا التجربة.. لنجرب.. ولترى من منا على حق ومن اشترى الباطل.

- سأكون الخاسر في معركة كل خيوط دميتها مع الخرافة.

- حتى لو خسرت.. فهي خسارة مؤقتة يعود بعدها العقل إلى مملكته الخرافية.

- حلم لن يتحقق.

- بل قل كيل فاض بالناس.

- وماذا بعد الكيل وفيضانه.

- باب مغلق نفتحه عنوه.

- كيف؟

- بالنقاش.

- ونقطة البداية!

- الثورة على البالي العفن!!

- وما هو هذا البالي العفن؟

- ما يرفضه العقل وما لا يستسيغه المنطق والعلم.

- عدت إلى العقل وحصنه والمنطق والعلم وبديهياته مع أنك هدمت حصنه منذ قليل.

- يا صاحبي كل ما أرجوه أن تتفهم مقصدي.. فأنا لم أرفض مفاهيم العقل والمنطق لكن حتى تصل إليها عليك بالإبحار في سفين الخيال.!!

- مهمتي اذن صعبة.. عسرة بل مستحيلة أمام عقول صدأت مفاهيمها وتحجرت مضامينها.

- النقاش تطهير للعقل من لوث الخرافة.

- كأني أراك تريد إحياء الموات.

- هو ذاك.

- كيف؟

- عندما نفتح باب النقاش على مصراعيه ستجلو الخرافة عن مواقعها بعد أن تتهدم حصونها.

- تعني بالنقاش فكرا بلا قيود العقيدة والدين والغيبية؟

- بل فكر بلا حدود.

- هي الفوضى إذن.

- أولى خطوات الإصلاح فوضى النقاش تحت عنوان مانشيت كبير لا حظر على كلمة تكتب أو تقال.

- حتى لو نادت بهدم الغيبية.

- لا أدري ماذا يشغلك من الغيبية فإذا كان للإنسان الحق أن يقول ما يشاء فله أيضًا الحق في أن يعتقد ما يشاء أو يعتنق ما يريد فما الدين سوى صيغة لصلاح حال الإنسان إذا لم يتناولها التعديل والتغيير ضاق بها العقل أو ضاقت هي بالعقل.

- وبعد؟

- لا تتعجل فالعجلة من الشيطان!!

- قلت شيطان!! ألم نتفق أن العقل منار فكرنا!

- منار فكرنا لا وسيلة وصولنا.

- تقصد الغاية تبرر الوسيلة.

- غايتنا العقل وسيلتنا إليه التخيل وسيلة مشروعة.

- كم أخشى من الفشل.. فقد بدأت الرماح تشرع أسنتها والمخالب تتنمر بأظافرها ولم نبدأ بعد.. فماذا لو بدأنا وعجزنا عن الاستمرار؟!

- غيرك يكمل المشوار.

- أين هذا الغير والأرض جدباء؟

- كثيرون ينتظرون على أبواب القصر نتيجة الحوار بين القلم وسيف السلطان الجالس على العرش منذ سنين عدة.

- وما دخل السلطان وسيفه في نقاش لا يهز له عرشا ولا يسلب منه سلطانا.

- وكيف وكرسي السلطان وعرشه وتاجه مجدولة بضفائر الغيبية.. فلو أسقطتها هوى.. النتيجة تتبع الفرضية.

- الطريق إذا محفوف بالمخاطر.

- منذ متى وأنت تأبه لها.. دخلت السجون وعاشرت المجرمين.. وألفت الخطر وعايشته.. فماذا دهاك.؟!

- ليس هذا ما يعتمل في نفسي.

- هو الخوف إذن؟!

- ذلك ما قصدته.

- الخوف من الناس.. أم من نفسك؟!

- بل الخوف على الناس بعد أن تنبهر بالنور مثل عين اعتادت الظلمة يصدمها نور وهاج.

- أنا مدرك معك لهذه الحقيقة ومدرك أيضًا لأهمية التدرج من مرحلة إلى أخرى ثم الانطلاق.. سنبدأ بالسهل لننتهي

بالصعب في البداية مس للنفس الإنسانية بكل مشغولات الأسئلة وغوامضها حول القضايا المحظور نقاشها.. ثم ننتهي بالإجابة.

- وهذا هو الصعب.

- بل هو المستحيل لأنه بداية الانطلاق من حاجز الوهم إلى الحقيقة السجينة نفك عنها سلاسل الماضي نستنشق هواء المستقبل النقي وعبير زهرة الأمل.

- أو ليس من الأفضل أن أعيش في هدوء وأموت أكثر هدوءا وأكتب ما لا يفهمه الناس فالجنة لا تستأهل كل هذا!!

- إنها رسالة تنوير بدأتها وعليك إتمامها فالإنسان في النهاية ليس سوى مبدأ تحققه الذات العليا.

- بدأت تحدثني بلغة الغيبية وليس ببعيد أن تحدثني عن معجزة تشغل بها فراغات أدمغة الناس.

- لو تحدثت عنها الآن فلن يصدقك أحد فالناس يصدقون ما يريدون تصديقه حتى ولو كان وهما.

- هلا تركتنا من وجع الدماغ هذا وحادثتني فيما ينفعني والناس خاصة وأنا أرى الطريق مفخخا.. يخفي فخاخ الاتهامات بالجنون والكفر والردة.

- لك الله!!

- لي الله وأنت من لك؟

- لي من غيره!

- هل تعرفه؟

- ليس بالضرورة أن تلمس الحقيقة بالحواس الأرضية حتى تعرفها يكفي أن يغزوها العقل.. هيه ماذا قلت؟

- عن أي شيء تقصد؟

- عن المضي في الطريق.

- لا بأس ولكن فلتشهد معي على أنك المتقول وأنا المتلقي.

- نهج الرسل حتى تهرب من مواجهة جحافل التعصب الأعمى.

- أو ليست الحقيقة.

- بلى ولكن حاذر.. حاذر يا صاحبي.

- إنك تزلزل دواخلي بالخوف.

- لا تشغل بالك.. هيا بنا.

- إلى أين؟

- إلى هذا الرجل الأشعث الأغبر.

- ولماذا هو؟!

- حتى نعقد معه صفقة.

- تقصد تجارة.

- بل صفقة عقلية.

- كلام غريب على أسماعي.

- هيا.. هيا لا تضيع وقتنا في جدال لا فائدة منه.

في الكويت صفقة

خطوة نحو رجل تجاوز الستين. بسيط في مظهره.. قميص رخيص يدثر أعلاه وبنطلون رمادي يدثر إليته وساقيه.. على صفحة وجهه بانت تضاريس السنين.. مستغرقا.. متأملا كأنه يستوحي الذكريات.. فاجأته بقولتي:

- سلامو عليكو.

في تهكم دون أن يلقي نظرة على شبحي الواقف.

- وعليكم.

- وحدك؟

- كما ترى!!

- مع الذكريات؟

- لا مع الزفت والطين لكن قل لي ماذا "أشخشك" في شئوني.

- اللون واحد.

- تقصد لون الزفت والطين.

- مثلك أعاني.

- أحقا؟

- ومن في هذه الدنيا الغبية لا يعاني؟

- الفقراء!!

- نكتة هي أم فزورة؟!

رد علي في ثقة:

- يكفي أنهم سعداء وهم لا يفكرون في جمع المال ولا يلهثون في أثره ثم لا يحرسون المكدس من السرقة والإسراف.

- معاناة سد الرمق أنكى وأشد.

- هل جئت تواسيني أم تضع الهموم فوق رأسي.

- مشكلتنا واحدة.

- كيف.

- أملك الثراء مثلك.

- على كم تحتكم؟!

- العقل!!

- بله واشرب ماءه ستجده كبول النساء.

- عجبا.. كيف يتحول العقل إلى مخلفات؟

- حتى الآن لم نتفق على إجابة واحدة فكيف تكون مشكلتنا واحدة.

- الإجابة يا صديقي متغيرة.. بدأت بالأديان وتعدلت بالعلم.

- تقصد الغيبية التي تغيرت إلى النظريات العلمية.

- ومفهوم الحلال والحرام الذي تحول إلى الخطأ والصواب.

- إخال نفسي أمام فيلسوف.

- الفيلسوف يقول كلاما لا يفهمه غيره!!

- إذن فأنت صوفي.

- الصوفي يقول كلاما لا يفهمه هو!!

- لست هذا ولا ذاك فمن أنت؟

- أنا صاحب المصباح.

- ويطلع من هو هذا المصباح؟!

- هو من ينير الظلمة ويعبر المستحيل.

- كلام ولا الأغاني.

- أمل المعذبون في الأرض.

- لقد بدأت تظلم عقلي بسحابة شك حول هدفك.

- غدا تنقشع على شمس الحرية.

- شمس وحرية إلى أين تمضي بي في حديثك؟

- لليقين تقطف ثمرته من شجرة الاختيار والمفاضلة.

- لقد أدخلتني في دوامة وأنا لا بي ولا علي.. فماذا تريد مني بالتحديد؟!

- وجه الله.

- خللي عني فليس في جيبي ريال واحد.

- لا تتعجل في الحكم علي فلست متسولا.

- ألم تقل وجه الله؟!

- أنا أعني وجه الخير والحق والعدل والحرية والمساواة تحت ظلال العولمة.

- لوغاريتمات لا يحلها سوى رنة الريال. قل لي يا أخي هل جئت تضحك علي بكلماتك المرتبة المنمقة المنغمة الغير مفهومة كما فعل الأمريكان مع أميرنا.

- الحقيقة هي هدفي.

- لن تجدها لدي فقد حولتها كلها إلى أرقام.

- تقصد أرقام في البنوك؟

- وغيره وغيره!!

- ومع ذلك فهي كلها ضائعة!!

- بل هي باقية طالما أهدهد عليها وأحصيها وأباركها وأدعو لها يوميا أن يطيل الله في عمرها وأن يزيدها بركة على بركة.

- كل هذه صفات اليهودي البخيل.

- هذا اليهودي البخيل الذي تشنع عليه يمتلك العالم.

- إنك بحبسها تلحق الضرر بغيرك.

- أموالي وأنا حر التصرف فيها.

- هل سألت نفسك مرة كيف جمعت هذا المال؟

- كل يوم وكل ساعة يتخايل علي هذا السؤال.

- والإجابة.

- آه لو تعلم كيف جمعت أموالي تلك.. تعريت.. سيَّقْت البلاط حرمت نفسي من مباهج الحياة لم أذق التفاح سوى مرة واحدة تقاسمت فيها ثمرة واحدة مع ابني حلموس بعد أن وقع مغشيا عليه عندما رأى ثماره لأول مرة في حياته. ومع ذلك لم أحرم أولادي من شيء. اشتريت لهم الحرنكش والتوت والبلح والجميز!!!

- والنتيجة؟

- عمارتين وملايين في بنوك الخارج سايل ومسيل.. وأسهم وسندات.

- لقد أسأت فهم سؤالي.. ما قصدته من سؤالي هو نهاية كل هذا؟

- كما ترى أجلس وحيدا ينتظر أبنائي موتي.

- وفي النهاية قطعة قطن يسدون بها الشرج ثم يبعزقون مالك.

- صدقت. إنهم يدعون ربهم ليل نهار بأن يقصف عمري لدرجة أنني فكرت أن أحرمهم من الميراث.

- وهو ما يتفق مع العولمة.

- العولمة أن أحرم أبنائي من الميراث.

- يا صديقي المتأمل إن في تقرير مبدأ الميراث إخلال بالناموس.

- تقصد البعوض. لقد انتشر في الآونة الأخيرة بسبب طفح الأمريكان.

- ما أقصده هو الناموس الإلهي.

- وما دخل الناموس بالميراث. عجبي!!

- الميراث يا قرة عين أهلك يخل بالناموس هل تعرف لماذا. لأنه يخرق قاعدة المساواة.

- كيف؟

- أولا عندما يرث البعض الملايين وغيرهم ميراثه الفاقة فهو أعلى درجات الظلم وثانيا كيف لإنسان ميت منعدمة إرادته أن يمارس هذه الإرادة ويورث الآخرين أو يوصي لهم بأموال انقطعت الصلة به. مثل حاكم يحكم البشر وهو ميت.

- يا أخينا.. مالي ووجع الدماغ؟

- ألا يهمك أمر الناس؟

قهقه.. تدحرج رأسه إلى الخلف.. اهتز كرشه وعندما هدأت حركته عقب بكلماته:

- الناس.. أين هم؟

- هذا لا يضحك.

- ما أضحكني سذاجتي فما تصفه بالناس باتت مجرد أشياء. مجموعة دمي يحركها لاعب ماهر. أمير مخضرم.. إذا طقطق إحدى أصابعه قالوا معجزة من السماء وإذا فرك ما بين إصبعيه تهافتو على شم نتن الرائحة ولسانهم يلهج

بالشكر وكلمات النفاق "مسك ما تنسموه". فهل يمكن أن ينتمي هؤلاء لفصيل البشر عموما لقد بدأت أستريح لك فمنذ زمن بعيد لم أقهقه بصوت عالي.

- هي مرحلة يا صديقي تمر بها كل المجتمعات آن الأوان لتصحيحها عندما يملك الناس كل خيوط اللعب.

- كم أود أن يطول بي العمر لأرى تحقيق تلك الأمنية الغالية عندما يملك البشر مقدراتهم ويتم شفاءهم من داء السلبية.

- هل تعرف ما هي الآفة التي شلت الإرادة؟!

- ربما الجهل. ربما الأمية!!

- بل الصمت هو آفة الآفات.

- والعلاج؟!

- أن تهب على الناس رياح العولمة!!

- كيف؟

- أولا بالصياح. لو صرخ كل واحد صرخة غضب لاهتزت الخيوط في يد الأمير المخضرم.

- وماذا بعد الصياح؟!

- تقطيع الخيوط كل الخيوط.

- وماذا بعد؟

- يملك الإنسان إرادته وتلقائيا تتبدل الأماكن بتحول الأمير إلى دمية.

- كلامك هذا تحريض على الثورة.

- وهل لديك بديل آخر للتغيير؟

- أن أطالب بحقي في تقرير مصيري.

- ومن يسمعك وقد سد فحيح القنابل والصواريخ أذن الأمير.

- أحسن هاتها على بلاطة.

- ماذا دهاك. أنت لا ينقصك الذكاء.

- بات الأمر وكأن الحكام هم آفة العصر.

- وإذا كنتم حقا تريدون التحرر عليكم بحرقهم داخل آبار البترول وعلى رائحة شوائهم يتنسم الناس الحرية.

- مالي وهذه الأحاديث السياسية المعرقبة.. أنا راضي بحالي وبرائحة المجاري وروث صحابنا الأمريكان!!

- أخال نفسي أمام أحد الأولياء..

- لأنن راضي ومستسلم؟!

- بل لأنك تؤمن بأشياء غير مفهومة بعد أن تقنع نفسك بها.

- على أي الأحوال أفضل من أكون كافرا مثلك.

- هكذا أقنعوك.. الكفر قرين التمرد.

- قل لي بصراحة. من أنت وماذا تريد مني؟!

- قلت لك صاحب المصباح وما جئت إلا لتصويب هدفك.

- الصواب أن أثور على أميري وولي نعمتي؟!

- البصيرة المحدودة بمطالب الحياة يتعذر عليها رؤية ما بعد المحدود.

- مع أني لم أقرب الفاحشة ولا أتعاطى الخمر ولا ألعب الميسر ورميت الشياطين بالجمرات مرتين وأصوم وأصلي خلف الأمير.

- يا أهلا!!

- تسخر من حديثي؟!

- أبدا كل ما في الأمر أنك لا تختلف عن أميرك.

- أفهم.

- تناسيت الجوهر.. قدست الشكل والطقوس.

- يا عم اتركني لحال سبيلي فأنا لن أثور أبدا على ولي نعمتي الذي يعطيني الكثير بيمينه.

- ويعطي أضعاف أضعافه بشماله لمروض السيرك.

- حتى يستأنس الذئب المتربص لي.

- بل ليحمي نظام إماراته المهلهل المتداعي البنيان.

- تحرضني على فعل أعجز عنه. ثمنه قصف رقتي.

- فدوا لأجيال تأتي بعدك حلمها الغالي الحرية.

- ولماذا أنا؟! لماذا لا يضحي غيري.

هم الرجل بالانصراف غاضبا.. لاحقته بكلماتي:

- ليس قبل أن أعرض عليك صفقة!!

عاد الرجل إلى مكانه.. سأل مستطلعا:

- قلت صفقة!!

- نعم مثل تلك التي عقدها الأمير المخضرم مع مروض السيرك.

- أي نوع من الصفقات تلك؟

- صفقة تحرسك من الخوف أرد عنك اعتداء جارك المتكرر فتشعر بالأمان والطمأنينة.!!

- والمقابل؟

- تسلمني كل مفاتيح خزائنك.

- وأتحول أسيرا لرغباتك واستبدل الخوف من جاري بخوف آخر أشد وأنكى أستشعر الأمان من جاري في الوقت الذي أخاف بطشك لا يا عم إفتح الله.

- إلا تساوي أموالك تحررك من الخوف لتعيش في جنة أرضية.

- كمثل الجنة التي في السماء.

- بل جنة حياتية.. حقيقية تعيشها وأنت حي.

- الجنة من الجِنَّة.. كل ما قلته صدق إلا أن أتنازل عن ثروتي مقابل الوهم.

- أميركم فتح خزائنكم للمتسولين والسفلة يدفع فاتورة دعم نظامه.

- كل راع مسئول عن رعيته.

- إذا أخل الراعي بمسئوليته سقطت عنه الولاية.

- تسقط أو لا تسقط فهذا لا يشغلني لكن لن أسمح لأحد تحت مظلة أية حجة أن يسلب مني مالي ويتركني مفلسا أعاني الفاقة والحرمان ولن أتورط في ثورة أخسر فيها حياتي.

- الضحايا كثيرون.. صلب المسيح.. نفي محمد.. أعدم جاليلو.. خوزق الحلاج.. سجن علاء حامد وعاشت أفكار كل هؤلاء.. الثورة تبدأ بشعلة عقل وتتأجج على الشعوبية وتنتهي إلى العولمة.

- البداية مستحيلة فالرماد لا يشتعل.. هلا أصدقتني الإجابة. من أين أتيت؟!

- من المستقبل.

شخر الرجل مثل داعرة متمرسة.. صرخ:

- المستقبل يحادث الحاضر.. كيف.. بأية لغة وبأي مفهوم إنه العجز.. أو المعجزة.

- ليس كل مثقف أمي.. حقا الكثرة مصققة "بالصاد وليس بالثاء" تضع السلطة أحيانا بردعة على ظهرها وقد تنهق في حضرتها لكن هذا لا يمنع من وجود قلة قليلة تفهم وتعي لغة المستقبل وتعادي وتقاوم بردعة الظهر.

- إلى متى؟

- بالإصرار والمثابرة تتحول ملوحة الماء إلى عذوبة ورمال الصحراء إلى حدائق وارفة الظلال.

تملكتني الحيرة.. استدرت إلى مصباحي.. أواجهه بتكشيرتي.. بغضبتي.. عجبت لأمره وهو يزهو بنوره ضاحكا.. هممت له قائلا:

- والحل.. أنني لا أقابل إلا بالرفض؟!

- الطريق مازال طويلا عليك بالسير فيه إلى نهايته.

- وفي نهايته لن أعثر إلا على كوخ من الوهم.

- لا تتعجل واتبع منهج العولمة.. النقاش.. الاحتجاج.. التطهير.. التجريد.. الثورة ثم أخيرا التطبيق.

- كلام نظري جميل لا يمكن تنفيذه.

- بداية كل إصلاح كل نظرية علمية.. حلم.

مرت فترة صمت قصيرة عدت فيها إلى الرجل العجوز أسأله:

- هيه ما رأيك؟

أجابني في دهشة:

- في ماذا؟!

- أموالك مقابل الأمان!!

- تاني؟

- وثالث ورابع!!

سكت ابتلع ريقه أجابني بصدق:

- هو فيه أمان على الأرض للمفلس.

- كلما ازداد إفلاسه أصابته الأنيميا وأمكن تسييسه.

- مثل حكاية الأمير الذي هرب من بيته بشبشب زنوبة ثم عاد على متن طائرة مروحية..

فجأة رأيت شابين وشم على ذراع كل منهما نجمة يتوسطها صليب يختطفان فتاة.. الرجل ينهض صارخا زاعقا:

- ابنتي.. ابنتي.. انقذوها. انقذوها..

تجمع الناس.. يرون ويسمعون ولا يكترثون. لا تتحرك فيهم سكنة. ينظرون إلى الفتاة وهي تصرخ.. تقاوم.. تستغيث. رجل الشرطة هو الآخر يقف مترددا واجما الرجل يستنجد بي.. يمسك بتلابيب قميصي.. يصرخ:

- إنقذها.. إنقذها من الأشرار.

سالت مصباحي في دهشة:

- من هؤلاء؟

- ألم ترى الوشم حتى تسألني!!

- وهذه الفتاة!!

- موضوع الصفقة.
- ولماذا يفعلون ذلك؟
- حتى ينقذوها.
- من من!
- من أنفسهم!!
كيف يكون الخاطف هو المنقذ!
- إذا كانت تمثيلية أبطالها دول!!
- تقصد التمثيلية التي حبك أطرافها مروض السيرك مع الأمير.
- لك عقل راجح.
- لماذا؟!
- لحماية نظام الأمير المهلهل.
- والثمن؟
- الجاز.
- خارقين في الذكاء.
- ولا أحد يعرف أن الصفقة تمت قبل تنفيذها!!

أسد وفي الحرب نعامة

تبدد الخوف وأنا أقتحم والمصباح في صحبتي.. الناس نيام.. نيام. كأن على رؤوسهم الطير.. والخطيب يزعق يزعق عله يوقظهم من سباتهم.. في مكاني لا أبرحه.. ابتسمت ابتسامة لا معنى لها.. على ضفافها المرارة والشفقة على هؤلاء الناس.. ماذا يفعلون.. إنه المجتمع مصغرا بتناقضاته ومفارقاته.. محاصر داخل جدران أربعة لينصت.. عمل سلبي أن ينصت الإنسان دون أن يشارك في الرأي لذلك فالناس نيام.. نيام. لو كان الحديث عن المال وأساليب جنيه ونفخ الجيوب به لما احتوى هؤلاء النعاس.. لكن هذا هو حال الناس.. لم يعد يهمهم سوى ما يؤرقهم.. سوى ما يقلقهم ولأن الغيبيات أو الحديث عنها سهل ميسور لا يثير اهتمام أحد إذن فقل على الناس النوم!!

الخطيب مازال يزعق.. ويزعق.. عروق رقبته نافرة.. الزبد الأبيض يغطي شدقيه.. العرق يتصبب على جبينه.. شعيرات لحيته الكثة تهتز مع اهتزازات جسده المكتنز. أكيد كانت الست أمه ترضعه الفته بدلا من اللبن.. لا أحد يصيخ

السمع لما يقول.. القضية التي كان يثيرها هامة.. شائكة قضية أدلى فيها العلم برأي قاطع.. إلا أن السيد الخطيب مازال يتغنى بكرة السلطة التي يحملها قرني الحاكم الأوحد. تلك الكرة التي تنتقل ما بين قرن وآخر. وبانتقالها تتعاقب فصول المأساة.. وتحدث الهزات.. ويحل الظلام.. ويعم الفساد.

بدأ الضيق يشملني.. يرفع ضغطي.. والخطيب يدش.. ويدش منافقا.. مضللا سحابات تتجمع.. مرجل يغلي.. بخار الغضب يتصاعد انفجرت صائحا:

- توقف يا هذا.

الصرخة مدوية.. اليقظة تدب في أعين النائمين.. الأنظار تتجه نحوي في استغراب ودهشة وأنا استطرد زاعقا:

- رخيص الكلام.. وتوهان عقل ومخبول.

الغضب تتجمع ذراته في كلمات حادة أطلقها الخطيب المفوه:

- إجلس أيها الشقي.

- ليس قبل أن تسمعني.

- بعد الشعائر يحلو الحديث بيننا ويطول.

- تريده حديثا خاصا وأنا أريده مناقشة عامة تتصارع فيها الأفكار والآراء.

- لا الزمان ولا المكان مناسبان لمثل هذا الهزل الذي بدأته.

- أنت تسمم عقول الناس بأقوالك الجوفاء.

- تصف الدعوة لتأييد الحاكم والنهي عن منكر الاختلاف معه واجتناب معصيته والحث على اتباعه والبعد عن الشياطين أمثالك تصفها بالخواء. حذار فأنت تنزلق في حديثك وتؤذي مشاعر الناس ومعتقداتهم.

- منذ لحظات وقبل أن أبدأ حديثي معك كانوا منصرفين عنك إلى ما هو أهم.

- إن نومهم لأكبر دليل على الإيمان. فالإيمان ينبت الراحة.. والراحة تبعث على النعاس.

- أضحكتني يا هذا.. ومعي كثيرون.. الحق إنك فلتة قلما توجد.. فتلة تنشر الوباء وتعمق الحفر في المجتمع. وتزرع الخرافات ليحصد الناس في النهاية الوهم.

- تبا لك.. من أنت وماذا تريد بكلامك المعقوف؟

- أنا واحد من تلاميذ الدعوة.

- أي دعوة تقصد؟

- الاختيار.

- إذا كنت تقصد بها المفاضلة. فأنا أختار من البقول حمص الشام.

-- همك على بطنك. أقول لك الاختيار فترد علي بالحمص.

- من نعم الله علينا أن زرعناه وحصدناه وأكلناه فلولاه لهاج الفقراء وماجو ودفعهم الجوع للثورات وما طبقت المثل القائل إطعام البطون خير من تنوير العقول. وما كنا نعيش هذا الأمان والسلام الاجتماعي والرفاهية.

- تقصد أمان العسكر وسلام الجهل والخرافة والغيبية ورفاهية الخوف من الأسد الهصور!!

- هل سمعتم؟ انه يقول: إن للخوف رفاهية.

- نعم فثمرة خوف الناس رفاهية الحاكم وحاشيته.

- دعك من هذا النقاش واجلس يا رجل حتى أستكمل ما بدأته من حديث.

- ليس قبل أن تجيب على أسئلتي.

- أية أسئلة يا مهرج.. أيها الناس.. قوموا قومة رجل واحد إلى هذا القرد خذوه.. فغلوه والي الخارج إقذفوه.

- أنظر فما تحرك أحد لقولك ساكنا.. يريد الناس معرفة الخاسر في معركة العقل.

- أنت لست سوى كافر أو ملحد أو مثير للشغب أو مهيج لمشاعر القطيع.

- لأنني طلبت نقاشك.. نصبت من نفسك إلها تكفر الناس وتلحدهم.. هل سمعت عن الكاسيت.

- أمتلك منه اثنان.

- بل ثلاثة.. أنت واحد منهم.. ما على السلطة إلا أن تلقمك الشريط.

قاطعني بقولته:

- صبأت.. من أنت حتى أسمعك؟

استطردت بعدها قائلا:

- لقد حولتم مكان الصفاء والسلام إلى حانة يتجرع فيها الناس كئوس الخرافات وغث الكلام ونفايات الألفاظ والتطرف الأعمى والإرهاب الأسود ولحس مخلفات الحاكم.

- الإصرار على استمرارك في تهجمك هذا لا يعني سوى أمر واحد.. الفتك بك.

- وسأبقى على إصراري هذا حتى تجيبني.

- هل خبلت يا رجل؟

- أريد نقاشا الغلبة فيه للمنطق.

- تقصد منطق المجانين.

- إذا كان للمجانين منطقا يوصلنا للحقيقة فلنكفن منطق العقلاء الذي يوصلنا للوهم.

- شارد عن القطيع.

- خوفا من الذئاب أن تنهشه.

- ماذا تريد؟

- نقاش أبدأه بطرح سؤال.

- هات ما عندك.

- ما هي الدنيا؟

- أجابني؟

- جاهل.. بداية النهاية.

- والآخرة؟

- أمي.. باقية البواقي.

- والإنسان؟

- عبيط.. أحد مخلوقات الأرض.

- وسبب وجوده؟

- هذا سؤال يا زلمة.. خلقنا لنستعبد.

- والجنة؟

- ساذج. حدائق وارفة الظلال تجري من تحتها الأنهار.. عرضها السموات والأرض جزاء للمتقين.

- والنار؟

- أما غبي صحيح.. نار وقودها الناس والحجارة جزاء العاصين أمثالك اقتربت منه.. حاذيته.. أبعدته برفق.. تمتمت:

- الآن.. دع مكانك لي.

اعتراه الدهشة.. التعجب.. دفعني هو الآخر.. صرخ:

- على جثتي.

سألته في لين:

- إلى هذا الحد؟

أجابني:

- وهل يوجد ما هو أهم من لقمة الهم.. المم!!

- أنا لا أنتزع منك سلطانا أو نفوذا أو وظيفة.. كل ما أريده منك أن تتيح لي نفس فرصتك لأجيب على أسئلة الناس.

- ليس من مكاني المقدس هذا.

- استجب لإرادة الناس بعد أن فاضت على الشط رغبتهم.

ترك المتحدث مكانه المقدس.. تقدمت.. اعتليت مسرح الحياة.. أمامي البشر قطعان من البشر.. متزاحمون تائهون.. في الحلق غصة.. وعلى الوجوه تساؤل وصفرة وكأنها صفرة الموت.. ما بال الناس موات أو كالموات.. لا نبض ولا حركة.. أنهم يريدون بعثا جديدا يبعث فيهم روح الحياة والأمل قطع حبل تأملاتي صوت متداعي:

- كيف بالبداية أيها الفلفوس؟

ابتسمت.. أجبت بمرارة وحرارة:

- نبدأ بكل ما يحير الإنسان ويجول بخاطره.

- وما جدوى ذلك؟

- بداية الإيمان القناعة والإقناع.

- من أنت؟

- أنا المستقبل أحادث الحاضر واسترجع الماضي.

- وما هو هذا.. وذلك.. وذاك؟

- المستقبل هو العولمة.. الماضي هو الخرافة والحاضر هو الحلقة المفقودة.

- والعولمة.

- منتج العقل.

- والعقل؟

- أحد فروع قانون الكون.

- وقانون الكون؟

- أحد فروع الناموس الأكبر.

- وعمل العقل؟

- اكتشاف أسرار هذا الناموس.

- والخرافة؟

- مرض خبيث أصاب العقل الإنساني بعمى الألوان أصبح الأبيض أسودا والأسود برتقاليا!!

- والحلقة المفقودة؟

- تقصد الحاضر.. أنها محاولة للقضاء على هذا المرض الخبيث.

- ولماذا هي مفقودة؟

- لأننا حتى الآن لم نقض على هذا الوباء.

- وكيف نقضي عليه؟

- بإعمال العقل.

- ولماذا كل هذا العناء؟

- للإلمام بالحقيقة.

- وما هي الحقيقة؟

- العلم.

- وما عداها؟

- دقة زار!!

في هذه اللحظة وقف شاب على ملامحه سمات قط بري يتحفز للانقضاض على فريسته سألني بذكاء:

- قلت العلم هو الحقيقة.

- نعم.

- والغيبيات؟

- مجهول مطلق لا يمكن إنكار وجوده وفي نفس الوقت لا يمكن الاعتراف به كمعلوم داخل دائرة المعرفة الإنسانية.

- حتى الآن لم نفهم مقصدك.

- المجهول المطلق يظل مجهولا إلى أن يدخل دائـــرة المعرفة الإنسانية فيصبح معلومـــا.. والنظريـــات العلميـــة المكتشفة لأكبر دليل على ذلك.. فماذا كانت قبـــل اكتشـــافها ودخولها دائرة المعرفة الإنسانية.. مجهول مطلق!!

- أنت تنكر إذن دور الغيبيـــة فـــي إرســـاء دعـــائم الحضارة.

- خطأ إذا كنت قد فهمت ذلك.. فعبر عصور التاريخ كان للغيبية دور في الحضارة. لكنها الآن فقدت تأثيرها على كثير من الأفكار التي استوحت الحضارة من المادية العلميـــة ولم يعد لها دور يذكر.

- لكن كثيرا من المبادئ الوضعية مستلهمة من الأفكار الغيبية مثل الإثابة والعقاب.

- أفكار شاخت وعفا عنها الزمن.. في القريب العاجل ستحال إلى المعاش.

- كيف؟

- بالعولمة.

- ماذا تقدم تلك العولمة؟

- الكثير!
- مثل؟
- العلاج بديل العقاب البدني للمجرمين في مستعمرات مفتوحة بلا أبواب ولا مزاليج ولا حراس.
- وتقلب الآية بعد أن يتحول العقاب إلى إثابة!!
- العقاب بعد وقوع الضرر ليس سوى صورة من صور الانتقام.
- والعلاج؟
- وسيلة الإنسان المتحضر فالقاتل والسارق والكاذب.. والأفاق.. والنصاب.. والمرتشي.. ليس مذنبا بل مريضا.
- والهدف النهائي؟
- السلام بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين الآخرين.
- والوسيلة؟
- الاختيار.
- وكيف تحقق الوسيلة أهدافها؟
- بكفالة الحرية.
- إذن فالمجبر لا إرادة له.

- الإجبار يعني وضع إرادة الإنسان أمام أمر واحد لا سبيل إلى غيره.. والإجبار هنا يعني فقد الاختيار.
- هلا أجبت عن سؤالي. ما هي الآخرة؟
- الهدم.
- قلت الهدم وليس الموت.
- الموت يعني الفناء. والإنسان لا يفنى بل تتغير صورته.
- وصورته بعد الهدم؟
- إفتح أي قبر وسترى.
- كم هو حقير إذن هذا الانسان.
- بل هو عظيم بقانونه الهندسي الدقيق فالإنسان يحمل بجانب صفاته المادية قانون علمي هندسي محفوظ داخل أرشيف جينات العقل الكوني.
- تقصد إنه بموت الإنسان تبقى نظريته الهندسية.
- الحمد للناموس أنك فهمت.
- ومصير هذا القانون الهندسي الإنساني.
- يحل في جسد آخر تبنى خلاياه بناء على حساباته.

- إذن فليس بمستبعد أن نجد اليوم من يحمل قـــانون نابليون الهندسي ويعيش في إحدى حـــارات محمـــد علي طبالا أو زمارا.. أو قوادا.
- وهرقل وإسحق نيوتن وهولاكو وأنشتين وهتلـــر وستالين وراسبوتين ومحمد وموسى والمسيح عليهم السلام!!
- وعلينا أن نعثر على هؤلاء من بين ملايين البشر.
- قد يكون هذا أحد فروع عولمة المستقبل.
- أنت تخرف.
- ليس أكثر مما تحملون على كاهلكم من خرافات.
- والرسالات.
- لكل عصر رسالاته. أنبياء قدامى يتحدثون عن الله والملائكة والشياطين والجن وتهذيب النفس والروح، وأنبياء جدد علماء ومخترعون وأدباء ومفكرون.
- حتى الآن لم نفهم ماذا تدعونا إليه.
- دعوة صدق أبدأها بسؤال لماذا وجد الإنسان على الأرض؟
- وما خلقناكم إلا لتعبدون.

- إذا كنت تقصد بالعبادة أداء الطقوس وقراءة تراتيل كهدف للإنسانية فالانهيار قريب وهو ما نـــراه الآن على الساحة الدينية.
- وهل عرفت أنت سببا أشمل مقنعا للخلق؟
- وجد الإنسان على الأرض ليحقق مبادئ الســـلام بوسائل كثيـــرة.. بالصـــدق.. بالحـــب.. بالكـــذب.. بالحقد.. بالتصوف.. بالعمل.. بالوقاحة.... بالجرأة.. بتبنى المواقف.. بالقتـــل.. بالســـرقة.. بالأمانـــة.. بالزنا..
- الزنا والقتل والسرقة وتحدثني عن العولمة.
- في غيبة الشر لا توجد ثمـــة ضـــرورة لـــدعوة الخير.. الصراع أحد دعامات الاختيار.. بدون الشر يفقد الإنسان سبب وجوده. فلمـــاذا الـــدعوة للخيـــر والناس تنهل منه.. وبالتالي تصبح الـــدعوة للســـلام والحب والمبادئ الأخلاقية لا معنى لها في عالم ليس للشر بصمة قدم ولا ساق تـــدوس علـــي وريقاتـــه الخضراء وهذا هو الفـــرق بـــين جنـــة آدم وأرض

الإنسان لكن السؤال المحير لمـــاذا يحقــق الإنســـان مبادئ السلام؟

- هل عرفت أنت لماذا؟
- حاولت.
- وفشلت.
- الفشل لدي يعني محاولة جديدة.. وأنا مـــا زلـــت أحاول منذ مئات السنين!!
- منذ مئات السنين. بدأت تخرف!!
- أنا لست أنا.
- تخيف الناس وتلقي الرعب في قلـــوبهم وتعـــذبهم بغامض قولك.. وتقول ما لا يفهمون.
- هذه هي مشكلة المســـتقبل عنـــدما يتحـــادث مـــع الحاضر والماضي.
- لهذا فلم نفهم سبب ربطك السلام بالشر والخير.
- الشر والخير قطبان متنافران. يحاول كـــل منهمـــا اكتساب أرضا جديدة فيحدث الصراع؟ وأثنـــاء هـــذا الصراع يلقح أحدهما الآخر ليلد التقدم.
- والنصر النهائي؟

- لمن يملك القوة.
- حتى الخير له أسلحته؟
- الأعزل ظبي أمام نمر في غابة يحكمها قانون الأقوى.
- للغابة قانونها والمجتمع أيضًا له قانونه وشتان بين الاثنين.
- كلها غابة.. المهم أن يكون الناس من فصيلة واحدة حتى يتحقق السلام فالأُسود لا تأكل بعضها.
- إذن فالضعيف لا مكان له في غابة الأقوياء.
- الضعيف ذلول خنوع حتى يثور وبالتالي فلا أمل للفقير في جنة أرضية إلى أن يقوى.
- كيف؟
- ماذا تقصدون بكيف؟
- نقصد كيف يستطيع الضعيف أن يقوى؟
- بالعلم.. فمن يمتلكه يمتلك غيره من البشر وفاقده لا يمتلك شيئا.. ففي غيبة العلم تتحلل المجتمعات.
- أنت سليط اللسان.

صحت بصوت جهوري:

- من منكم غير مسجون؟
- هدرت أصوات البشر:
- كلنا غير مساجين.
- ومن منكم لم يرتكب خطيئة.

صمت مطبق.. استطردت قائلا:

- هذه الخطيئة هي قاموس الحياة.. والحق والعدل والمساواة ومحاولة الوصول إلى الكمال معاني نحاول بها أن نتحرر من قيود الخطيئة.

- أي أن الإنسان ولد بطبيعته خطّاءً.
- غرائز يحاول استئناسها.
- والجنة التي تتنادى بها.. كيف يمكننا تحقيقها في عالم ولد بالفطرة على الخطيئة.
- إذا ما استطاع الإنسان اكتشاف حقيقة نفسه عرف كيف يروضها ويصل بها إلى السلام.. الجنة الموعودة.
- قولك هذا بعيد عن الحقيقة.. فالذين يبصمون يملكون الثروة والقوة والجاه بينما يجلس دكاترة العلم فوق مصاطب الخواء العقلي.

- في بلاد يحكمها الأغبياء ويطبق فيها قانون النخبـة المعكوس هذا جائز وطبيعي.. القضية كاملة متكاملة المجتمع والفرد والحاكم.. الحاكم الغبي يفرض غباءه على المجتمع.. والكثرة العددية حتى مـع امـتلاك الثروة ليست دليل القوة بل هي نكبة تسبب الترهـل والضعف والتحلل إذا أسـيء اسـتغلالها وافتقـدت المنظور العلمي وهذا ما نراه على الساحة العربيـة فمن يملك البترول هم زبالة البشر.. أحط أنواعـه. نفاية المجتمعات.. يستوردون العلـم ولا يصـدرون سوى أموالا طائلة تنفق علـى إمتـاعهم الجنسـي والمشرب والأطعمة والأبهـة.. تحكـم منظـومتهم اعتبارات قانون الطبائع الاجتماعي المعاكس.. الحياة للأدنى.. للأسفل.
- أنت سليط اللسان.

في اللحظة التي اقتحم المسجد رجلا مهيبا يمتطي بغلا يئن.. حوله كوكبة جند تعتلي حميرا في أياديهم سيوف مـن خشب يلوحون بها.. فور رؤيتهم تباعد النـاس.. جمعـتهم صيحة واحد.

- دجال.. دجال!!

قلت لمصباحي في استياء:

- إنهم يقصدوني.. يومنا أسود من قرن الخروب.

الناس تتدافع أمواجها منذعرة للهرب من المسجد والفارس يتقدم بخيلاء فوق صهوة بغله إلى صحن المسجد وهم مازالوا يتصايحون:

- دجال.. دجال!!

قلت لمصباحي مستغربا:

- لَيْثٌ يمتطي بغلا دون أن يفترسه! عجبا!!

- لو فعل لكان أهون؟!

- ماذا تعني؟

- لقد استطاع أن يستأنس الحرية ويحولها إلى هذا الحيوان الكسيح حتى تخدمه في مشاوير حكمه البغيض.

- لكن كيف واتته الفرصة ليفعل ذلك؟

- عشرون عاما وهو يطور أدواته لاستئناسها بالرهبة والاعتقال وأوامر الذبح سلطان مطلق.. لا راد لقضائه.. له حق الموت والحياة.. يمارس سلطان الإله.. بل تعداه إلى ما هو أبشع.. فهو لا يلتزم بقانون.

- والناس أين هم؟!

- كما تراهم.. في الشوارع والمساجد والحانات ينعون حظهم المنيِّل بستين نيلة. جيفة متنقلة.. بل أدنى منها فالجيفة تتمرد على الخالق برائحتها الكريهة.!!

- وبات طريقهم مسدود؟!

- إلا في حالة واحدة!!

- تقصد التمرد؟!

- بالرفض والعض تستطيع اقتلاع المهيب من على ظهر البغل.

- هل تعرف أنها أول مرة في حياتي أرى الحرية بهيمة!

- بل هو حال الدول العربية وإن اختلفت نوع البهية.. فمرة بغل وأخرى حمار وثالثة شاة ورابعة جمل وخامسة عنزة.

الصيحات تتوالى.. نهدر:

- دجال.. دجال. دجال!!

المهيب يسأل أحد حوارييه.. يضحك لإجابته يهز رأسه هزات متواليات والصيحات تعلو من جديد:

- دجال.. دجال.. دجال!!

سألت مصباحي في دهشة:

- سأل مرافقة وسر بالإجابة؟!

- كان يظن أنهم يقصدوه.. لكن الإجابة أسعدته.

- والحقيقة؟!

- الخوف أشل فيهم لسان الحقيقة.. يقصدوه لكنهم يخافون الإفصاح فتبدلت وأصبحت أنت شماعتهم.. بت المذنب الأوحد.

- هيا إذن نختفي قبل أن يقبضوا علينا.

- ألا ترى لقد سدوا أمامنا طريق الخروج.

في تلك اللحظة صاح الفارس المهيب صيحة عنترية:

- اقبضوا على هذا الدجال المتبجح.

ارتفعت الهامات.. تدحرج الجنود أحاطوا أيادينا بالأسوار الحديدية.. وكانت ليلة ليلاء.. قضيناها في "الكركون".. استقبلنا المخبرون بابتسامة عريضة.. ثم لصق الطوابع على أقفاعنا.. وانتهت الليلة بمدنا على أرجلنا وقبل أن يفرج عنا وجهت إلينا نيابته الموقرة تهمة إثارة شغب

وقلاقل ودجل وتظاهر وطوارئ وتشرد وعبث ديني.. ولا أخلاقي.

بكيت وأنا أخطو أولى خطواتي نحو الحرية.. وصرختي تسبقني:

- يا ناس لا تخافوه.. صارحوه أنه الدجال ولست أنا.. لكن لا تصادروا رأيي..

انكفأت.. ساعدني أحد المارة على النهوض رأى الدموع في مآقي.. سألني أجبته:

- إنهم يقتلون الفكر!!

سألني من جديد وهو ينظر حوله مندهشا:

- وأين هي جثته.

تراكمت على عقلي سحابة أسى وهو يستطرد في حماس:

- ليس أمامك من سبيل سوى إبلاغ الليث بمصيبتك!!

سألته في تعاسة:

- هل تعرف أولاً ما هو الفكر؟!

- امرأة أو فتاة وربما بغل السلطان!!

ندت عني صرخة مذعورة:

- افرنقع عني أيها الغبي..

الرجل يمصمص الشفاة.. يهز رأسه يمنة ويسرى.. يتمتم باستغراب:

- حماته.. حماته هي التي أذهبت بعقله.

وسؤالي الحاضر لمصباحي:

- لماذا اتهموني أنا بالدجل.. رغم أنهم يقصدوه.

- صبرا.. صبرا جميلا.. فقد بدأت مسيرتهم بالاحتجاج ضد الدجل وغدا هذا ليس ببعيد سيحتجون على الدجال نفسه الذي امتطى الحرية بعد أن حولها لبغل.

- إنه طريق المستحيل والصعاب والمشاكل والبهدلة وقلة القيمة.

- أنت تهذي بعد أن تلاحقت على رأسك الصدمات.

- أملي أن يتحقق قدرا يسيرا مما أنادي به.

- تقصد دعوة الخير والحق والعدل والمساواة والحرية.

- بل أقصد سبب امتطاء الرجل للحرية زهاء ربع قرن دون كلمة "أف" عليّه وعلى أعوانه.

- ربما الصبر.

- للصبر حدود..
- متى؟
- عندما يستظل الناس بالعولمة.
- كيف؟
- لا تتعجل..

احتجاج في الأردن

قلت للمصباح وهو يتأبط ذراعي:

- ألم يكفك ما حدث.

أجابني والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- البداية يا صديقي دائما وعرة.

جذبني من يدي تمتم:

- هيا للعمل.

سألته:

- إلى أين؟

- إلى وكر الملذات.

- من المعبد للحانة؟!

- كلها حانات.. حانة للعقل.. وحانة للقلب.

- لماذا؟

- لنحتج؟!

- في الحانة.

- نعم.. حيث الأثرياء يرشفون الخمر زجاجات معتقة وينهلون الكمثري.. نهودا عارية.. والموز أفخاذا شهية. ويقضمون التفاح خدودا متوردة.. والشفاة فراولة حمراء.

ترددت. دفعني. ضحكته تضوي في الأبعاد.. مستطردا قائلا:

- أدخل.. أدخل وصلي على الذي لن يشفع لك.

جرسون أنيق يستقبلنا.. يرتدي "ردنجوت" حول رقبته ياقة منشاة تزينها "ببيونة" حمراء. قلت في صوت خفيض:

- السلام على من اتبع الهدى.

اندهش الجرسون.. رمقني بنظرة فاحصة أعقبها بسؤاله:

- يخال إلي أنها أول مرة تحملك قدماك إلى هذا العالم المبهرج. البراق.. سالت مصباحي مدهوشا:

- إنك لم تسترع انتباهه.. ماذا فعلت؟

- ألا تعلم أن لدي القدرة على التشكل والاختفاء والتمويه والهروب.. سترى اليوم عجبا.

عدت استرجع سؤال الجرسون. أجبته:

- عم إنها أول مرة.

رد علي بارتياح:

- سيسعدك العرض.

تمتمت بثقة:

- المهم أن يسعد صديقي.

- نظر الجرسون حوله.. الريبة تعبق نفسه.

- قلت صديقك؟!

- نم صديقي ورفيقي وحامل عصا موسى.

تمتم بذكاء لماح:

- لن يخطئ طريقه إليك عند وصوله.

- بل هو بصحبتي.

نظر الجرسون حوله مستريبا والمصباح يهمس في أذني:

- إنه يصمك بالجنون.

- فليكن.

مرت فترة صمت قصيرة أعقبها الجرسون الأسمر بابتسامة مرسومة تعلو شفتيه وقولته الساخرة:

- طبعا.. طبعا. فأنا أراه بجوارك.. كم هو وسيم وأنيق.

- كذاب.

رد الجرسون بحدة:

- سيدي.. ماذا تريد بالضبط إرسى لنا على بر.. وليس علينا سوى الطاعة والإذعان.

عقب المصباح قائلا:

- هذا هو حال المحكومين.. جرسونات في حانة يحكمها غبي أوحد ليس عليهم سوى الطاعة والامتثال له إذا كذب قالوا آمين!!

استطرد الجرسون قائلا:

- عموما سيسعدك العرض فهو شيق مثير.

سألته:

- ماذا تعني بكلماتك تلك؟

قال هامسا:

- شيق لأنك سترى ما لتم تره في حياتك.. جنة لم تسمع ولن تسمع عنها.

- وكيف هو مثير؟

- هنا النساء راقصات عاريات الأبدان.

- استغفر الله.

- والأفخاذ تتهل منها الأعين.

- حاشا لله.

- وتستطيع إذا شخشخت جيبك أن تطولها.

- أطولها.. يا خبر أسود.

- بضاعة فريدة من نوعها.. لا عين رأت ولا أُذن سمعت.

- طز في النقود.

- يا سيدي لا قيمة لها بجانب المتعة والنشوة والمزاج العالي.

توقف الجرسون بي أمام منضدة.. تمتم:

- من هذا المكان تستطيع رؤية ما خفي وما بطن. شعر العانة وفم القرد الكبير!!

جلست.. قدم إلي قائمة الطعام.. وتمتم:

- طعام أشهى من طعام الجنة.

- كأني بك قد زرتها.

- إنك لن تجد في الجنة غير الفواكه واللبن الحليب الدافئ والساعة التاسعة "نام يا حبيبي نام".. أنا هنا فسنقدم لك

بإشارة من إصبعك كل أنواع الأطعمة والأشربة والسهرة صباحي.

- ألا تعلم إنك غير وارد على هذه الجنة.

- كيف وكل ما أفعله هنا لوجه الله.

- وجه الله أن تصبح قوادا وهلاسا.

- أوليس إسعاد الناس وغسل همومهم هدفا يدعونا الإله لتحقيقه.

- بلى.

- إذن ما جريمتي وكل همي إسعاد الناس!!

- بالموبقات يا مفتري!

- هم يفعلوها بكامل رضائهم وحريتهم.

أدهشتني قوة حجته.. سألته بإعجاب:

- فيلسوف أنت؟

أجابني بأسى في كلمات متقطعة:

- علمني الحفي والجوع والعري أكثر مما تعلمه الكتب والمراجع. كنت سائسا أمام الملهى يا سعادة البيه قبل أن أحصل على درجة دكتوراة جرسون بامتياز مع مرتبة الشرف..

قاطعته:

- من خدمة السيارات لخدمة البشر.. إنها الوساطة والمحسوبية يا جرسون بك.

- بل زوجتي قدمتها وليمة على طبق المتعة للمتردوتيل العميد.

- ما أجلها من تضحية.

- إنها الحياة.. زوجتي تضحي من أجلي.. وأنا أشق طريقي علّني أصبح في أحد الأيام صاحب هذا الملهى وربما أميرا أو ملكا.

- آمالك بعيدة.

- الطموح لا يتوقف عند حد.

- كم أنا حزين من أجلك.

- لأنني طموح.

- بل لأنك تبرر غايتك بكل وسائل الشر.

- لست وحدي لا سيدي.. الكل يفعل ذلك الملك والأمير والصعلوك ماذا كنت تريدني أن أظل سائسا أمام هذا الملهى فقيرا.. صامتا.. شيئا من الأشياء حقا لقد ضحيت بزوجتي.. ولكن كثير غيري يضحي بما هو أثمن..

بالشرف.. بالأمانة.. بالنزاهة.. بالمبادئ. بالصدق.. الكل يضحي. والكل يخفي الحقيقة.. حتى الدول تضحي من أجل شعوبها باستنزاف موارد أطفال وشيوخ وشباب شعوب أخرى.

قلت له بإكبار:

- صدق ما تفوهت به.

سألني وهو يصنع ابتسامة عريضة:

- الآن ماذا تريد أن تشرب؟

فجأة اعتراه الذهول.. احتوته الدهشة وهو يرى المقعد الخالي وقد انشغل.. للحظات قصيرة بدأ يفرك عينيه.. يغمضهما.. نظراته كلها تساؤل.. يريد أن يصرخ هل هو واهم. تلك الجثة التي رآها فجأة فوق المقعد تتحرك.. وتبتسم كيف أتت.. استجمع إرادته في كلمات قليلة وهو يشير إلى المقعد ببلاهة:

- أقصد ماذا تشربان؟

- عصير فراولة.

- لدينا عصير تفاح مزج بقليل من الكحول.

- إنني لا أتعاطى المسكر.

سأل في غيظ:

- حبا في الله.

- بل حبا في نفسي.. فأنت تعرف أمراض العصر.

- وصديقك؟

- لا يأكل ولا يشرب البتة.

سألني بعتاب قاسي وأنا أدير ظهري للعرض:

- وهذا العرض الشيق الممتع؟!

أجبته بلا مبالاة:

- لم نأت هنا لنبارك الدعارة بعيوننا.

- لن يرحمك مدير الملهى.. أنظر.. إنه قادم إليك.

- على الرحب والسعة.

تقدم مدير الملهى يخفي شراسته خلف ابتسامة.. شاربه الكث يغطي أسفل وجهه منفوخا متفوقا على ذاته يحتوي غضبته بكلمات معسولة وهو يرى قفاي يتلصص على العرض الشيق:

- شرفتم المكان.

- نعرف هذا.

- العرض جميل.

- ما أتينا من أجله.

- إذن فالطعام غايتكما.

- بل الاحتجاج هدفنا.

- احتجاج.. وكل شيء لدينا داني.. المأكل.. والنسوان.. والشراب..

- إن احتجاجنا موجه ضد هذا العرض البايخ.

قال بدهشة واستغراب وهو يضغط على الكلمات بعصبية:

- هنا معبد المتعة الذي لا يؤمه سوى الأثرياء وأصحاب النفوذ والجاه والسلطان والذي لا يقدم سوى الجديد المثير.

- عشرات يستمتعون وملايين يتضورون جوعا أوليس هذا أقصى درجات الظلم.

- ظلم أو عدل.. وما دخل ملهاي أنا في مثل هذه القضية الشائكة؟

- ألا تستضيف حانتك هذه الحثالة.

- بحسابه.. نغسل لهم متاعبهم وهمومهم في مقابل مجزي يدفعوه.

- إن احتجاجي موجه ضدهم.

- ولماذا هنا.. أما كان أجدى أن تحتج أمام ملك يدوسكم بحذائه أو أمام باب محافظ يبصق عليكم أو في مكتب وزير يبول فوق رووسكم.

- هذه الحانة ليست سوى إحدى مفردات الحانة الكبرى وهذا العرض السخيف أحد فصول تمثيلية بدأها المرحوم بتنصيبه حاكما لا له في الطور ولا في الطحين.. مجرد صورة يستكمل بها الديكور.

- ربما لا تعجبك ولكن غيرك يصفق لها حتى تدمي يديه.

- عبط.. هبل.

- تسب الناس لأنهم يخالفوك في الذوق السياسي.

- بل عندما يعتقدون بحقيقة قناع الزيف.

- حكمت عليه بالزيف يا أخينا بلا دليل!!

- كيف بالله عليك يورث ميت شعبا بأكمله لشخص يحكمهم ويتحكم في أقدارهم بلا أدنى اختيار منهم.

- هم راضون سعداء بهذا الاختيار.

- ومن أدراك القضية أصلا تناقض العقل.. فكيف يرضي عنها من يملك العقل.

- تتهم الناس بالخبل!!

- لم أقل هذا بل كل ما أستطيع الجزم به أنه لا إرادة لهم في اختيار قائد القطيع وما تم غصبا يفقد أركانه الشرعية.

- لقد اختاره أبوه أوليس هذا كافيا لصبغ الاختيار بالشرعية.

- وأبوه مات وشبع موت.. فكيف تتصرف إرادته المنعدمة إلى الأحياء.

- هي وصية والوصية واجب تنفيذها.

- وصية الميت لا تجوز على الأحياء إذا أفقدتهم الاختيار فليوصي الميت كما يشاء بشرط الاحتكام لناس فلا يتولى أمرهم حاكما رغما عنهم.

- تريد بهذه الفلسفة هدم أركان المملكة الهامشية!! بل وممالك كثيرة في الخليج.

- كيف نولي أمور الناس مالا يستطيع أن يتولى آمر نفسه!! وكيف نتفادى أن يتولى أصحاب العاهات أو

المتخلفين عقليا أو المرضى أو العجزة أمور بشر في حاجة لمن ينهض بهم لا لمن يشدهم إلى أسفل سافلين أو ليس هذا أعلى درجات الظلم والسفه العدوان على حرية البشر في الاختيار.

- وماذا يضايقك وهذا حال معظم الحكام العرب.. من الشام إلى المغرب حتى الخليج.

- شوطة تقضي عليهم في ليلة واحدة.

- وتصبح الشعوب بلا قيادة.

- لو نصبنا قرودا على عروشها لكانوا أفضل.

- تتهم الحكام بأنهم أدنى من القرود.

- لأن القرود تتبع في قيادتها قانون الانتخاب الطبيعي الحياة للأقوى أما حكامنا فقد عكسوه فأصبحت الحياة للأضعف.. للأفسد.. للأوسخ.

جذبني صاحب الملهى من ملبسي صارخا:

- وما دخل ملهاي فيما قلته.. إذهب إليه واصرخ له بما يشغلك.

- كيف والجند المدجج بالسلاح تحرسه لا يسمحون حتى بهمسة أو تمتة.

- إنك بتصرفك الأحمق هذا تحجب عن رواد الملهى حقهم في الاختيار الذي أوجعت دماغي بفلسفته.

- يا صاحبي هل تعلم كيف حصل هؤلاء الأثرياء على أموالهم؟

- ذلك لا يشغلني.

- على الأقل هو أمر يشغل الناس ذلك أن أكثر هؤلاء الأغنياء حصلوا على ثرواتهم بأسلوب يتنافى مع الاختيار.

- ما هذا الهراء؟!

- الذي يتكسب من الرشوة ومن أعمال السلطة ومن الوساطة والمحسوبية والاختلاس ومص دم الفقير بماصة كابسة ومن معاناة الناس ومن السوق السوداء. ليسوا سوى مجرمين يجب إعدامهم في أوسع ميدان.

- أعدمهم إذا كان في إعدامهم صلاح الحال.

- وسينبت غيرهم في سنوات قليلة وربما شهور طالما أن الأرض صالحة للإنبات!!

- إيه حكايتك معايا.. أجيبك يمين تجيبني شمال.. ماذا تريد بالضبط.

- تغير فصول التمثيلية أو غلق الملهى.

- يا نهار أبوك أسود ومطين.

لم أشعر بنفسي إلا كومة من لحم وعظام محمولا على أيدي شرسة خارج المحل قذفوني على أقرب رصيف وأنا أصرخ واثنان من العسكر يسحباني إلى التمن:

- اختلفوا معي في الرأي لكن لا تعاقبوني.. لا تسجنوني.. فأنا صاحب رأي ولست مجرما.. أنا متفلسف ولست قاطع طريق.. أنا مبدع لست إرهابيا.

فلفوس المغرب

قال المصباح:

- فلنتعقب هذا الفيلسوف فهو محاضر فذ يملك على تلاميذه بالجامعة سلطانا عقليا كبيرا لو استطعت أن تضمه إلينا فقد كسبت لصفك الآلاف من الطلبة فالشباب دعامة دعوتك والتربة الصالحة لإنبات البذرة.

سألت المصباح:

- عن أي شيء أحادثه؟

- كل شيء حتى إلحاده!!

- ملحد هو؟

- وأكثر

- ماذا تعني بأكثر؟

- الملحد لا يؤمن بالله وما دونه من رسل وجنة وشياطين وملائكة أما هذا الفيلسوف فلا يؤمن إلا بما تلمسه الحواس.

- مادي.

- منغمس في المادية. فلو قلت له إن الوردة حمراء تحمل رائحة زكية طلب منك أن يراها ويلمسها ويشمها ليتأكد من لونها ورائحتها.

- لقد شوقتني.

- ستجده مستعدا فهو مناقش واسع الحيلة عنيد يقاتل في كل كلمة يقولها ولكن حاذر فإن لم تستطع كسبه لصفك فلا تجعل منه عدوا يناصبك العداء.

- مثير.. مثير.

- والأكثر إثارة أسراره.

- حدثني عنها حتى أستعد لقذائفه الصاروخية.

- هيا للعمل وفي الطريق سأسرد عليك باقة من حياته الخاصة.

اقتربت من الفيلسوف وهو يعبر الشارع إلى سيارته. قلت:

- سلامو عليكو.

- نظرني بإهمال وشذر.. أجابني بغطرسة:

- ماذا تريد؟

- هل أطمع في صحبتك حتى الدار البيضاء.

رد بذكاء الفضولي:

- كيف لك بمعرفة وجهتي.

- لو شرفت بصحبتك ستعرف مني المزيد.

- إلى هذا الحد.

- الي الحد الذي أعرف فيه أدق أسرارك.

كانت هذه العبارة الأخيرة هي جواز ركوبي السيارة معه. سألني:

- وماذا تعرف أيضًا؟

- أولها عشيقتك.

- وثانيهما؟

- رفيق فراش زوجتك.

- هذه ليست بأسرار!!!

- إذن فأنت تعرف.

- الإنسان المتحضر ينظر للحب كالطعام والشراب.. ما يفضله يأكله.

- لهذا فأنت في أحضان الطالبة وزوجتك في سرير صديقك!

سألني بذكاء:

- ليس من المقبول أن يكون سبب لقائك بي هذا الموضوع التافه.

أذكى مما كنت أتوقع.

- الآن أفصح ما بصدرك.

- دعوة للاختيار.

- تقصد دين جديد.

- معذرة أنا لم أسع إليك لتسألني بل لأسألك.

- هات ما عندك.

- الله.

قاطعني بضحكة ساخرة:

- الله أين هو؟

- أنت ملحد إذن.

- ملحد. ماذا تعني تلك الكلمة في القاموس.

- كل من لا يؤمن بوجود إله ينظم هذا الكون فهو ملحد.

- الله.. أرني إياه أصدقك.

- النظرية الهندسية لا تراها.. لكنك تعقلها.

- إلهي هو الوجود الذي أعقله.

- ومن وراء الوجود؟
- الوجود أيضًا.
- والقانون الذي يحكم هذا الوجود؟
- قانون الشيء.. نظامه.
- ألم تفكر يا فيلسوفنا العظيم ماذا وراء النبت؟
- بذرة وطين وماء وشمس وهواء.
- ألم تتساءل كيف تتحول البذرة إلى إنبات؟!
- علم أصول النبات.. روح إسأل المختصين فيه.

- وقردة البذرة على الانشقاق والإنبات؟
- إحدى مراحل الحياة.. تماما كالجنين في الرحم.
- وما وراء القدرة.؟
- تاني.. سراب تعيش فيه أنت وأمثالك من المهاويس.. صدقني لقد تسرب ما كنت أكنه لك من احترام.
- الموضوع معقد حتى تفهمه.
- سأنصت إليك بكل جوارحي.
- إذا اختصرته فقد ظلمتك وظلمت نفسي فالموضوع لا يمكن شرحه في كلم قليل ووقت ضئيل.

- أمامنا متسع من الوقت إلى أن نصل.

- حتى تستطيع أن تفهم عليك أن تؤمن بوجود نظام الكون.

- وما شأن نظام الكون بقضية وجود الله.

- من خلاله تستطيع أن تصل للإيمان بالله.

- عرفت الماء بعد الجهد بالماء.

- دعني أطرح عليك سؤالا.. هل يمكن أن يستقيم أي مجتمع بدون قانون ينظم حياة الناس.

- لا.. حتى الفوضى لابد لها من قانون يحكمها.

اقتربنا إذن من المفهوم الصعب.

أفرغ ما بجعبتك.

- إذا كان المجتمع الذي نعيشه له قانون يحكمه.. إذن فكيف بالكون.

- ماذا تعني بتلك الكلمة البلهاء.

- أقصد ذلك الكون بما فيه من ظواهر طبيعية وعلمية وإنسانية وكائنات وما يجاوره من كواكب وشموس وأقمار.

- تعني إنه توجد قوانين تحكم تلك العوالم.

-- وصلنا لمدخل مغارة الحقيقة.

- أنا لا أفهمك رغم ما وصفني به تلاميذي من ذكاء خارق.

- بعضهم ينافقك.

- آه.. تقصد أن مجموعة هذه القوانين ليست سوى الله.

- أمور كثيرة مازالت في الجعبة حتى نصل للب الحقيقة.

- لم تقل كل ما لديك إذن.

- خلف الأبواب المغلقة تنام المعرفة.

- إفتحها.. لم ترجئ الإفصاح عنها وقد بات كشفها ملحا بعد أن فقد الإنسان التمييز بين الخطأ والصواب.. الحق والباطل.. فاختلطت الأمور وتشابكت.. وأصبح لزاما علينا أن نعيد صياغة الحد الفاصل بينها حتى نستخرج المعنى من بطن المجهول.

- العيب يا سيدي الفيلسوف في البشر.

- بل الوباء هو الملوك العجزة المستبدين!!

- لا يوجد ملك عادل وآخر مستبد بل يوجد شعب حر وآخر مستسلم خانع.

- عندما تصبح يد البطش قوية تضيع معالم الطريق.

- يد البطش لا تدوم.

- تعيش الألم مثلي.

- الألم هو بخار قاطرة الشعوب.

- هذا إذا شحنته الإرادة.

- أين هي وقد بات الاستسلام لا فتة البشر.

- الإنسان على أبواب الخراب.

- أصحاب الملايين انتشرت مباذلهم والفقراء تهدمت جدران مبادئهم وأسقف قيمهم.

- حريق تغذية الأحقاد والفوارق الاجتماعية.

- كفَّن المسئولون الأمل في الإصلاح باليأس والغرور والإنفراد بالرأي وقلة الحيلة.. وضيق الأفق.

- وكيف السبيل إلى الإصلاح؟

- الثورة على ملوك وأمراء تعفنوا وهبت رائحة عفنهم تزكم العقول والأنفس.

- لقد وصلنا. أستودعك الله.

- إلى لقاء آخر.

- صدقني.. لقد ضقت بك للحظات قصيرة لكني الآن أتمنى أن يكون لنا لقاء آخر.

- متى؟

- عندما نتفق.

- ومتى نتفق.

- الحريق.. الحريق.. هل تراه؟

- لا أراه. ولكنني أحس بصهده!!

- سيلسعك.

- إن ما أقوله محاولة مني لصب الماء على ألسنة الحريق.

- بل هو الزيت يا صديقي.

- ألم أقل لك.. لن نتفق.

- إلا في أمر واحد.. الثورة.

- كلمة تخيف الحاكم والمحكوم.

- كلمة حق يقصد بها اجتثاث الخرافة من جذورها والملوك عن عروشهم.

- وداعًا يا صديقي.

- بل إلى اللقاء.

- أين؟

- إلى قصر الثورة.

- متى؟

- عندما تتغير صورة الإنسان.

- متى؟

- في الوقت الذي يستطيع جلد جلاديه بسوط العولمة.

- وما حاجاته للثورة عندئذ؟

- يكمل بعدها مشوار الثورة على كل عفن موروث.

- والنهاية.

- تحقيق إسعاد الإنسان.

صك الحجاز

قال المصباح:

- هلم معي.

سألته:

- إلى أين؟

- هذا البدال يغريني بالحديث معه.

- كلمني بالعربي وحياة والدك.

- بدال يعني بقال.

- من فيلسوف إلى بقال "يا دهوتي".

- إلى تعرف أن البقالة أصبحت سمة من سمات هذا العصر.. السياسة بقالة لأنها بيع وشراء ومكسب وخسارة والرابح فيها الدول الكبرى. الاقتصاد أيضًا بقالة الخاسر فيه دائما الدول الصغرى. والاستثمار كذلك بقالة الرابح فيه صاحب العمل والخاسر العامل المسكين المقولط!!

- ولماذا هذا الرجل بالذات؟

- إنه الأمير عطعوط لديه عشرات من المشروعات الاستثمارية الاستعمارية والعقارات ذوات الأربع والأربعين

دورا.. ومئات الملايين في بنوك سويسرا وأمريكا.. إنه وحده دولة داخل دولة بل يستطيع أن يضمن ديون دولة باكملها.

- كل هذا من أين؟

- من عرق الكادحين بطريقة ٤٠٤ نصب واحتيال تحت بند سياحة الحجيج.

- سهل الله له أموره.

- أمنيتي أن نضمه لصفوفنا.

- محتال ويجري دمه في عروقنا.

- نعم.. سندا لنا.

- تسند دعوة الحق بمحتال.

- يا صديقي وهل بعد الكفر شيء كانوا قبل الدعوة المحمدية كفارا ثم أصبحوا راشدين وحكاما!!

تقدم المصباح يزاحم بالأيدي والمناكب وأنا خلفه.. كلما عنَّ لي التقهقر جذبني من طوق قميصي لأدخل من جديد المعمعة سألته في عصبية:

- كل هذا لماذا؟

- حتى نضمه لدعوتنا.

– أشك أن يمتثل لعرضنا.

– لن نخسر شيئا بل هو الخاسر إذا رفض.

– كيف؟

– يكفي أن نشككه في إيمانه برسالته!!

– وهل هو الآخر له رسالة؟

– حتى الشر له رسالة يعتقد صاحبها من خلالها إنه في مصاف الأنبياء والأولياء.. هتلر.. راسبوتين.. تيمورلنك. هانيبال.. الحجاج.. نيرون.. ناصر.. وغيرهم كثير.. كثير.. اعتقدوا في الإلهام وجروا على بلادهم المصائب والخراب.. حادثة ولكن حاذر.. حاذر فله صلة وثيقة بالسلطان.. صاحب السلطة والصولجان.

– آمين.

تزاحمنا.. اخترقنا الصفوف تقدمنا إلى الأمام.. رأيته وحوله الصبيان.. يبيعون كل شيء الطعام والشراب والمخدرات والأدوية وتسهيلات الجمارك وإعفاءات الضرائب وقرارات التعيين في الوظائف الشاعرة والجوارب والملابس الداخلية وما بداخلها من إثارة وأمان الموضعية وفراء الثعالب حتى لبن العصفور.

اقتربنا أصبحنا أمام التاجر وجها لوجه.. لا يشغله أمرنا.. نحن والوقوف سواء. سألته:

- ما سعر مكرونة اليوم؟!

عجبا ما أرى. لقد ضاعت تكشيرته الصامدة.. تقدم الينا بلهفة غريبة.. احتواني في أحضانه أفسح لنا مكانا بداخل المحل.. غمرتني الدهشة لهذا الاهتمام المفاجئ. مشروبا على عجل.. والمصباح يهمس في أذني:

- لقد قلت كلمة السر ولا تدري!!

تمتمت متسائلا:

- تقصد الشفرة؟!

أومأ لي المصباح بالموافقة.. بعد أن شربت الجنزبيل سألني التاجر الموقر:

- أي صنف تريد.. الاسباكيتي الحجازية.. المقصوصة المشعوذة من "سعودة" لسان الغراب الملكي السادي.

سألته في دهشة وريبة:

- قلت لسان الغراب الملكي السادي!!

- غبي أنت أم ساذج أم سائح؟!

- لا أدري قد تكون هذه الأمور مجتمعة.

- لك عذرك إذن في جهلك لسان الغراب الملكي السادي.

- الغراب ومعناه مفهوم والملكي ومغزاه معروف لكن السادي!!

- تعرف إنه يوجد في مجتمعنا فئتان.

- تقصد السادة والعبيد؟!

- اقتربت من الحقيقة.

- صدقني مازلت بعيدا عن فهمك.

- سادتنا لا يسودون فقط على طبقة العبيد.. بل هي طبقة تنزع إلى السادية.

- تقصد بها الحصول على اللذة من خلال تعذيب الآخرين.

- وأي لذة. وأي تعذيب.. مئات.. آلاف البشر تتصارع للحصول على نعمة فلكة السلطان وهي تنتشي وترقص وتغني.

- مرضى.

- بل فلسفة حكم يا عبيط فالملايين تجد في تعذيب الرسول من قومه مثلا أعلى يحتذى لذلك تنهج نهجه.

قلت في حسم:

- إلينا إذن به عله يكون رخيصا.

ضحك كأنه يتقايئ.. تقوس بظهره للخلف والأمام. دمعت عيناه.. توجست خيفة وقبل أن يمسح دموعة أجاب:

- كيف يكون رخيصا لسان حال الحكم يا أهبل.

- حتى الآن لا أفهم.

- ما تسمعه في الراديو.. وما تراه في التليفزيون وما تقرأه على صفحات الصحف إن هو إلا وحي يوحى من الغراب الملكي السادي.

- وهذا ما تبيعني إياه.. إفتح الله.

- لكن في صكوك معدة إعدادا جيدا.. بعضها للتوبة والبعض الآخر للشفاء ونوع ثالث لأداء طقوس الحمد والشكر ورابع لخراب البيوت العمرانة وخامس لنشل جيوب فقراء الحجيج ورغم تنوعها إلا أنها صك واحد.. فأي نوع تريد؟!

سألته في دهشة واستغراب:

- ومقابل كل هذا يدخل جيبك!!

- سأكون صريحا معك.

سكت قليلا.. حملق في الفضاء المترامي.. أشار بيده المعرقبة إشارة عبر الشارع الكبير.. تمتم في صوت واهي:

- هل ترى هذه الفيلا المترامية الأطراف؟!

- تلك التي يحرسها عسكر مدجج بالسلاح دبابات شاهرة مدافعها؟!

- هي بعينها.

- وأنا في طريقي إليك أثارت انتباهي وتساءلت عنها لكن لا أحد جرؤ على إجابتي.

اقترب الأمير عطعوط بفمه الشنيع من أذني.. همس ويا ليته ما فعل:

- مكتب سمسرة استثماري يديره أصحاب البشرة الحمراء ويلهفون ثمن الصكوك الذي يدفعه الفقراء.. يشربون الخمر ويطأون النساء ويرسلون رسائل الاحتقار والمهانة على هياكل الصواريخ موثقة بدماء العجائز والأطفال ويشوون كبد وقوانص الأحرار!

- كل هذا يحدث في الأرض المقدسة.. يا خبر زي بعضه.

- لا ترفع صوتك حتى لا تسلب منك روحك.

- كيف تسكتون على هذه الرذائل؟

- سيف الحاكم طوله أميال يضرب العنق قبل بتر الأطراف.

- لماذا؟! هل الحرية جريمة؟!

- نعم إذا كانت ستهز كرسي العرش.

أشار عطعوط بيده من جديد إلى رجل بكوفيه وعقال يخرج من الفيلا يخفي وجهه وهو يستطرد قائلا:

- إنه أحد الأمراء.

- ما شأنه بهم وما شأنهم به؟

- كل يوم وبالتناوب يقوم أمير بعمل البلانة ينتف لنساء البشرة الحمراء شعر الإبط والعانة.

- والحال هكذا لم يعد أمامكم سوى اختيار من ثلاثة قتلهم أو طردهم.

حل الصمت استنهضني عطعوط في عجالة:

- تحدثت عن اختيارين فما هو الثالث؟

- نقل البيت إلى أن تتطهر الأرض المقدسة من القدم النجسة.

- أسكت.. اسكت. دعنا من هذا الحديث إلى ما جئتني من أجله.. أي الصكوك تفضل؟!

- ما هو ما المقابل لمعدم مثلي؟

- ليس بالضرورة أن تنقدني الثمن نقدا.

- جازاك الله خيرا.

قال ذلك ثم تناول صكا أعطاه لرجل كان يحاول إخفاء وجهه، عاد بعدها متورد الوجه.. يفرك يديه فرحا.. يتمتم:

- زبون من مصر الحرة!!

- نعم بالله حتى المصريون يتعاملون معك.

- مهمتنا أن نرفع المعاناة عن كل الناس بما فيهم خدامنا!!

- صفيق.

لوح بالصك أمام عيني.. استطرد قائلا:

- هذا الصك هو وسيلتك للجنة إذا أديت كل طقوسه.

- سألتك عن المقابل.. عن الثمن.. ولم تجبني.

- يا صديقي إن الصكوك لدينا نوعان صكوك للآخرة وصكوك للدنيا، صكوك الآخرة يحصل عليها الفقراء

والمعدمين أمثالك.. وصكوك الدنيا يحصل عليها الأثرياء ولكل ثمن.

- تفرقة ظالمة.

- أبدا.. بل مساواة مطلقة فالمعدم لا يستطيع أن يشتري صكوك الدنيا لذلك نعطيه صكوك الآخرة.. رغم أنها غالية.

- والمقابل؟!

- مقابلها ثمن رخيص.. اليقين.

- اليقين كلمة عامة تستوعب كثير من المعاني.

- اليقين بجدوى طقوسها.. فليس معقولا أن يقبل الإنسان على شراء صك لا يعتقد في جدوى استثمار رأسماله فيه.

- تقصد اليقين في الجنة.

- أخيرا فهمت.

قلت بمرارة:

- قسمة عدل فللأغنياء الدنيا الفانية وللفقراء الآخرة التي هي أبقى!!

- ذكي.. لماح.

- بهذا أوهمتم الفقراء المعدمين جنة في السماء ثمنها الحرمان على الأرض والمصيبة أنهم اقتنعوا بهذه المقولة فامتطوا الجو والبحر والوهاد ودفعوا الثمن باهظا من أموالهم ومن أنفسهم وهم يعبرون الصحاري الشاسعة بتأدية طقوس الصكوك في هذيان محموم أملا في الجنة العذراء التي حرصوا عليها أشد من حرصهم على الحياة.. وقاتلوا من أجلها أشرس من قتال الأثرياء للدفاع عن مكاسبهم في الدنيا والنتيجة الثري يدافع عن واقع ملموس على خريطة الحياة.. والفقير يدافع من أجل وهم غامض غير مفهوم!!

- يا أخي هذا قانون الأثرياء جنة في الأرض على جماجم الفقراء.

- وقانون الفقراء وعد بجنة في السماء.

- خالصين.

قلت في حدة:

- حثالة هؤلاء الأثرياء.

- والفقراء أكثر حثالة.. إنهم كذلك لأنهم لا يستحقون سوى هذا الفقر.

- حديثك هذا دعوة للفقير ليبقى في براثن الفقر وللغني ليزداد ثراء.

- ليس حبا في الأغنياء ولكن خوفا على الفقراء أن يفتروا على مخاليق ربنا إذا ما اشتموا رائحة الثراء..

- إذن فكل ما تطلبه من ثمن يقيني بالجنة حتى تعطيني صكا لها.

- إذا أيقنت بها فقد نلت المراد.

- والأخلاق؟

- أصبحت سلعة يا صديقي.. تشتريها كقطعة الجاتوه. أو رغيف الخبز.

- أنت تستحق القتل.

- وماذا يجدي.. وعندي صبيان.. وصبيان الصبيان يخلفوني وفلوس زي الرز إرث طويل عريض.. هل تريد نصيحتي؟

- أفصح ما بصدرك.

- عد إلى دارك والتحف من هذا البرد القاسي بمبادئك عسى أن تهبك الدفء والطمأنينة التي تنشدها وإذا تبقى منها

شيء فأطعم بها فيك.. وستجد في النهاية أنها لا تسمن ولا تغني من جوع.

- القيم هي الغيث على أرض جف فيها نبت المثل والمبادئ.

- بل هي عملة أهل الكهف التي لم تعد تصلح لمجتمع شعاره الزيف.

- غدا تغلق الحانات التي تبيعون فيها الوهم والمفتاح.

- كان غيرك أشطر.. خطواتك ستتعثر في الوحل والدمار.

- مهما كانت القعبات سنواصل زحفنا.

- الفشل نهايتك.

- خطوة يكملها غيري.

- خطوة إلى الأمام وعشرة إلى الخلف.. نصيحتي لك أن تأخذ مصباحك هذا وتختفي قبل أن يتحطم على صخور الواقع.

- حثالة.

- كررتها مع أنك واحد من هذا القطيع.. أين كنت إذا هذه الفترة الطويلة؟!

- بدأتها حربا على نفسي وانتهيت بها حربا عليكم.
- وما رأيك في اتفاق نبرمه معا.
- وضح هدفك.
- نؤيد دعوتك وفي المقابل تحترم آلهتنا.
- تقصد مناة واللات والعزى.. إنها آلهة اندثرت.
- حدثناها بعد استبدالها بآلهة المال والسلطة واستعباد البشر وشريعة الضحك على مخاليق ربنا.
- وأيضًا شفاعتهن ترتجى؟!
- صدقت فلو سلمت بوثننا الجديد سندعو بك مبعوثا للخلق أجمعين.

في تلك اللحظة زهزه المصباح غاضبا غضبة شديدة صاح:

- أبدًا لن نؤيد دعوة الباطل لتنتشر دعوة الحق.

رددت في ضيق مكتوم:

- خسئت يا هذا.. دعوة الحق إذا لوثها الباطل تحولت من لونها الأبيض إلى رمادي.
- وماله يا أخي الحل الوسط.
- كسر وسطك.

- الخاسر أنت. صدقني لن تجني سوى السراب.

- هكذا يبدأ المصلحون.

- زمن وانتهى.. لليوم شأن آخر.

- لن أيأس. فالعولمة آتية.. آتية. ستشمل الجميع حتى الخراف.

- إذن فحاول مع غيري.. قد تستطيع إقناع الفقراء بدعوة الخراب التي بدأت تعشش على عقلك.

وقبل أن نغادر المكان همس التاجر لأحد أتباعه أن يقتفوا أثرنا.. وفي الصباح كانت النيابة تستدعينا والتهمة الموجهة طرح أفكار ماركسية.. إلحادية.. شيوعية بنت كلب!! قلت لمصباحي في دهشة:

- أنظر.

نفس المنظر الذي رأيته في الكويت يتكرر شابان وشم على ذراع كل منهما وشمة صليب تتوسطه نجمة يغتصبان فتاة محجبة والفتاة تستغيث. والناس ترى تبتعد.. تتهامس. سألت مصباحي وفيروس الاستغراب يأكلني:

- هلا أفهمتني ماذا يحدث؟

- الكعبة يغتصبون قدسيتها..

- وهل ترى مثل ما أرى والناس تبتعد بلا اكتراث.. بلا مبالاة.

- لقد أشل الخوف أحاسيسهم فما عادوا يدركون معنى أو مغزى لما يحدث.

- والنهاية؟

- استبدال الخراف ببشر يذبحون على أعتاب الكعبة.

- عدنا للجاهلية.

- في أوجها أو قل نحن في بؤرتها.

- ونحن في حاجة إلى نبي جديد!

- بل إلى إله يبعث في الأرض.

منتدى العاصمة

عندما يعم الضيق نفسي.. لا أجد أمامي سواه أفتح له مكنون قلبي يسمعني عاشق يعشقني.. وهب حياته فداء لي.. كم أحبه.. كثيرًا ما اختلفنا. كثيرًا ما ناقشني وحاورني أستمع إليه وأحيانا أعتد برأيه لكن هذه المرة كان خلافنا أقوى من أي خلاف ونقاشنا أحد من أي نقاش. فمدينتنا هي مدينة الفقراء.. المظاليم.. المساجين.. لكنها أبدًا لن تكون مدينة للأثرياء فلماذا لا تكون جولتنا القادمة في إحدى أحيائها الفقيرة..

مصباحي معي أسير وإياه في الشوارع والدروب والأزقة جاهدا أن أعثر على بصيص من نور.. ظلام.. ظلام كل ما حولي.. الناس يضحكون.. ساخرون.. مشفقون يشيرون علي إشارات مبهمة.. مسخ.. مسخ!! سألته في دهشة وهو يتوقف أمام فيلا رائعة في جاردن سيتي تظلها فروع أشجار الياسمين والفل الأبيض وزهور الباسنت.

– إلى أين؟

– حصن جديد أريد اقتحامه.

- لن تجني سوى السراب. فلن ينصت لك من يفطر الكرواسو والقشطة والمربة والحليب!!

- محاولة فليس الفقر أو الثراء هو معيار التفاضل بين شخص وآخر بل المضامين فالأحرار هم الذين حرروا العبيد.

- كيف تتصور يا صديقي أن يتنازل هؤلاء الأغنياء عن نزواتهم وثرواتهم وسلطانهم. وقوتهم. كيف يسمحون لك أن تسلب منهم جنتهم لصالح الفقراء.

- الجنة التي يرفلون فيها ليست سوى وهم. جنة حسية.. ناس تأكل وتشرب وتنام أما التي ندعو إليها فهي جنة المعنى والمغزى.. العدل.. المساواة.. الحرية.. الخير.

- صدقني يا سيدي لن تنجح في إقناعهم.

- إذن فليس أمامنا سوى التلويح بالسيف.

- السيف.. السيف. ماذا تعني بهذه الكلمة المخيفة؟!

- أحيانا ما يكون الإحساس بالخوف هو السبيل الوحيد للحصول على المكسب حتى ولو تحمل أسلحته.

في انتظارنا أمام باب المنتدى صحفي "أُلعبان" حتى يسهل لنا المرور من بوابة المستحيل فور أن رآنا هتف:

- يا هلا.. يا هلا هيا إلى الداخل.

الفيلا حصن حصين.. الحديقة غناء.. جسد عذراء بتول.. تحفها أشجار السرو والزيزفون أرسلت خصيصا من بلاد بره بعد أن وقع على جذعها بالأحرف الأولى ملك الفرنجة إهداء وذكرى!!.. جداول تشق ثوب الأرض السندسي يجري فيها ماء نامق ما بين الصلب والسرائر!! فضي اللون.. يتراقص كما جسد منتشي لمراهقة في فراش.. حبات الزلط اللؤلؤية تفرش قاع الجداول.. مستسلمة لحضنه الجاري.. طاووس بالغ يصول ويجول في تؤده وكبرياء يبسط ريشه زهوا فإذا هو مرآة من الجمال الكوني بألوانه القزحية ثم يضمه في حنو كما يضم المعشوق معشوقته.. فور أن رآني دار حول نفسه مرات مزهوا.. مغرورا كأنه يتمتم "يا أرض احفظي ما عليكي" يستعرض رشاقته أمامي.. ابتسمت "لافتة الأثرياء"

في القفص الذهبي على بعد ياردات عصفوران سجينان يشدوان شدوا حزينا إنهما يندبان حظهما فما أثمن الحرية.. اتجهت إليهما فتحت باب القفص دهشت لم يبرح العصفوران قفصهما.. أمسكت بأحدهما قذفت به في الهواء للحرية.

شهقت جزعا. لقد فقد العصفور توازنه وارتطم بالأرض.. المصباح معقبا:

- قبل أن تهبه الحرية كان عليك أن تعده بعد أن ثقل وزنه وضمر جناحيه فاستحال عليه التحليق.

- إنها الحرية. كيف غاب عنه معناها.

- شغله الطعام والماء عن الحرية فما عاد يكترث بالحبسة في القفص.

"الألعبان" يسبقنا يهمس في أذني:

- حذار يا صديقي وأنت بالداخل فالرغبات محمومة لا يطفئها سوى إشباعها.

سألته أنا الآخر:

- هل تشتم.

أجابني:

- رائحة المجاري التي أصبحت لازمة من لوازم الناس!!

- بل هي رائحة الفساد.

مرت فترة صمت قصيرة قبل أن أستطرد قائلا:

- صدقني فأنا لا أحقد على هذه الطبقة ولكنني فقط أتساءل!!

- أعرف ما يشغلك.. كيف حصل هؤلاء القوم على كل هذه الثروات؟

- تماما هذا ما أود سماع إجابته.

- غباء.

- كل هذه الثروات وغباء.. إذن فأين هو الذكاء.

- غباء أن تمتص دماءهم.

- وماذا يفعل الضعيف حيال من يمتص دمه؟

- يمنعه.

- وإذا عجز.

- يحبس نفسه عنه.

- إذا حبس نفسه مات جوعا.

- ما عليه إذن إلا أن يقوم بدور السجان.

- الفقراء ضعفاء ظرفاء!!

- بل قطيع من خراف يحرسهم ذئب ينهشهم الواحد تلو الآخر.

- أو ليس من المدهش أن يكون لصاحب رأس المال عصب الربح وللعامل الحوافز والذيل والخصيتين والريح النتن من فتحة الاست!!

- وماذا تقترح؟

- المساواة هي البديل الوحيد أمام تناقض الغني الفاحش والفقر المدقع.

- وكيف تتحقق تلك المساواة.

- بالخصم والإضافة.. من الغني للفقير.

في تلك اللحظة أشار إلينا الألعبان بالدخول وكوة صغيرة في الباب الأبنوسي تنفتح عن وجه أنثوي متورد. ثمرتي الفراولة تتفرجان عن ابتسامة بتول وصفاف من اللؤلؤ وتمتمة كأنها زقزقة الماء المتدحرج في جدول.

- تفضلا.

دخلنا. غاصت أقدامنا في "وحل" الشنواه والعجمي.. للحظة قصيرة مسحت الدهشة عقلي. عقدت لساني.. هذه الفخامة والفخفخة الثريات الواحدة تزن نصف طن. من أين يا أولاد الكلب والقط والنمس "عصور ثلاثة"؟ ما لا عين سمعت ولا أذن شافت "معكوسة".. الجدران تغطيها قشرة

موهجني الدهان زيت ذرة!! لا أدري أشياء لم أرها في حياتي الستائر المخملية المطعمة بالذهب.. الأثاث القيصري الأنتيكات التي انتقلت من قصور الملوك إلى بيوت مماليك الثورة المباركة ومن المتاحف إلى قصور ملاك أكتوبر.

في كل خطوة أخطوها تدهسني إطارات الدهشة والفضول والحيرة "هول" بلغة الفرنجة تجري فيه خيول برية يتوسطهما منضدة أنيقة طوقت أطرافها بأربعة تماثيل من الذهب الخالص تكمل جميعها تمثال نسر. أما ما فوق المنضدة فلا يعد ولا يحصي. غزال مشوي.. ديوك رومي محشوة.. في أواسط المنضدة طبق أرجواني بداخله طاووس..وأطعمة أخرى كثيرة أجهلها على أطرافها قوارير الخمر وفاكهة ناضجة في غير أوانها ونهود نساء يعج بها المكان.. آه من النهود ونصفها بل أكثر من نصفها بقليل عاري تلتهمها النظرات هي والأفخاذ الناعمة الملمس.. البسمة الساحرة والضحكة الخليعة لمضيفات كالسحاب تعانق الإنسان فإذا هو محاصر بلحظات من النشوة ينقشع بعدها السحاب ليجد نفسه عاريا على سرير أو متدثرا بغلالة الجنس الشفافة.. مرافقتي تتشلني من أفكاري وهي تتأبط ذراعي.

ذوب في أناملي.. تخدير في أحاسيسي وهي تربت وجنتي بشفتيها في حنان. في رفق.. لامس صدرها المتوثب ذراعي تملكتني رعشة.. كل هذا الجمال يرتشفه ذراعي فقط يا حسرتاه علي وعلى الجمال!!

سحبتني "كالخرنج" من صالة الطعام إلى هول آخر. لوحة رسمتها ريشة فنان. الصالة تتوسطها مائدة خضراء حولها مقاعد خضراء. مقاعيد يقامرون. الشفاة محبوسة داخل صمت مقدس فلا همسة ولا كلمة ولا حتى إيماءة. السكون مخيم نسمع معه دبة النملة.. ورق اللعب يجري بين الأصابع في سباق رهيب مع الحظ.. انفرجت ثمرتا الفراولة عن همسة:

- تلعب؟
- من أين؟
- تستطيع أن تقامر على مثالياتك!
- وإذا خسرت؟!
- دين تسدده بانصهارك داخل هذا المجتمع.
- آه.. تماما كالأمير عطعوط البدال.

الأوراق تجري.. الآس.. والكومي.. والولد.. والشايب.. والدولارات كل في فلك يسبحون.. الحيرة تفرز سؤالا غريبا وأنا أشير لشاب يافع.. الإجابة تأتيني.

- إنه أشرف!!

ضحكت.. الضحكات عالية. عقبت ساخرا:

- أشرف!! سمسار للبمب والصواريخ.!!

- تساهيل الزعيم.

- لكن كيف يتسنى له المقامرة بهذه المبالغ الخرافية.

- هنا لا تسأل عن الأسرار.. فقط ترى وتستمع وتقضي مصالحك ثم تمضي في سلام.

سحبتني إلى غرفة أخرى.. فتحت بابها.. نظراتي كلها تساؤل.. رجل أسمر على جبينه وشم زبيبة.. يجلس بملابسه الداخلية أمام موقد نار.. يتصاعد دخان أرزق.. وكلما خمد الدخان.. قذف إليه بقطعة حشيش.. وقد راح في سطلة للموت أقرب منها للحياة.. هادئ.. خامل.. بجوار الحوائط تعانقت أجساد الرجال.. أيضًا مساطيل.. سألت مرافقتي:

- من هؤلاء؟

- العسكر والحرامية.

- معا.

- وما الغرابة في هذا.. عندما تضيق الهوة بين الخير والشر يتعانق النقيضان.

- ليس هذا هو السبب..

- إفتى.. إفتى.

- الناس طيبون جدا.. جدا سذج لدرجة أنهم يستحقون ضرب "البرتوشة" فخسارة وألف خسارة أن يضرب مثل هؤلاء بحذاء جديد.

كتمت السنيورة ضحكة خليعة.. اهتز ثدياها.. كم هما جميلان آه لو "قطة" أو "عضه" أعقب ذلك كلماتها المنغمة:

- بارتوشة أم باركوستا؟!

- كلاهما يقدم المنقوع.

سألت مصباحي في دهشة:

- كيف يسكت الإنسان على من يسرق ماله؟

- لما تستحيل الرؤية.

- ومتى تصبح كذلك؟

- عندما لا يجد لصرخته صدى.

- متى؟

- لما يضيع الحق في أروقة الظلم.

- كيف؟

- عندما يتحول مطية للحاكم.

مرافقتي اللولبية تجذب يدي.. تسحبني إلى ركن هادئ في الفيلا.. الإضاءة خافتة.. خافتة جدا. رجل يمدد ساقيه على أريكة شازلونج وثيرة.. أمامه زجاجة شمبانيا وكأسين.. يصب كأسا يتمتم:

- في صحتك.

سألت مرافقتي في دهشة وهو يصب الآخر داخل قلنسوة يحيطها شال أبيض:

- ماذا يفعل؟

كتمت ضحكتها الخليعة.. أجابتني:

- سبق أن قلتها لك.. هنا لا تسأل ولا تستقصي.. ترى وتستمتع وتقضي حوائجك ثم تمضي في سلام.

- ذئاب.

- صح.. ذئاب تتصارع مع بعضها البعض ثم يتوحد قطيعها لتنقض على قطيع الخراف.

- فليسوف؟! ما شاء الله.

- بل هي الحكمة أن أطأطئ الرأس وأن أسير بحذر حتى لا تدوسني الأقدام.

- وما يجبرك؟

- السلطة دانية لي ثمارها والمال أغترف منه.

- ومحصول السنين؟

- لأولادي منتجعات سياحية في وادي القمر.. وملايين في بنوك الطهر والعفة ومازال في الوقت متسع لأستزيد.. هيا حتى لا يفوتك ما هو أكثر غرابة.

- فضائح أخرى.

- بل ما يشد انتباهك ويوقظ أحاسيسك.

- ما أراه ذئاب وثعالب.. أو ليس في الفيلا خراف.

- خارج هذه الفيلا تجد كثيرون منهم يغرقون في الطوفان أما سفينة نوح فهي محصنة بنبيهم العظيم.

- رغم انك لم ترسو بعد على شط الحقيقة.

- ولن ترسو.

- ربما لأنه لا توجد للحقيقة شطئان.

- حتى تعرفها عليك أن تندس هذه الحثالة لتصبح واحدا منهم.

- عليه القوم حثالة.. عجبي.

- إنه الإنسان في أي مكان.. في أي زمان.

- لكن أرى منهم من يتوشح بالوزارة.. والإمارة.. ومن تقلنس.. ومن تعمم.. ومن يزين الصدر بالنياشين والكتف بمدفعين متقابلين ومن يقبض على القلم بالنواجز ومن يلحن وما أكثر المغنيين.

- يا رفيقي رموز الطهارة تطورت إلى معنى الأنانية وحب الذات هيا معي إلى حمام السباحة.

- كم هو رائع.. غيد وحسناوات عاريات الأفخاذ والأبدان ورجال تتفرج.

- بل تختار.

- وبعد؟

- إلى الفراش.

- وبعد؟

- يغتسلون وبعدها يصلون في محراب السلطة يرددون فيه أحاديث الكذب والنفاق والتضليل.

- أنت معهم أم ضدهم.

- معهم عندما أكون برفقتهم وضدهم وعندما أهجرهم.

- تنافقين ولا تنافقين.. من أنت؟

- لم تعرفني حتى الآن.

- أصدقك القول حتى الآن لم أصل لحقيقتك.

- أنا.. أنا الكلمة يا غبي.

استدرت للمصباح.. أشرت إليه.. "أقبل.. زهزه" بابتسامة عريضة بلهاء.. سرعان ما انشقت عن ثوبها الحقيقي ضوء كاسح مبهر وأنا أقول له:

- هل تعرفها؟

- لا يا صاحبي.

- إنها الكلمة.

- عليك إذن أن تضمها إلى مملكتنا.. من اليوم.. من الساعة.. من اللحظة.

- ودورها؟

- عندما تعبر الكلمة عن الحقيقة فهي أمضى من السيف وأحد من النصل.. هيا.. هيا.

سألت مصباحي في استياء:

- إلى أين يا سيدي.. لقد كلت قدماي.. وتوتر فكري.

- إلى حي فكير لأستثير كل ما بداخلك من كوامن التمرد والثورة الحبيسة.

- لكن المسافة طويلة.

- أراك تتخلى عن رسالتك.

- أبدًا.. فرسالتي إحدى دعائم مملكتنا.. فهي رسالة العدل والحق والحرية والمساواة.

حي فكير

بدأنا المسيرة.. بتنا على مشارف حي فكير.. رأيت شابًا هزيلاً أشرت إليه.. تقدم نحوي في دهشة.. استراب وأنا أسأله أن أتبادل معه ثوبه البالي الرث.. لم يصدق خلع ملبسه على عجل.. المصباح يسألني في دهشة:

- ماذا يجبرك؟

- حتى أحتفظ برقبتي فوق قفص صدري.

هرش المصباح.. زعق:

- أنظر.. الجلباب يشغي بالقمل.

أصبحنا داخل حي "فكير".. بدأنا جولتنا من شارع إلى درب إلى حارة. على الجوانب عشش بنيت بالطوب الأخضر.. سقفت بالغاب وفروع الأشجار أطفال حفاة عراة.. سألت ساخرًا:

- نادي عراة؟!

- بل مستنقع الفقراء.

صبي هزيل عاري يتقدم نحوي فوق حاجبه الأيسر ندبة جرح غائر يقترب مني يلاحقني.. يقبض بيده الهشة على طرف جلبابي يجذبه بعنف الجلباب يتمزق.. يتمتم:

- ورايا على بيت بديعة.

صبي آخر يافع يسير على ساق ذابلة يمد راحة يده.. يهمس في خشوع:

- إعطني مما أعطاك الله.

أجبته:

- ما لدينا لا يصلح للبطن بل للعقل.

- لم أتذوق طعامًا منذ يوم.

- لك الله.

- كلام لا يغني ولا يسمن من جوع؟

- ادعوه وسيلبي دعاءك.

- هل تعلم أن الله منحاز للأغنياء.. يعطيهم رغم عدم حاجتهم لعطائه ويضن على الفقراء أمثالنا.. منذ سنين وأنا أدعوه ليرسل لي مرة واحدة ألف جنيه أسوى بها الهوايل.. لكن لا جدوى.

هزتني كلماته.. فقانون الله محايد لا ينحاز لأحد.. الكل أمام القانون الإلهي متساوون فالمساواة والحرية وكلمات الحق والعدل والخير ليست من اختراع البشر بل هي قوانين إلهية يكتشفها البشر.. لكن ما آثاره الصبي يعبر عن تمرد وثورة حبيسة لما يعانيه هو وأمثاله من فاقة وحرمان وما يحسه من ظلم وغبن.. الصبي مازال يسد علينا الطريق هامسا في خشوع:

- إعطني مما أعطاك الله.

قال المصباح في خشونة ظاهرة وأنا أدفعه في رفق:

- افسح لنا الطريق.

ابتعد الصبي قليلا.. صرخ بتحدي:

- أولاد كلب.. أولاد زانية.

قلت في تبرم:

- إنه يسبنا.

- تضايقت لأنه سبنا.. فما بالك وهو لم يأكل منذ يوم.

- ولماذا الفقر؟!

- جريمة العصر.

- وكيف نمنع ارتكابها؟

- باللجوء لحضن المساواة.

- كيف؟

- ليس من المقبول أن يولد اثنان في وقت واحد من رحمين مختلفين يرث أحدهما الفقر والعوز ويرث الثاني الملايين.

- والحل؟

- الحرية!!

- وكيف تحقق الحرية المساواة.

- لأنها تكشف المفاسد والمباذل والعيوب.

- وما صلة هذا بالمساواة؟

- إذا كُشِفَتْ الرتوق استطعت رتقها ومنعت بالتالي الاستغلال والوساطة والمحسبوية وهي كلها موانع المساواة.

سحبني مصباحي من يدي وصيحته المعهودة تسبقه:

- هيا. هيا.

- إلى أين والدرب مسدود؟

- آخر بيت هناك غايتنا.

انه بيت العمدة.. دخلنا البيت.. مدخله لا يحجبه باب الظلمة داخله حالكة. البهو واسع. تقدمت داخل البيت. أي

نوع من البشر تضمهم تلك الجدران. في إحدى الحجرات رجل يواقع صبيًا بجوارهما شاب يطأ هرمًا.. على درجات السلم الخشبي المتداعي تمطي اثنان في غيبوبة الهيروين. في الدور الثاني أربعة من الآدميين يفترشون حصيرة بالية.. يلعبون الكوتشينة أحدهم يرتدي "جاكت فوق جسد عاري إلا من سروال.. يقامر ببنطلونه.. وآخر يقامر بحذاء هالك وثالث يقامر بصديري نفس المشهد الذي رأيته في مجتمع الأثرياء.. الفقراء يقامرون تماما كالأغنياء. لكن الفقير يقامر بحياته بثوبه بجسده. سألت المصباح في ذهول:

- من هؤلاء؟

- أنهم ندماء العمدة.

حاولت حديثهم لا يأبهون كل شاغلهم المكسب والخسارة.. فجأة احتد النقاش بينهم.. أحدهم يستل مطواة قرن غزال يطعن بها آخر وهو يدمدم:

- حرامي ابن حرامية.

ابن الحرامية أو المصاب.. يتأوه.. ينزف.. يتساقط كورقة خريف فوق الأرض الرطبة.. القاتل يحسب المطواة من بطنه.. يمسح الدم العالق عليها بملابس المصاب.. يزيح

الجثة بقدمه.. وتضيق دائرة القمار ويبدأ اللعب من جديد.. صرختي تعلو على همهماتهم:

- أنقذوه فهو يموت.

لم يسمعني أحد.. علا ضجيج المكسب والخسارة على كل شيء حتى على الرغبة في الحياة تمتمت في أسى وأنا أتحسس نبض المصاب:

- لقد انتهى أمره.

استطردت سائلاً المصباح:

- ومصير الجثة.

- الحانوتي يبيعها لأي جزار بشري.

- وأقاربه.

- لا أهل له ولا أقارب.. فهو لقيط ليلة ظلماء عابثة.

- والجريمة والعقاب.

زهي المصباح بنوره. استخفه الزهو أجاب قائلاً:

- كل ما يحدث في بيت العمدة من جرائم لا يخضع للقانون ألم ترى تمثال العدل جاثيًا على ركبتيه على مدخل البيت.

- واأسفاه.

- على العدالة أم على ما يحدث من جرائم باسم العدالة؟

- بل على الناس.

- هيا.

- ليس قبل أن أتحادث وهذا القاتل.

- عليك أن تكون مثله حتى تفهم لغته.. هيا نترك هذا المكان الموبوء.

هبطنا السلالم.. وقبل آخر درجة.. اعترض طريقي رجل غزا الشيب مفرقه.. حليق الذقن ناعمها.. لوّن شفتيه بأحمر شفاه.. ربت بيده صدري في رفق.. همس بصوت مخنث:

- لا.. ليس الآن.

سألته في دهشة واستغراب:

- ما هو الذي ليس الآن.

- إذا كان لابد وشهوتك على الباب.. فخذ مع الأسطى ميعادًا وسأكون في انتظارك وأنا في أحلى صورة.. سأهيئك وستنعم معي بليلة من ليالي الوزير حسن شهريار تحلف بها طوال عمرك...

تقززت تقايئت.. غاضت الابتسامة.. حل محلها تكشيرة هائلة وأنا أهرب بجلدي إلى البدروم.. ماذا أرى؟! خلية من النمل الآدمي عشرات يتكدسون.. مدرسة يدرس فيها أغرب المواد.. المحسوبية والوساطة والرشوة. سرقة جيوب الفقراء.. تجارة المخدرات الهيروين.. الرقيق الأبيض والأسود والأصفر والناعم والخشن.. فصول تحتضنها مراحل مختلفة.. ابتدائي.. إعدادي.. ثانوي.. عالي يدرس لهم مدرسون أجلاء.. نصف الدارسين أقرع، والنصف الآخر نزهى كما تنص لائحة مجلسهم الموقر.. عمال على بطّال وفئات.. لكن الغريب في الأمر أنهم جميعًا متفقون لا يختلفون حتى ولو بدا للغريب أنهم مختلفون. زهزه المصباح في سخرية مريرة:

– هذا هو مجلس الحرامية الموقر.. الفئة المنتقاة.

– تقصد العمدة يدشنهم والناس تبصم!!

– لهذا فهم دائما يصفقون ويمالئون ثم يرقصون ويتراقصون لتمثال العمدة.

– إنها الرذيلة في وضح النهار.. ورغم أنها في وضح النهار وترتكب عيني عينك فهي غير ظاهرة لأن الستارة

التي تحجبها عن العيون ستارة كثيفة.. صنعتها السلطة بمهارة ودقة من نسيج الحصانة الممزلق!!

حاولت أن أهرب من رائحة الرذيلة التي تعبق المكان.. أمامنا بيت مهكع طلي بالجير.. على الباب ذي السيور الخشبية بصمة جيرية لخمسة أصابع كتب على الباب عبارة "أدخلوها بسلام آمنين" حدوة حصان معلقة على صدر الباب.. أمسكت بها.. دققتها مرة.. اثنتين.. ثلاثة لا أدري.. بعدها سمعت صرير الباب الخشبي المتهالك.. ومن فتحه ضئيلة أطل على وجه امراة كالح يحمله جسد مترهل. صوت مندى بحشرجة عابثة خليعة:

– أهلاً بصاحب الوجه السمح ادخل.

ثماني حجرات تضم ثماني نساء على ذمة الحاج "صلحاوي" سألت مصباحي:

– كيف؟

– أربعة على ذمته وأربعة في العدة.

– لماذا؟

– المحصول.

جذبتني إحداهن من قفاي.. حاولت التملص منها. قبضتها قوية قاسية أدخلتني الحجرة.. الحجرة.. الحجرة فراشها وثير.. كلماتها تنبض بالميوعة:

- لا تخشى مني. فسأرعاك وأحنو عليك!!

- ماذا تريدين؟

- اجلس واهدأ بالا.

- لم تجيبي على سؤالي.

- أنت من أرغبه وأهواه.

- يا داهية دقي.

- لا أحد يرفض فض بكارة زوجة عذراء يوم دخلتها.

- يا ليل أبوك أبيض!!

- وتستمتع بالنهدين والفخذين وظلال الشجرة وعذوبة شقها.

- جئت أفتح لك باب الهداية.. فتفتحين لي ذراعيك.. أنت الشيطان نفسه.

- هذا الشيطان بالأمس ظل يراودني عن نفسي متقمصًا شيخًا مسنًا ولكن عندما خلع قلنسوته رأيت تحتها قرنان مدببان.. أفزعني بعد أن كاد يفض بكارتي.

- فسق وفجور.

بكت. الدموع من عينيها سيل جارف.. أشفقت عليها تمتمت في رقة:

- هو الندم.. لا شك إنه يعتصر دواخلك!!

- كل ما أفعله من أجل "صلحاوي" زوجي.

- خسيس زوجك هذا.

- وثلاث مساخيط ورابع شحط عواطلي تركهم لي أبي إرثا عريضًا لأعولهم.

- وما يجبرك؟!

- صل على النبي يا عم.

- صلينا.

- اسمع هل تستطيع أن تخالف ربنا.

- كثيرون يفعلون ذلك.

- أما أنا فلا أستطيع أن أغضب صلحاوي. لقمة الخبز يوفرها لي.. أما الله فكثيرا ما شكوت له فقري وما آل إليه حالي لكنني لم أحصل منه لا على قليل أو كثير.

- ومن أدراك؟

– تقصد أن النعيم الذي أعيش فيه من عند الله وأن كل ما يحدث لي من صنعه!!

– بل من صنعك أنت فالله لا يدفع الإنسان للرذيلة.

– لكنني مؤمنة وموحدة!!

– على أنهي ملة؟

– على ملة صلحاوي زوجي.

– وفي النهاية أمة ذليلة تبيع فرجها. إحدى البثور في وجه المجتمع القبيح.

– قد تتغير نظرتك نحوي لموسمعت قصتي.

– لك قصة.

– وتاريخ عندما كنت في العاشرة من عمري ورآني الصول "تواصر" زوج أمي وأنا استحم في الطست الألمونيوم.

قلت ساخرًا:

– كبرت في مخه.

ضحكت.. ضحكتها الخليعة فيها طراوة ونعومة:

– عليك نور.

– وشعوطت معاه ولهلبت.

- هو أنت كنت معانا.

- وآخرتها.

- يا عم أنت أهبل.. الحكاية معروفة.. عينه زاغت.. التقطني من الطشت وهتتك بتتك حتى أغمى علي وعندما أفقت ربت علي وطمأنني على الغد.

- مجتمع منحل.

- إخص. مثل كلام الشيخ سادات.

- وما شأنك به. أو ما شأنه بك.

- جارنا على السطوح.. كان يحلو له أن يرسلني لقضاء بعض حوائجه من البقال وفي إحدى المرات أغلق دوني الباب.

- أكيد ليهديك سواء السبيل.

- اسمع لماذا تبول علي بهذا الكلام العسيل الذي لا ينفع ولا يغني ولا يسمن من فقر. هو انت إبليس؟!

- صدقت. في عصر مثل هذا العصر حيث تغتصب فيه البراءة ويولي الحق الأدبار وتتحول دار العدالة إلى وكر يأوي المجرمين وتصبح القيم خيال مآتة وينضح الكذب بأقاصيص جوفاء عن شجاعة مقذوفات الرصاص في

مواجهة محاولات الاغتيال بعرائض الالتماس والشكاوي!! يصبح الحديث عن الهداية رجس من عمل الشيطان!!

- أكملي. أكملي قصتك مع الشيخ سادات.

- بعد دقائق معدودة كنت أرتدي ثوبي وفي قبضة يدي عشرة قروش.. اشتريت يومها نصف كيلو عنب لم يُنسني مذاقه الحلو طعم المرارة التي لعقتها!!

- وأكلت من العنب الكثير؟

- ورد على أصناف وأشكال.. تفاح وكمثري وموز.. كلها كانت في طعم الحنظل. الشيء الوحيد الذي لم أذق طعمه هو الحب.

- الخطيئة لا تلد الحب.

- كلام مهاويس.

- جئتك هاديًا فتلوحين لي بالراية الحمراء.

- هيا لا تضيع وقتي معك في جدل عقيم واقرأ جسدي العاري عسى الله أن ينفخ في صورتك.

- وأخيرًا بدأت المفاهيم تغيب في طريق البلاهة.

- حادثني بالعربي وحياة أمك.

- دعوة الحق كيف تفهم.

- حق.. باطل.. وما دخل المتعة في أقاويلك الجوفاء.

في تلك اللحظة اقتحم المصباح زاعقًا.. صارخًا:

- هيا يا صاحبي.

قلت متسائلاً:

- ماذا فعلوا معك؟

- ظن أحدهم في الظنون فحاول أن يلوطني!! هيا نخرج من هذا المستنقع.

عقبت في إحباط ثقيل:

- ماذا يتبقى إذا لاطوا العقل!!

أشرت للمرأة.. صرخت في غضبة شديدة:

- إنها ليست سوى خلية سرطانية يجب استئصالها.

أجابني المصباح في رفق:

- بدأت تتحدث بلغة المتشنجين. الاستئصال.. البتر وإهدار الدم يا صاحبي إنها واحدة من المرضى لها مطلب عادل أن نوفر لها لقمة الخبز ثم نحاسبها.

- كيف؟

- بتهيئة الظروف لها للعمل الشريف.

يد ناعسة تمتد نحوي في رفق وعذوبة.. صوتها يتهدج في غنج:

- هيا فانهل من صدري وفخذاي ما شئت!!

- سيدتي لقد أخطأت الطريق.

في تلك اللحظة زعقت "ناعسة" صوتها مدوي.. بعدها اقتحم المعلم "صلحاوي" الحجرة. دمدمت فور رؤيته:

- اطرد إبليس هذا من جنتنا بعد أن رفض كل المتع الدنيوية.

قال لها بتؤده:

- صبرا جميلا.. صبرا جميلا.

- خذه بعيدا عني فهو لا يصلح لامرأة.. قد يصلح لرجل لكن لامرأة فهذا من رابع المستحيلات..

جذبني "صلحاوي" من طوق جلبابي وأنا أتمتم:

- بالهوادة.. بالهواده يا سيد صلحاوي.

وقبل أن يقذف بي خارج بوابة العمدة تمتم:

- هنا في آخر الحارة تستطيع أن تدفع ربع جنيه مخروم وترى عزيزة ويونس يتضاجعان.

استدرت للمصباح. قلت في مرارة:

- هل سمعت. لقد سخر مني أسافل القوم.

- لا تحزن يا صديقي. فقد سخروا قبلك من الأنبياء والعلماء والفلاسفة وأنت من تكون؟

وقبل أن ننطلق عدوا لنخرج من بؤرة الفسق سألت مصباحي:

- أصدقني القول وشرف جدك عن هذه المرأة التي تريد أن تزف عذريتها علي.

- هي الحكومة!!

- وصلحاوي؟!

- ألم تعرفه؟!

- كلهم يرتدون نفس الزي.

- إنه آخر عنقود ندماء العمدة قبل انفراطه وهذه مهمته.

- قواد!!

- همزة الوصل بينها وبين الناس.. كله بثمنه.

- والضحية؟

- الأخلاق بعد أن يتم خوزقتها.

غرائب في لبنان

قلت لمصباحي وأنا أتأبط نوره في صبر ومثابرة:

- إلى أين.. لقد أضناني التعب وأرهقتني التساؤلات التي لا أجد لها إجابة.

لكزني.. اهتز جسدي بالنشاط والحيوية. سألته ونحن نتجه لحفل:

- هل تعرف هؤلاء القوم.
- ليس بالضرورة أن تعرفهم حتى تهنئهم.
- زواج أم طهور.
- لا هذا.. ولا ذاك.. بل حفل تأبين لعريس ميت.
- تقصد ميتا ومعزين.
- بل أقصد ميتا ومهنئين!!
- مهنئين!!؟
- انظر لأكواب الشربات والأفواه تلتهم ما بداخلها وبدلاً من الدموع تتناثر الضحكات والابتسامات.
- هذا أغرب ما رأيت.

- ليس في هذا أية غرابة.. فالمدعون أتوا من كل حدب وصوب ليهنئوا الورثة على إرثهم العريض من الميت. واستعدوا للحفل بمغني مشهور عما قليل ستهتز عمامته طربًا أمام راقصة تهز البطن والصدر وتثير غرائز الميت ومعهم فرقة الأسطى "خلعي".

- هذا ما لم أسمع به.

- وأنا مثلك.. لم أر ولم أسمع عن أي مجتمع يحتفل بالميت.. وكما تراهم أمامك يوزعون الشراب.. والمهلبية. والحلويات. وهذا الركن البعيد الهادي يقدم منقوع الجزم.

- وبعد أن ينفض السامر.

- يرافق الميت ألد أقاربه إلى المدفن!! ويقيمون هناك حفلة ثانية يكمل المغني أغانيه تصاحبه الموسيقى والأكف الملتهبة ورقصة الدبكة حتى يدخل قبره.. ويظل على هذه الحال فترة طويلة ومعه المغني تصاحبه الموسيقى والكورس!!

- لماذا.. لماذا كل هذا.. ما ضرورة هذا الغناء الجنائزي؟!

- من أجل الفَسحَة.

- تقصد فَسحَة المدرسة؟

- بل أعني فسحة المكان الذي يتركه الميت لغيره بعد أن ضاقت بالأحياء السبل.

- فقط؟!!

- وأيضًا قد يكون السبب الذبذبة.

- تعني أن ذبذبة الغناء تقلل من عذابات الميت.

- هو ذاك!!

- وهل الأموات تحس أو تشعر بالموسيقى والغناء.

- بل هي الروح التي يؤنسها الغناء.

- ويحك.. هل تسخر مني!!؟

- هذا هو تصوري.. فإذا كان القبر حفرة نار فذبذبات الكلمات تصبح كالمروحة ترطب الجو للميت وتحيل الحرارة إلى نسمات عذبة.

زهي مصباحي.. الزهوة تتخايل على وجهه الصبوح. أعقبها كلماتي الساخرة:

- وقد تكون الذبابات كالغيث الذي يطفأ النار.

- يا صديقي هذا شأنهم.

- وهل هذا يرضيك.. أن يترك الناس أعمالهم ومصالحهم لهذا السفه.

- إحدى الآفات.. فالملايين التي تنفق على هذا السخف أولى بها الفقراء حتى يختفي من مجتمعنا صلحاوي وناعسة وأمثالهم.

- هراء.. هل ترى الراقصة اللولبية؟

- إنها تشيع الميت إلى مثواه.

- بل تزفه للدار الآخرة بالرقص يصاحبها الزمر والطبل.

- لقد بدأ المغنى ترتفع عقيرته بالغناء.. لن أسكت على هذا.

- هل تريد أن يضعوك مكان الميت؟

- لأننا نحتكم للعقل.. فما جدوى هذا الغناء.. ويا ليته غناء يسر القلب.

- الناس على عادات آبائهم.

- بدعة علينا أن نتصدى لها.

- صدقني لن تجني من هذه السفسطة سوى السراب.. المهم هل تريد حديث الميت.

تمتمت في دهشة واستغراب:

- منذ متى يتحادث الموتى؟
- أعمالهم التي خلفوها تستطيع التحدث عنهم.
- تهزأ بعجزي.
- ألم تحادث النملة سليمان.
- النملة كائن حي.. أما الميت.
- قلت لك أعماله وليس شخصه!!
- إذن علينا أن نقلب الصفحات.
- هذا كتابه مدون فيه كل الخطايا والحسنات.. افتحه ثم اقرأ باسم الإله الذي خلق الأرض واستنبت النبت من البذرة.. وشق الأرض بالجذر.
- وما جدوى ذلك ونحن نغوص بعقولنا في بحر من الرمال المتحركة؟!
- فتح باب النقاش على مصراعيه دون قيد أو تحفظ.
- وماذا بعد هذه الفوضى الفكرية؟؟
- بات النور الذي سبق وأن أضاء ردهات البشرية في حاجة إلى مولد جديد يوقظه من سباته بعد أن خفتت أنواره.

- تقصد مفهوم جديد يرتديه جسد الفكر الذابل.. كل هذا لماذا؟

- لماذا.. الجهالة التي عششت على العقول والقلوب.. أعمتهم فهم لا يبصرون هيا.. هيا افتح الصفحات.. قبل أن يحملوا الميت إلى مثواه.

- كيف أستطيع ذلك والكتاب فوق رأس الميت أعلى مستوى ناظري.

- مزق سترتك وأشعر على أطلال الميت شعرا منظوما بكلمات الوفاء والحب.. ستجد بعدها الطريق ممهدا أمامك لحديثه.. أسرع.. أسرع.

التقطت عودا من أحد الموسيقيين.. بدأت في الغناء المواويلي:

- يا حبيبي يا قرة عين صاحبك.. يا من تركتني وحيدا في البيداء دون أن تودعني فأضعت حياتي هباء.

أفسح لي المدعوون الطريق.. وأنا أصرخ:

- قبلة واحدة.. قبلة واحدة لصديق عمري..

النعش المحمول يهبط إلى أسفل.. الأرض تصدمه.. الميت يئن.. "أي".

سألت مصباحي:

- هل سمعت؟!

- حادثه.

- وهل الموتى يتكلمون.

- ألم تسمع أناته منذ برهة.

سالت الميت:

- اسمك؟

صمت.. صمت.. عدت أسأله:

- اسمك وسنك وعنوانك؟

قال المصباح في ثقة:

الأسماء تمنحي بعد الموت اسأله بشفرة البصمة.

سألته من جديد:

- أي بصمة أنت؟

همهمة تصدر من الميت.. جموع المدعوين تنصت.. صيحاتهم تتوالى منذعرة.. مندهشة:

- المعجزة الكبرى.. الميت يتكلم.

سألت المصباح:

- لم أفهم همهمته؟

- إنه يخبرك أنه محفوظ في العقل الإلهي بموجب النظرية الهندسية الرابعة بعد الألف مليار المليار البليون.

سألت الميت من جديد:

- هل تقصد أن النظرية الهندسية ليست سوى بصمة الإنسان؟!

- هو ذاك.

- وروحك.

- طلعت روحك.. دعهم يدفنون جثتي فإسفلت الشارع ساخن تلسعني حرارته وتذكرني بنار القبر.

- ليس قبل أن تخبرني من أين أتيت وإلي أين ذاهب.

- من فرج إلى فرج.

- وحتى تعود إلى الفرج الثاني ما هي خططك؟

- نظرية هندسية تحلل ردائها المادي البشري في التراب إلى مواده الأولية في انتظار مولود جديد تتقمصه.

- ويتكرر تطبيقها على آخر كما الاستنساخ؟!

- صدقت.

- إذن فالبشر متماثلون.

- بل هم مختلفون باختلاف بصمتهم المادية.. الثوب الذي يرتديه كل واحد منهم.

- تقصد أن الإنسان يحمل نظرية هندسية وأخرى مادية.

- أي نعم.

- وأنت ماذا كانت نظريتك المادية.. قصدي ماذا كنت تعمل.

- قاضي شرعي.

- كنت تفصل في قضايا الناس إذن.

- بالعدل والقسطاط.

- لكن كتابك المقروء يقول إنك كنت آثما تشرب الخمر وتخالط النساء.

- كذب.. كذب.

- كيف؟

- شربت الخمر ولم أضر بالناس.. وخالطت المرأة وأنا أتبع مبدأ السن بالسن والبادي أظلم.

- كيف؟

- عاشرت زوجة رجل خانتني زوجتي معه.

- والمحصول؟!

- سالم هذا الذي يقف بجوارك يبكي ليس ابني بل هو نطفة الأسد من زوجتي وهذا الشاب الذي يزين كتفه النسر الذهبي والنجمتين ابن لي أنجبته أمه من بين الصلب والسرائر!!

- كما ألعاب السيرك.

- بل هي ألاعيب السياسة.

- والميراث؟!

- حسب الشرع.

- أي شرع تقصد؟

- ابني الحقيقي يرث أبوه الوهمي المليونير. وسالم ابن المليونير يرث الفلس والفقر مني.

- أنت شرير.

- لا يوجد ما يسمى شر أو خير.

- يا نهارك أسود من قرن الخروب.. أنت هكذا تقلب الموازين.

- يا صديقي الحي الخير أو الشر صيغة من صيغ العقل البشري تختلف باختلاف المجتمعات وتطور الزمن فما

يتعارف عليه مجتمع أنه خير قد يختلف حول مضمونه مجتمع آخر في مكان آخر حتى هذه المضمون قد يختلف بالنسبة لنفس المجتمع في زمان آخر... فما يكون سائدا في عصر قد تذروه رياح التغيير في عصر لاحق.

- مثلا.. مثلا.

- نجمة داود التي كانت تداس تحت الأقدام علقت كنياشين على الصدور!!

- كلامي يعني أن ما بداخل أطر الخير والشر أعمال من صنع البشر يحللون ما يرتأون ويحرمون ما يشاءون.

- بل أقصد أن الخير نسبي وكذا الشر إلا أمر واحد فقط ثابت ثبوت الأزمنة.

- تقصد به التطور.

- صدقت.. بشرط وجود الأرض الخصبة التي تسمح بنمو بذرته فيه.

- تقصد بتلك الأرض الإنسان.. ما أعظمه.

- بل أقصد بها العلم.

- والبذرة هي العقل البشري.

- الحمد للقانون أنك فهمت.

- وهذا إذن سبب تنصل كثير من المجتمعات من أحكام الدين.

- هل تعلم لماذا أحجمت معظم الشرائع الوضعية عن رجم الزانية؟

- التقدم والتحضر..

- بل السبب يكمن في الإباحة التي تقابلها قسوة.

- إباحة وقسوة.. إنك تتحدث معي بلغة الفلاسفة.

- يا قرة عين أبيك.. لم يكن من المعقول أن يباح الإنسان وطئ ما ملك من عشرات الإماء ثم يزني بعد ذلك.

- قصدك أن مثل هذه الطفاسة تقابلها قسوة.

- هذا ما عنيت.. فإذا كان في استطاعة الإنسان أن ينكح ما شاء له من النساء بفلوسه فلماذا يزني إذن!!

- وما الفرق؟! الزاني يشتري المتعة بنقوده مثله مثل من يشتري الإماء!!

- بدأت تفهم.. إلى اللقاء.

وقبل أن تحمل الأيادي النعش همس الميت:

- بعد تسعة شهور.. بعد تسعة شهور.

سألته:

- ماذا تعني؟!

لم يعرني جوابا.. أسرعت خلف نعشه.. ألححت في سؤاله.. عدت لاهثا.. متمتما بإحباط بحدة لم يعرف جوابا.

- لم يجبني الميت ابن الـــ...

زهى مصباحي أجابني:

- في الجوار بعد تسعة شهور سيولد طفل يحمل نظرية الميت الهندسية.

تساءلت من جديد:

- الإنسان إذا خالد كل ما في الأمر أنه يغير ثيابه كلما بليت.

في العراق حساء

قال لي مصباحي وهو يجنح ناحية الجنوب:

- هل تريد أن تشرب حساء:

قلت مصفقا:

- الحقني. أنا ميت من الجوع.

- إلى العراق إذن.

- حساء في العراق كيف وهم يتضورون جوعا.

- وأي حساء.. لا مثيل له في الوجود.

- تقصد حساء جراد.

أطفأ المصباح نوره.. استطردت متسائلا:

- هو إذن حساء ضفادع؟!

- فلنؤجل الحديث عن نوعه حتى نصل.

هبطنا إلى أرض العراق.. الأرض الحبيبة. كم لاقت من الأهوال.. وكم تلاقي الآن من هوان تاريخ وحضارة وإنسان وشعب عزيز ولكن سنابك التخلف تدوسه بعد أن ضنت عليه حزمة الكهرباء.. وسكتت المحركات.. فأشعل لمبة الجاز واستوقد النار من الخشب أو وابور يعمل أيضًا

بالجاز.. وأسكتت طموحاته قوة غشيمة تصول وتجول مثل الغول في بلاد السلام.. انزوت حضارته في ركن قصي تبكي سالف العهد والأيام.. أيام بابل وحضارة العرب الفتية. تبكي ولا أحد من قدامى أصدقائها يقدم لها ولو منديلا ورقيا يجفف دموعها ولا حتى كلمة مواساة.

في الطريق رأيك رجلا يضرب حمارا في قسوة. نظرت للحمار.. منقوش على رقبته علم أمريكا سألت الرجل في دهشة:

- لماذا؟

- ألم تفهم؟!

- ما فهمته أنك تضرب حمارا!!

- بل هي أمريكا!!

- وأنت الآن تضرب أمريكا!

- حتى أحافظ على موازين القوى!!

- تضربكم بقنابل الليزر فتضربون أنتم الحمار بالعصا.

- وماذا في يدنا لنفعله.

- أمامكم الحرب بنصل السلام!

- كيف؟

- ميثاق عدم اعتداء بينكم وبين جيرانكم.

- وبالتالي تسقط كل أقنعة أمريكا في بسط الحماية على دول الخليج.

- بدأت تعي الفلسفة.

- لكن من يسمح بذلك وأمريكا تقف مستنفرة ضد أي محاولة لبسط يد السلام.

- الشعوب!!

- أين هي؟

قال المصباح في ثقة وصدق:

- صدق الرجل.. فأين الشعوب هي إما ميتة وإما ميتة مصلوبة!!

- قد نكون في حاجة إلى بعث جديد.

جذبني المصباح من يدي.. الجذبة مغناطيسية شديدة.

- هيا.. هيا.. حتى نرى مشهدا آخر فالشوارع مكتظة على آخرها بالناس.. رأينا لمة.. جمع من الناس في دائرة مزحومة.. يحوطون رجلا تقف بجواره فتاة مختمرة. جذب خمارها.. سبحان الله.. فتاة ما رأيت امرأة في جمالها.. ما

هذا.. الرجل يفتح فكيها.. يعرض أسنانها.. مندهش أنا وسط الجموع ماذا. ماذا يفعل؟! سألت مجاوري.. لم يجبني وصاحب الشيء.. يحسر عن الساق ثوبها.. ثم يصعقني بكلماته:

-ألف دينار من يزيد؟!

في بداية الأمر لم أصدق.. إلا بعد أن عاجلني المصباح بكلماته:

- نعم الرجل يفتح مزادا لبيعها.

- يباع بشر في القرن الواحد والعشرين أبدًا لن يحدث هذا.

تقدمت نحو الرجل.. صحت فيه:

- قف يا رجل.. فما تفعله لا تقره شريعة أو قانون.

الرجل يواجهني بسحنته الملبدة بغيوم البؤس.. يتمتم في أسى:

- لقد فاضلت بين موتها جوعا وبين بيعها.. فقررت بيعها.. وبثمنها أستطيع إعالة سبعة من إخوتها.

- عليك أن تجد طريقة أخرى!!

- يا سيدي لقد ضاق بنا الحال بعد انقطاع الرزق فلم يعد أمامنا من وسيلة أخرى.

- لكن ما ترتكبه جريمة بكل المقاييس.. هو مناف لأبسط حقوق الإنسان.

- وماذا عن الذين دفعوني إلى ذلك.. ماذا عن الذين منعوا عنا الزاد وكبلونا بالحصار هل هم براء؟!

التفت إلى المصباح.. زهزه بنوره.. متمتا:

- إذا كان هذا كذلك لماذا لا يقدمون للمحاكمة؟!.

سألت مصباحي:

- وأدلة الاتهام؟!

- التهمة ثابتة على الوجوه البائسة لفئات الشعب.. مرسومة على سماتهم.. تستخلص أدلتها من سجلات وفيات الأطفال والشيوخ ومرضى الشباب وتفشي القذارة وندرة الغذاء والدواء وهي ثابتة بشكل قطعي ببيع الرجل لإبنته.. فماذا بعد؟!

سألته وقد احتواني حزن كبير.. كثير:

- كل هذا لماذا؟

- من أجل رفاهية أطفال أمريكا على الكباش أن تدفع فاتورة تلك الرفاهية!!

- ولماذا؟

- لأنه على شخص ما أن يضحي من أجل رفاهية شخص ثان.

- ووقع الاختيار على العرب.

- لأنهم أقل الشعوب استيعابا لتطور الزمن وتفاعيله العلمية والاقتصادية والسياسية وأكثرها ثراء وعبطا.

- قلت عبط!!

- نعم.

- أمراء البترول وملياراتهم أو ليس من الأفضل مصادرتها للإنفاق على سفن الفضاء بدلا من منضدة القمار ورشفة الجنس.

- نعم.. فبديل مناضد القمار ورشفات الجنس استنزاف أمريكا لهم للصعود إلى الفضاء.

- أنت إذن تؤيد ما يفعله الأمريكان.

- أؤيد وأستنكر..

- تناقض ساخر!!

- أؤيد أن يصعدوا للفضاء وأستنكر السرقة عيني عينك بلا خجل أو مدارة.

- هيا.. هيا.. إلى ما يثير كوامنك ويدفعك للانتحار..

عبر بي المصباح مسافات.. أصبحنا على مشارف بيت منخفض البناية واطئ السقف.. طرقنا الباب خرجت علينا امرأة كالحة حنى عليها الدهر بكلكلة (حلوة!!) نظرت إلينا من فوق لتحت في حب استطلاع غريب.... ما هذا أو ما ذاك!! و قبل أن ينفتح فمها ويتحرك لسانها تمتمت بصوت خفيض:

- هذا هو المصباح وأنا صاحبه.

تأهبت للحديث وقبل أن تحرك شفتاها تمتمت في استكانة:

- شربة ماء وكسرة خبز.

- تفضلا..

دخلنا.. حوش بالغ الوسع خال من الأثاث إلا حشية ترقد فوق الأرضية.. وفي ركن وابور جاز فوق شعلته وعاء كبير. اشتممنا رائحة حساء.. التفت لصاحبي.. همست في حماس:

- لحم.. سنأكل لحم.!!

سبعة أطفال يجلسون حول وابور الجاز.. ثيابهم رثة.. ملامحهم هرمة. متماسكون في دائرة شبه مغلقة.. صمتهم مهيب في انتظار الحساء.. رفعت المرأة غطاء القدر فاحت رائحة الحساء.. نظرت لصاحبي نظرة لها معنى همس لي:

- إنتظر. لا تتعجل الأمور.

المرأة تبسم لنا.. خلف بسمتها هشيم لؤلؤ وقد علاه الإصفرار. سألتنا في سعادة وهي تمسك بطبق ومغرفة:

- تحبوها سادة أم مغمسة؟!

سألت مصباحي:

- ماذا تعني؟!

- فلنترفق بها وبأولادها. يكفيك حساء بدون غموس!!

- صدقت.

أجبتها قائلاً:

- سادة يا أم المؤمنين.

بدأت في الغرف.. ناولتني الطبق.. أمسكت الملعقة.. اشتممت رائحة غريبة.. تذكرت حساء الضفادع الذي تقايئته في إحدى مطاعم بيروت.. لا يهم.. بدأت أحتسي.. الطعم

لذيذ.. أتيت على الحساء وقبل أن أناولها الطبق رأيت في قعره قليلاً من الشوائب.. نظرتها جيدًا.. ليست سوى سوق صراصير ونمل.. أعدت لها الطبق.. استكثرت أن يكون إهمالها قد وصل لهذا الحد ربما صرصار شارد أوقعه مصيره الأسود في الوعاء.. هفوة لا ذنب لها فيها.. وقبل أن تلتقط مني الطبق سألتها في استياء ظاهر:

– لقد انقذف صرصار إلى الحساء.

ضحكت.. استخفها الضحك.. امرأة مجنونة لا شك في هذا.. لكنها روعتني بإجابتها.

– بل صراصير كثيرة.

انسحبت معدتي إلى أعلى.. أعلى مستوى حنجرتي.. تماوجت. انقبضت. انبسطت وأنا أنظر للوعاء.. الحساء ليس سوى حساء صراصير.. لم أتمالك نفسي والأطفال حولها يشربون الحساء ويأكلون الصراصير في نهم شديد. لم أطق نفسي.. خرجت إلى الشارع ليتلقى الجدار بقايا معدتي.

رأيت مصباحي شاحبًا.. تعلوه ظلمة كثيفة.. حزن كبير يتمتم بأسى ظاهر:

- أطفال العراق يحتسون حساء الصراصير وأطفال أمريكا يمتصون دماهم على أنغام ضحكات وأمراء الخليج أو ليس هذا أعلى درجات الظلم.

قال ذلك وقد احتوته شحبة هي أقرب إلى شحبة الموت.. أسرع مبتعدا صارخا:

- فلنبتعد عن هذا المكان قبل أن ينسحب مني ضوئي كله!!

- هيا قبل أن ينفجر مني أنا الآخر مصراني الغليظ..

- إلى الحدود..

- أية حدود؟!

- السعودية.

- لماذا؟!

- لترى كيف يغسل الجنود الأمريكان الكعبة.

- وهل هم حقا يغسلونها؟

- سترى بنفسك.

- كنا هناك ولم نر ذلك.

- أمس غير اليوم.

- قبلا أريد أن أعرف كثيرًا مما يحدث هنا.

- كيف؟

- ألتقى بأحد جند الأمريكان أحادثه ويحدثني وجها لوجه.

- لك هذا.

بعد مسيرة ليلتين وصلنا إلى حدود الكويت ورأيناه.. أحد الجنود فتح سوستة بنطلونه وهو يبول.. وبعد أن بال تراجع.

- انظر!!

قلتها مدهوشا.

- إنها صورة الأمير.

اقتفيت أثره.. صائحا:

- انتظر يا هذا.

توتر.. سحب طبنجته.. تحفز قلت له في لكنة إنجليزية فجة:

- لا تخف فنحن لا نعادي أحدا ليس من منطلق القوة بل بمنطق ضعفنا!!

ابتسم وبدأ معنا حديثا طويلا.. تعرفنا عليه وعلى أبعاده الداخلية.. أسرته وأمه وابنته وحبيبته وعشيقته.. استراح لنا.. سألته في حب استطلاع:

- كنت تبول منذ لحظات على رمز مقدس!!.

- نعم فعندما نبول على رموزكم يزداد احترامكم لنا.

البداية لا تسر.. بل هي سب علني.. ماذا أقول لهذا الهلفوت المتعجرف همهمت لمصباحي:

- عايز أضربه.

- تضربه أم تستمع إليه؟!

تمالكت أعصابي وأنا أسأله من جديد:

- هي مقولة عشيق مونيكا!!

- بل مقولة رؤساءنا.. ويا حبذا لو شربتم بولنا..

- لهذا فأنتم تملكون الأمير..

- خاتم في إصبعنا.

- لماذا لا نتبادل الأماكن تشربون أنتم بولنا وتلحسون بقايانا؟!

- العالم ينقسم إلى فئتين: أذكياء يحكمون و أغبياء محكومين لا حول لهم ولا قوة.

- وأنتم الأذكياء..

- القوة هي معيار الذكاء. من يملك العلم فقد امتلك غيره من البشر وما الفقر والجهل والأمية والافتقار إلى العلم وانعدام الرغبة في النهل منه إلا صور للغباء.. معيار له.

- لهذا فأنت تبول على صورة الأمير.

- لأننا أذكى منه.. عليه أن يحملنا على كتفيه رائحا.. غاديا لا يستطيع ولا يقدر التخلص من حمله وعلى من يخلفه أن يؤدي نفس الدور وإلا فالويل كل الويل له ولحاشيته.

- لكن هذا إكراه.

- لكل شيء ثمن، الخنوع في مقابل حماية نظامه من الفشل الكلوي.

- ثمن باهظ..

- بل رخيص جدا.. وهل تعرف إنه باستضافة جحافلنا تم إجهاض ثورة كانت تتصاعد أبخرتها..

- آه.. لهذا فأنتم متواجدون.

- سنظل طالما يحكم الخليج أنظمة هشة في هشاشة عظام ملوكه وأمرائه.

- ظلم وأي ظلم!!

- ظلم على من.. على الشعب الأمريكي العظيم الذي يقود الآن معركة كبيرة لتقدم الإنسانية أم على الشعوب العربية المغلوبة على أمرها وهي تسكن حظائر أعدها لها حكامها..

- قلتها مغلوبة على أمرها.

- وستبقى هكذا طالما ارتضت الحظيرة سكنى لها.

- وماذا بيدها لتفعله؟!

- الكثير مما فعلناه نحن والإنجليز والفرنسيون والإيرانيون.. عن إذنك.

نظر إلى ساعته قال بعنجهية:

- سأستقل طائرتي لاصطياد بعض العصافير.

نظرت إلى مصباحي مدهوشا همهمت متسائلا:

- فانتوم تصطاد عصافير.. يا للعجب.

ضحك الطيار.. تناثرت ضحكاته العالية.. سعيد بها.. بنفسه.. شحب مصباحي متمتا في حزن طاغي:

- يقصد الأطفال!!

سألته من جديد وقد ملكني حب استطلاع:

- وأي مكان تقصد؟

- الهدف مدرسة ابتدائي يستخدمون البدروم مخزنا للصواريخ.

- في مدرسة.. كيف؟

- ما على الرسول إلا البلاغ.

- وبلاغك القتل.

- تبرير القتل وأسبابه مسئولية آنسة مخضرمة محنكة.. تكره العرب كراهية التحريم وتستعمل كبراءهم أحيانا جوارب.. وأحيانا أخرى سراويل تقذف بها في القمامة إذا ما بليت أو بالت في نفس الوقت الذي يلثمون يدها!!

قلت للطيار وفي ضيق شديد بالعربية الفصحى:

- صفاقة.

رد علي ببرود:

- حديثي أم حديثك.

- تقتلون الأطفال ثم تبررون القتل بحجج واهية.

- ليس قتلا بل تضحية من أجل رفاهية طفلنا نحن.

- الثمن باهظ التكاليف.. غير منطقي.

- كيف وغدا وليس هذا الغد ببعيد ستتحول مدائنكم إلى حديقة حيوان يزوركم السواح من كل حدب وصوب.. يدفعون رسما لدخول الحديقة..

- تقلل من شأننا وكنا عظماء الأرض ملكناها وملكنا الإنسان.

- كنتم.. زمان.. أما اليوم فله شأن آخر.. كل شيء تغير فيكم حتى الإنسان بعد أن أصبحت قمامة الأرض أغلى منه.. كنتم تملكون الغير فامتلكت أقداركم.. كنت سادة الأرض فأصبحتم عبيدا.. هل تنكر هذا؟!

قلت لمصباحي في ضيق وتبرم:

- أما قليل الأدب صحيح.. هلا ابتعدنا عن بذاءاته.

رد علي مصباحي في ذبول تام:

- رغم هذا فقد أصاب بكلامه كبد الحقيقة.

- أنت معي أم ضدي.

- لا معك ولا ضدك.. أنا مع الحقيقة.

- والحقيقة أننا أصبحنا حثالة الأرض.

- نعم.. تحولتم إلى هنود أمريكا.. أو ديناصورات البشرية مصيركم الانقراض!!

- وماذا نفعل حتى لا ينقرض فصيلنا.

- معي إلى الحجاز.. ربما تجد هناك الإجابة.

- الإجابة في الحجاز.. عجيب أمرك.

- ربما زيارتك الثانية توضح لك الغامض من الأمور.

- ماذا ينتظرني.. أفصح.

- سترى الأمريكان هناك يغسلون الكعبة المقدسة بالشمبانيا.

- خرفت وهل يجرءون.

- معي لترى بنفسك فالطهارة تدنسها أنفاسهم والقدسية تلوكها أقدامهم.

- هيا إذن.

- ليس قبل رؤية الحاكم الليبي الأوحد.

- وزيارة بلاد الحجاز؟!

- ربما بعدها تسقط حكمة الزيارة لبلاد الجمل والغنم!!

حوار في ليبيا

كيف الوصول.. المسافة ليست بعيدة.. فركة كعب.. يادوب نعدي السلوم ونصبح هناك.. فور أن وطئت قدمي أرض ليبيا.. سألت عن المحاورين لا أحد.. المحاور الوحيد هو آخر الفاشيست المحترمين.. يا ويلي يا سواد ليلي فهو يجيد أمرين الحوار واللعب بالسيف.. فإذا لم أقتنع بحججه طار رأسي في الهواء لأمتار وليس هذا ما يضايقني.. طيران رأسي.. بل طيرانها لعدة أمتار!! لم يكن لدي أي خيار وأنا أتجه إليه بعد أن أنابني المصباح لمحاورته حول مطلب الشعب الأساسي.. الحرية.. استقبلني في الصحراء الشاسعة داخل خيمة وبعد أن شربت الساقع والسخن بدأت الحوار.. قلت له:

- نريد الحرية!!
- هذا هدفنا.
- رغم أننا نختلف معك.
- لا خلاف حول الحرية.

- حقًا لا خلاف حول الحرية كمبدأ.. لكن حرية من.. حريتك أم حرية الناس؟!

- الحرية لا تتجزأ.. حريتي هي حرية الناس.

- العكس هو الصحيح حريتك تعني فرض محاذير وقيود على غيرك.

- آه فهمت.. تقصد حرية الأوباش.

- إننا لم نبدأ النقاش معك بعد حتى تسبنا.

- ليس سبًا بل حقيقة.. فكل من ينادي بحرية منفصلة عن حرية الراعي الأوحد نضعه في عداد الأوباش.

- سهم يرتد إليك فشعبك المكبل بالأغلال هو الذي يطالب بحريته.

- شعبي راضي عني تمامًا.

- مجبر أخاك لا بطل.

- هذه أقاويل الغرب الجوفاء.

- أقاويل الغرب ليست جوفاء وهي تتهم نظامك بالإرهاب الدولي.

- هم أيضًا أوباش.

- بسبب تهديدهم بخطفك ومحاكمتك باعتبارك الثالث في قائمة الاتهام.

غضب.. انفجر زاعقًا:

- ليس من اللباقة التحدث هكذا مع زعيم وصاحب فكر مدون.

- تقصد الكتاب الهفوة!! حقًا لماذا هو زرعي.. لماذا لم تعنونه على كل لون يا بطسطا!!

- أنا أكره مثل هذا الجدل السفسطائي.. حدثني عن المفيد!!

- لك كل شيء ونحن لا شيء.

- أملك المال ولا أغله عنكم.

- لك السلطة وعلينا الطاعة.

- الفرق بين الحاكم والمحكوم.

- بل لنا السلطة وعليك أنت الطاعة أو لم تسمع عن مبدأ الشعب مصدر السلطات.

- كلام مهاوييس يخالف قاعدة الدين الأساسية وأطيعوا أولي الأمر.

- الدين صيغة.

- وضعها الإله فكيف تجرؤون على عصيانه.
- بدأت معنا من النهاية حتى تخيفنا وترعبنا وتحجر على حريتنا.

نقاش يخال لسامعه من أول وهلة أنه حوار سفيه وأنا أقول: "كل شيء لك والناس لا تملك شيئا لك السلطة وعليهم الطاعة.. من أولها الحوار لا صلة له بالحرية.. لكن الحقيقة غير ذلك فمن يملك منافذ القوة يستطيع بسهولة أن يدلف إلى قصرها.. قصر الحرية!! ولأن الناس مستضعفة مستذلة.. مستكينة.. فهي محبوسة داخل أسوار شيدها ودعمها الديكتاتور الأعظم.. لكن السؤال العويص الذي يطرح نفسه بشدة.. نحن نتحدث عن الحرية دون أن نحدد فحواها الغامض.. فما هي الحرية.. بالبلدي الفصيح إيه هي؟ كيف هي تلك العروس التي تملك العروس التي تملك كل أسلحة الغواية.. والتي يدفع الإنسان حياته ثمناً لزفاف غيره عليها.. لم ينته الحوار لشيء نهضت من الخيمة.. الديكتاتور يسألني:

- كنت أتمنى أن أصحبك حتى الحدود لكنني مشغول.
- نعم مشغول بامتطاء الحرية ونخسها ثم التغني بها.

القمر تحجبه سحابة داكنة.. من ثنايا أطرافها المتباعدة جدا بزغ بعضًا من الضوء بدأت المسيرة وحدي. ابتعدت عن الخيمة.. فجأة سمعت صوتًا أقرب للهمس:

- هس.. هس.

تلفت حولي.. لا شيء.. لا أحد.. ربما شبح.. أسرعت الخطى وإذا بنفس الصوت.. الهمسة.. توقفت.. بدأت أجيل النظر.. وأمعن الفكر.. ورأيتها.. لا أستطيع وصفها لأنها أجل من أن توصف.. أقدس من أن أتحدث عنها.. إنها طاقة.. حركة.. واقع.. ثراء.. قوة.. أمل.. رأيتها عارية لا يسترها سوى ظلال السحابة.. في عريها أجمل الجميلات.. فور أن أبصرتها أثارت داخلي حب الحياة.. التغني بها.. إنها في قدسية الإله. اقتربت منها.. بيني وبينها مسافة بوصات أذهلني جمالها الرباني كما أدهشني بسمتها الكونية سجدت لها.. مدت يد في إبيضاض اللؤلؤ عانقت يدي.. نهضت من سجدتي وهي تتمتم:

- تعالى إلى أحضاني أمتعك وأزودك بزاد يكفيك العمر كله.

اقتربت منها.. أخذتني لجة الحيرة.. إنها لؤلؤة.. على جبهتها ضياء ومن جسدها يشع ضوء غريب.. وبين أصابع يدها كتاب حروفه من نار.. تصفحته.. ويحي لم أر ولم أسمع عن كتاب مثله.. الحروف تضئ.. تحرق كل من يلامسها.. مرة ضاحكة.. ومرة باسمة.. وأخرى غاضبة.. هل سمع أحد مرة عن كلام يغضب أو يضحك أو يبتسم؟! هكذا رأيت.. اقتربت منها أكثر.. ما يملكني هو الخوف.. محاولاً فك رموز الغموض يدها تلمسني.. صعقة كهرباء أو شعاع ليزر يخترق كياني.. أرجفتني قالت لي بنفس الصوت الوقور.. اقرأ. امتدت يدها بالكتاب.. ماذا أقرأ؟ الكلام مضئ يشع بريقًا يأخذ بالأبصار.. نوراني كالملائكة.. ناري كما الشياطين.. النار تكويني.. حتى الكلمات تلسعني.. سألتني وضحكتها تطن على أذني:

- ألم تعرفني؟!
- أنت الشيطان.

ضمتني لصدرها.. بدأت أرتجف.. أقصر وأستطيل وأنبعج.. أتحول لنقطة متناهية في الصغر لذرة صغيرة.. ثم أكبر.. وأكبر.. أضخم من سيد قشطة.. إلى أن تأكد لي أنني

كما أنا لم أتقلص ولم أتضخم. فالمسألة لم تتعد سوى أواهم الحيرة وهي تؤكد لي:

- بل أنا الحرية يا غبي.

ازدادت رقعة حيرتي.. فكيف هي حرية وكيف أراها رؤى عين!! الشك يمسك بتلابيبي وأنا أسألها من جديد:

- الحرية مجسمة.. هذا ما لا يصدقه عقل.

- أنت تراني لأنك تدافع عني وتضحي من أجلي!!

- كم أنت جميلة.

- غيرك يراني في أقبح صورة.

- أعمى نظر وقلب.

- لكن لماذا أنت هنا!

- هاربة من الديكتاتور الأعظم.

- أخبريني ماذا فعل بك حتى تهربي؟!

- في البداية وثقت به ولكنه فجأة وبلا سابق إنذار حولني لمطية وشيع لأعوانه امتطاني.

- لهذا هربت.

- لم يكن أمامي من سبيل آخر.

- رغم هذا فمازلت فتية.

- من أمي الثورة.. رعتني وأرضعتني لبنها وسهرت على راحتي.

- إذن فأنت مجرد معنى.

- معنى لكن مجسم داخل كل نفس بشرية.. هل تذكر آخر مرة اشتقت إلي؟.

- في الزنزانة ومع زوجتي.

- ومتى أحسست بقيمتي؟.

- مع عشيقتي "نوادر".

- ومع من أيضًا؟

- ومع الكلمة عندما أكتبها.

- غيره.

- ومع الحاكم عندما يكبت الناس ويضلّهم بعسيل الكلام.

- حافظ الدرس بدرجة امتياز.

- حدثيني عن نفسك.

- أنا من ضيع في الأوهام عمرا.

- كيف؟!

- هل تتذكر الدماء التي أريقت من أجلي.

- وكيف أنسى.. لكن الدماء ليست وهمًا.
- الثمن كان باهظًا.
- يكفيك فخرًا أن الشعراء تغنوا بك.. والفلاسفة والأدباء كتبوا عنك وشيدت لك تماثيل وأبراج وتم من أجل تحقيقك طقوس داخل أبنية أنشئت خصيصًا لتقديسك بعد أن أصبحت الدين العالمي للشعوب.

وبدأت حديثًا طويلاً لا تسعة ذاكرتي البشرية ولا تسعفني على تكراره فذاكرة الإنسان ليست كمبيوتر.. ومتى كانت كذلك؟ يمكن أيام زمان أعراب قريش واشمعنى يعني أيام أعراب قريش؟ السبب مسمار الذاكرة لبن الماعز والبلح الإبريمي!!.. إن النقل الشفوي من ذاكرة إلى أخرى وسيلة غير مأمونة العواقب. ومتى كانت مأمونة؟! لسبب بسيط إنه قد يتناولها التحريف أو التجريف. كل ذاكرة حسب هواها وحسب مساحة الخطأ والصواب أو المصلحة الخاصة أو الحلال والحرام داخلها. تمامًا كما يحدث عند نقل البضاعة من مكان لآخر بإحدى وسائل النقل.. سيارة أو سفينة أو حتى عربة كارو قد تصل الحمولة ناقصة أو تالفة فمسألة النقل هذه من صندوق ذاكرة بشري إلى آخر لا يمكن معه

الجزم بصحة ما ورد.. وفي النهاية بتواليات النقل من فم إلى آخر نصبح أمام نص مخالف تمامًا للنص الذي أذيع أول مرة لا يحصنه أقوال مرسلة إنه محفوظ في فريزر إلهي!! لهذا فليس أمامي سوى أن ألخص بعض ما غمرتني به معشوقتي الحرية.. حديث طويل.. استمر سنيناً بمقياس عمر البشر رغم أن رحلته لم تستغرق سوى أسبوع واحد الفترة التي كنت فيها حبيس القبر.. دونته صفحة صفحة.. كلمة كلمة.. حرفًا حرفًا.. حديث مفزع مخيف.. لا يطيقه بشر... حروف كلماته سن مسمار محمي ينغرز في التقرحات والتشوهات يطهرها.. مبضع حاد يستأصل خبيث الأورام في رحلة مثيرة مغامرة شديدة المخاطرة.. يبدأ بالحرية وينتهي بالثورة مرورًا بغيبية الدين.. الهدف منه شفاء جسد المجتمع المتقرح بعد رُقاد دام عشرات السنين!!

الحرية

دين الإنسان العالمي

الحرية كلمة مبهمة غامضة بما ارتبط بها من تفسيرات قيدت حركتها ومسار مضمونها بالأغلال فباتت عبدًا ذليلاً يرسف في قيود وضعتها أنظمة مجتمعية حتى باتت كلمة بلا معنى ولا مضمون خاصة في تلك المجتمعات المتخلفة التى لا يطيق الحاكم سماعها.

تاريخ الحرية طويل منذ اللحظة التي انعقد لواؤها لزعيم مجموعة من المتوحشين في بداية التحول الإنساني من الهمجية للتحضر إنسان قوي ذو أسنان حادة تعض ومخالب قوية تدمي يفرض بأسلحته تلك بها حريته المطلقة على الآخرين ليفعل ما يشاء دون راد لقضائه.. يحركه في هذا القوت دافعان الجنس والطعام ويحتفظ لنفسه بمجموعة من النساء لا يقربهن غيره ويدافع عن حقه في هذا بكل ما يملك من إرادة القوة. عند الأكل يزيح الجميع عن الفريسة حتى إذا ما شبع ترك لقطيعه البقايا.. الحرية هنا.. كانت حرية بلا

قيود.. نشأت وترعرعت في ظل القوة القوي هو الوحيد الحر الذي يفرض على الآخرين مدى هذه الحرية وأبعادها ومساحة دائرتها والآخرون يمارسون حركتهم فيما لا يتعارض مع حرية الأقوى.

وما يحدث اليوم في عالمنا المعاصر هو صدى للحادث في فجر التاريخ الإنساني فالقوي لديه الحرية – يفرض بعضلاته حدود دائرتها والضعيف يمارسها في الحدود التي يرسمها له هذا القوي المفتول العضلات حتى بين الدول.. القوية منها تبسط نفوذها على الضعيفة وتحدد لها إطار تلك الحرية فإذا خرجت عنه سلطت عليها طائراتها وأساطيلها!!

لهذا فهي كلمة مبهمة غامضة.. فما هو إذن المقصود بالحرية؟ ومن يمتلكها؟ وهل للضعيف المستكين المغلوب على أمره نصيب فيها.. نعم يملك بعضا منها وهذا البعض يتحدد نطاقه بالقدر الذي يسمح به هذا القوي تماما مثل زعيم الفصيل البدائي مع أفراد جماعته.. فالزعيم يملك حرية أفعاله.. يفعل ما يريد وما يشاء لا يحده قانون سوى قانونه هو الذي قننته إرادته قانون يحدد إطاره الحصول على الجنس والطعام والمأوى ولأفراد قطيعه أيضًا حرية

لا تتناقض أبدًا مع قانون زعيم الجماعة فهي تتم بالقدر الذي يسمح به فإذا ما حدث تنازع بسبب التمرد على طغيان قانون الزعيم نتج صراع على السلطة.. الذي ينتهي غالبًا بغلبة أي من المتصارعين والمنتصر دائمًا هو صاحب الحرية والمغلوب منتقصها.

هذا هو الحادث اليوم نرى صوره الفجة بطول الساحة العربية بدءًا من مصر ومرورًا بدول الخليج ثم انتهاء بدول المغرب العربي.. دساتير معيوبة تمحورت فيها سلطات الحكام إلى ملبوس فضفاض تسع كل بلاوي الحكم المطلق تدشن الديكتاتورية والفاشية وتحول النقد الشجاع والكلمة الجريئة إلى جريمة.. ونرى صوره أيضًا الفجة بين الدول الكبرى.. فأمريكا تشن غاراتها البلهاء على الدول الضعيفة. وهي تمتص دماء شعوبها وهي تنتعل في أقدامها النجسة حكامها بلا خجل ولا مداراة. وبالتالي تحدد لتلك الدول نطاق حريتها فيما تفعل وفيما تقول وفي القريب العاجل فيما تتدين أو فيما تعتقد!!

وتطور المجتمع من زعيم جماعة بدائية إلى رئيس قبيلة أو عشيرة أو نجع أو قرية أو مدينة لم يغير فلسفة

الحرية القائمة على القوة كل ما حدث هو أن المجتمع اصطنع مجموعة عادات وتقاليد أرسى بها حرية رئيس أو زعيم الجماعة لا يقيدها ولكنه يمدها بأسباب المشروعية!! فقديمًا كانت القوة العضلية هي منبع الحرية ومع بداية هذا التطور استبدلها المجتمع بهذه العادات والتقاليد والتي ساندت مشروعية حرية الأقوى وبالتالي تحولت تلك العادات والطقوس إلى قيد على حرية الآخرين الضعفاء لصالح الحرية المطلقة للأقوى!! تحولت إلى فرامل ضد سيارة التغيير وضد المطالبة بحرية الضعيف في مواجهة شكل جديد للحرية وهي حرية الحاكم والأشراف. وفي تطور ثالث وهو أخطر هذه التطورات جميعها دخول الدين معترك الحرية ليساند العادات والتقاليد في معركتها ضد حرية الآخرين ولصالح حرية الحاكم والأشراف.. هذا التطور كان نتاج الإحساس بالمقاومة.. مقاومة المستضعفين للحصول على حرية مستقلة خارج نطاق دائرة حرية الزعيم أو الأشراف والتي كانت تسمح له بالقتل والاسترقاق والنهب والجنس وتكديس الأموال وهي نوع من الحرية يحمل نفس مفهوم حرية زعيم مجموعة المتوحشين. "الجنس والطعام".

فعندما تأكد للأشراف خلال هذه العصور المتقدمة غضبه السواد الأعظم للعامة وسخطهم ورفضهم الانصياع لتلك المفارقة الغريبة حرية بلا حدود للأشراف يقابلها انعدام الحرية للعامة.. عندما تأكد لهم ذلك لجأوا للغيبيات والقوى الخارقة والسحر لتبرير ممارسة حريتهم المطلقة على البشر المستكين وترسخت هذه الصيغة الجديدة.. صيغة الغيبية المقدسة في ذهن أكثرية المجتمعات وأصبحت منبعًا لكثير من عاداتها وتقاليدها لا يستطيع أحد أن يطالب بتعديلها أو تغييرها وإلا حق عليه الرجم واتسمت بالشراسة والعنف بعد أن تحولت إلى قيد مقدس. بل يمكن الجزم أن سبب منشأ الأديان هو محاولة تبرير هذا التناقض غير المنطقي عن طريق القدسي والذي لا يمكن مخالفته أو حتى مناقشته. تاريخ هذا التطور غير معروف لكن هذه الظاهرة ظاهرة الاستعانة بالغيبيات لتبرير المتناقض كانت أكثر انتشارًا بين قبائل الهنود الحمر والمصريين القدماء وبلاد الشرق الأقصى وبدأ بعض الأشراف ينتظمون في طبقة تختص بالسحر والتعاويذ ومعرفة الغيب والاتصال بقوى خفية وروحية وتطورت فكرة الخير والشر من خلال مفاهيم عدة ثم

نضجت على يد الكهان المصريين بالمناداة بالحياة الأخرى وبالآلهة وسايرهم الإغريق إلى أن نادى إخناتون مصر بالتوحيد وهي نفس دعوة محمد العربي عليه السلام.

والسؤال لكن ما صلة الآلهة المتعددة أو الإله الواحد أو الحياة الأخرى أو الغيبيات بالحرية؟ من أول وهلة نجد أنه لا صلة بين هذه المعاني المقدسة والحرية ولكن بإعادة صياغة السؤال "وهل المناداة بوجود إله أو آلهة أو حياة أخرى أو غيبيات يضع قيدًا على حرية الآخرين؟؟" نعم!! كيف؟ ذلك أن هذه الدعاوى ارتبطت بأمرين.. الأول الوساطة والثاني الظل.. الوساطة بين البشر والقوى الغيبية فالكاهن وسيط بين الطرفين ينقل تعليمات الإله إلى البشر.. التعليمات حرفية لا تغيير فيها ولا تبديل ليس للبشر الحق في مناقشة جدواها أو الخروج عليها بل فقط تنفيذها.. وبالتالي أصبحت هذه التعليمات المقدسة قيدا على حرية الأفراد.. فهم يلتزمون بها مع أنها تحمل كل المتناقضات التي سبق أن تحدثنا عنها حرية الأشراف المطلقة مقابل انعدامها لدى سواد الناس.. الفوارق الاجتماعية الحادة بين الطبقات أثرياء وفقراء.. سادة وعبيد.. مجموعة التعليمات التي تجامل الأشراف على

حساب عامة الشعب وهي بذلك تمثل قيدًا على حريتهم لا يصح ولا يجوز الخروج عليها. هذه هي الوساطة القيد الأول أما الظل فهو ابتداع آخر أشد إظلامًا وحلكة. لأنه خلف هذا الظل يستبيح الحاكم لنفسه أن يرتكب كل الموبقات فمشيئته هي مشيئة الله وقدرته هي نفس قدرة الإله وعلى الناس طاعته لأن في طاعته طاعة الإله.. حاجات تدوخ.. وتحت هذا الظل شاخت حرية الآخرين بينما ومضت حرية الحكام وأتباعه من الأشراف.. وأسرف الحاكم في استعمال حريته تلك التي سبغها على نفسه فهو ظل الإله على الأرض.

عاث الحكام بناء على هذه الفِريْة في الأرض فسادًا وإفسادًا.. وما يفعله حكام العالم الثالث لا تخرج صيغته عن أية صيغة من تلك الصيغ التي درجت عليها المجتمعات القديمة.. لكن بدلاً من ادعاء الوساطة أو الظل شرعت دساتير تحمل نصوصها كل مثالب وعيوب الصيغ القديمة.. دساتير لا يجوز الخروج على نصوصها المعيوبة أو مناقشتها بل وضع الجزاء والعقاب على مخالفتها.. دساتير تحمل كل متناقضات الوساطة أو الظل همها خدمة سلطة الحاكم المطلقة.. فباتت بديلاً عن دعوات النبوة أو مكملة

لها.. هذه هي حال الحرية الآن في دول العالم الثالث.. وهي نفس حالها عند العرب.. فرض إرادة الحاكم وسلطته المطلقة من خلال دستور أعور يبصر الأشياء "تشاش" ويخلط بينها وبين معانيها وأسبابها.. ومع ذلك فمن يخرج عليه أو ينادي بذلك يعتبر مارقًا يستحق أشنع العقاب.. لقد دأب الحكام العرب بأشكالهم وألوانهم ملوكًا أم رؤساء على خوزقة البشر واستعباد الإنسان وتحويله إلى فرد في قطيع خراف يتحكم في مسيرته راعي محنك يوجهه ويرعاه ويسيره ربما إلى جب وربما إلى حتفه وباستذلال المرأة تحت جذع رجل يستغلها لغرائزه يفعل بها كما يشاء وقتما شاء فهي مخلوقة لتلبية رغباته.

بعد هذا العرض التاريخي علينا أن ننتقل إلى لب الموضوع.. هل الحرية ضرورة.. هل يمكن الاستعاضة أو التنازل عنها أم أنها غريزة مثلها مثل الجنس والطعام.

المفهوم الغريزي للحرية

مفهوم الحرية لا يتجزأ ولا يتقيد.. الحرية تعني اختيار الإنسان الكامل لأفعاله دون ما قيد عليها هذا هو الأصل.. الحرية حرية بلا قيود، لكن الحرية بهذا المعنى تعني قيدًا على حرية الآخرين. س: كيف؟ ج: أفعال الحرية هذه تمس الغير في ممارسة حريته وبالتالي تنتقص منها وفي النهاية تحجب عنه ممارستها وتلحق به الضرر.

لذلك كان من الضروري تحقيق التوازن عند ممارسة الحرية الفردية فلا تطغى حرية فرد على حق الآخرين في حريتهم بانتقاصها أو حجبها. معادلة صعبة لكن يمكن تحقيقها:

ممارسة للحرية = حق الممارسة + عدم الإخلال بحق الآخر في ممارسة حريته.

الحرية = احترام حرية الآخرين.

لأنه إذا كان للفرد الحق في ممارسة حريته فعليه أن يحترم مبدأ أن للآخرين نفس الحق وبالتالي لا يصح له أن

يتجاوز بهذه الممارسة الحد الذي يعتدي فيه على حريات الآخرين.

إن مفهوم الخطأ والصواب حديثًا والحلال والحرام قديمًا في ممارسة الحرية يستمد جذوره من عنصر الضرر بحيث يمكن القول بأن الحرية اختيار يتم من خلاله التوفيق بين أوضاع حريات الأفراد فلا يجوز لفرد بممارستها الاعتداء على حرية الآخرين وبالتالي فهي اختيار مشروط بعدم الإضرار بالغير لكن يتبقى سؤال هام هل يمكن تحقيق أنشودة هذه الحرية.. ولم لا.. طالما لا تضر باستعمالها غيرك.. حريتك أن تمشي على أربع أن ترقص في الشارع.. أن تغني.. أن تجري.. أن تتحدث أن تتظاهر... أن تتمرد.. أن تثور.. بمعنى آخر الحرية ليست صنمًا يضعه الحاكم ليتعبده الناس.. ولا عطية منه يمنحها أو يمنعها ذلك لأنها حق من حقوق الإنسان الأساسية.. حقه في اختيار البدائل التي يستلزم لممارستها توفر الحرية.. إذن فالحرية ليست سوى وسيلة لتحقيق هدف.. فهي ليست غاية في حد ذاتها.. بل الغاية هي ممارسة الإنسان لحقه في الاختيار.. والسؤال هل يمكن أن يختار الإنسان بدون حرية بالقطع لا. فوليد

الإجبار أو الإكراه اختيار ميت.. لكن متى تصبح الحرية غاية وتتحول من وصف الوسيلة إلى الهدف. في حالة واحدة فقط عندما تغيب شمسها خلف ضباب القسر فتصبح مطلبًا ملحًا لممارسة الاختيار عندئذ فقط تتحول من وسيلة إلى غاية.

لكن هل حقًا توجد حرية. بالمفهوم النظري.. نعم. لكن حرية من؟! حرية القوي.. لا الضعيف.. في دول العالم الثالث الحاكم وحوارييه.. وفي الدول المتقدمة.. المؤسسات والأحزاب.

إنه لمن السخف الشديد أن يقف حاكم إحدى الدول المتخلفة ويعد شعبه بنشر ألوية الحرية على ربوع البلد كأنه يملكها.. يعطي منها ما يشاء ويمنع ما يشاء رغم أنه لا يملك سندًا قانونيًا أو تاريخيًا.. السند يستمده من أطياف مظنة الاستخلاف سند عفا عليه الزمن مكانه أحد المتاحف فالحرية بمفهومها الصحيح لا تُملّك ولا تُملك ولا سلعة تباع أو تشتري.. ولا هبة أو عطية. ولا مجال مساومة أو أخذ ورد لماذا؟! لأنها ضرورة كضرورات الجنس والطعام!!

إنها إحدى غرائز الإنسان الأساسية. فهي لا تقل أهمية عن غريزة حب البقاء والجنس بل هي إطار لكل الغرائز بدونها يعجز الإنسان عن ممارسة شعائر غرائزه.

إن الهدف النهائي للغريزة الجنسية هو تعمير الكون، والمباشر إشباع حاجة طبيعية، لكن هذا الإشباع ليس هو سر بقاء واستمرار البشرية، بل السر هو شعيرة الممارسة للحرية باعتبارها وسيلة للاختيار فمن خلال الحرية تحققت أعظم الاكتشافات والإنجازات العلمية ومن خلال العبودية هبطت أمم كثيرة إلى سفح التخلف.. دعونا بقى من الكلام الفضفاض وتعالوا معنا نناقش هذه الغريزة "غريزة الحرية" من منشأها حتى مصبها لنتعرف على تضاريسها جداولها وسهولها وهضابها.. الظاهر منها والخفي ونعود بذاكرتنا إلى الوراء.. إلى آدم الحرية.. عنصران أساسيان ساهما في تشكيل آدم: إرادة الحرية، وحرية اختيار الصورة التي تخلق بها. بدون هذين العنصرين لم يكن لآدم وجود.. فلم يكن ممكناً وجود الموجود بدون تجسيم في شكل وبدون حرية في اختيار صورة هذا التجسيم.

آدم = تجسيم + اختيار شكل هذا التجسيم.

إذن فآدم منشأه الحرية. بدون الحرية في اختيار صورة هذا التجسيم التي نرى الإنسان عليها الآن ما وجد آدم لكن ماذا حدث لآدم حتى يهجر الجنة؟ لقد وازن بين الطاعة العمياء وحب الاستكشاف ففضل الاستكشاف على الطاعة وهو لم يفعل هذا إلا لأنه كان يملك حرية التفاضل ثم حرية الرفض لهذا عصى ربه. آدم فاضل بين حريته وبين الأوامر العليا فعصى الأوامر المقيدة لحريته، إن الله خلق الكون من خلال الحرية التي سبقت إرادة الخلق فقد كانت أمامه اختيارات عدة واختار الكون بصورته الحالية والإنسان بشكله المألوف فإذا كانت الحرية قد سبقت نشأة الكون فكيف يمنعها حاكم أو يمنحها وكيف لبشر أن يدعي عليها حقوقًا لا يملكها فيحجب أو يعطي منها ما يشاء.. فيقننها تبعا لرغباته ويعطي لنفسه حقوقًا أوسع مما يملك الإله.

الأصل في الحرية هي ممارستها بلا قيد لكن بشرط أن لا تحرم تلك الممارسة حق الغير المقدس فيها وإلا تحولت إلى نوع من الفوضى أو إلى حرية كاملة لفصيل ومنتقصة للفصائل الأخرى.. فتحقيق التوازن بين حريات الأفراد

بعضهم والبعض الآخر رغم أن ظاهرها قيد إلا أنها من أصل تكوينات الحرية فلا حرية دون احترام الآخرين.

إذن فالحرية = كفالة حرية الأفراد جميعًا بلا تمييز.

أمران متلازمان لاستمرار الحياة.. الجنس، والارتقاء. وسيلة الجنس معروفة المضاجعة المباشرة الاختلاط. والارتقاء وسيلته أيضًا معروفة. المضاجعة المباشرة الاختلاط لكن ليس بأنثى بل بالحرية.. بدونها لن يحدث تخصيب ولن ينجب رحم البشرية التقدم العلمي أو التكنولوجي أو الإنساني ويصبح مصير الإنسان مثل الديناصور.. الاندثار.

نعم أنا من مواليد دولة متخلفة سياسيًا تضافرت جهود حكامها إلى الزج بها داخل غياهب سجن الفاشية.. حرية الفرد فيها مرتبطة بمزاج الحاكم وميوله بقدر ما يمنح الفرد منها بقدر ممارسته لها. لو طلب منه خلع هدومه ويعمل فيها مجنون لنفذ.. لو أمره بتمثيل دور قرد يعجن عجين الفلاحة وينام نومة العازب سيحني الرأس والهامة لسخافاته لأنه يعرف رد فعل هذا الحاكم لو تخالف مع أوامره.. فأي دولة يحكمها عسكور إنسي!!

سنة ٥٤ وأنا طالب ثانوي تزعمت مظاهرة طالبت فيها برأس الفاشي عبد الناصر حامي حمى قانون طوارئ سكسكة الذي طوَّره تلاميذه فبات طوقًا يلف رقاب النبي آدمين كما الكلاب، وقيدا ثقيلاً على حرياتهم حتى في ممارسة خصوصياتهم فلو أراد أحدهم مضاجعة زوجته أو الجلوس على قرصة المرحاض عليه أن يسأل أمن السلطانية الإذن!!

تزعمت المظاهرة في شوارع زفتى وأنا أهتف وأندد بالحكم الشمولي وقبض علي وسجنت في محبس المركز وكان سؤالي لماذا.. وقتها لم أعثر على الإجابة وجدتها بعد سنين عدة من الحبس والتعذيب في سجون مصر لأنني أعلنت رأيًا شجاعًا في كتاب.

الحاكم يهب حرية للناس لا يملكها أصلاً حتى يمنحها بل ويرجع في صفاقة عن هبته كلها أو بعضها كلما شاء. مثله مثل من يهب قطعة أرض لا يملكها ثم يوثق عقد الهبة بعد أن يضع عليها قيودًا للانتفاع بها فيمنعه من التصرف فيها أو زرعها أو ريها أو اجتثاث الحشائش إلا بعد إذنه ويسوف المرة تلو الأخرى في منحه الإذن متحاجًا مرة باستقرار النظام ومرة أخرى بإرهاب وثالثة لدواعي الأمن

ويظل هكذا في غيه حتى تجدب الأرض فيقل أو ينعدم إنتاجها وعندما يتأكد للموهوب له أن الأرض أصلاً وأن الواهب مغتصب لها.. خدعه وغشه وهو يخفي عنه حقيقة ملكيته لها يدور هذا الحوار الغريب:

- يا سيدي إنها أرضي.. ملكي.. وسند ملكيتها عرف إلهي.

- أعرف لكنني أحوزها بوضع اليد.

- وضع اليد بلا سند صحيح هو اغتصاب.

- لكنني وهبت قطعة منها لك.

- وهبت ما لا تملك ووضعت قيودًا علي.

- حتى لا تسئ استغلالها.

- لكنها مع قيودك جفت ينابيعها وبارت وذبل ذرعها.

- أنا الواهب فإذا كان لي الحق في الرجوع عن هبتي فمن باب أولى أستطيع وضع القيود على استغلالها.

- لكن هذا ضد القانون والمشروعية.

- القانون ناتج أجهزتي والمشروعية يحدد نطاقها نصوص القانون الذي.. يحمل بصمتي!!

- يا سيدي يوجد سوء فهم فالأرض أصلاً ليست ملكك.

- طلباتك؟

- أرضي كلها لا انتقاص فيها حتى ولا شبر واحد.

- حاول أن تستخلص حقك مني.

- حاولت كثيرًا لكنك زججت بي في السجون.

- احمد ربنا أن جسدك مازال يحمل رأسك.

- ماذا تقصد؟!

- افهمها بقى!!

- إنك بهذا تسلب حريتي.. حقي في الحياة.

- الحق تحميه القوة.

- كيف لي بها وأنا ضعيف.. منهك.. أنهكتني قوانينك الظالمة الجائرة.

- إن كان عاجبك!!

- وأن لم يكن؟!

- اضرب رأسك في الحيطة.

- وإذا لم أجد تلك الحيطة!!

- اشرب من البحر.

- بطني تورمت من الملح.

- موت بقى وخلصنا يا أخي.

- إنك بهذا تسلب حريتي.
- لأنني الأقوى فأنا الوحيد الحر.

ولدت في عصر.. شعبي فيه مستعبد من ملك يعشق الفتحتين الفم والفرج شعب يطالب بالحرية المغتصبة والتي وهبها له منتقصة في دستور ١٩٢٣، وتلقيت أول صدمة وأنا أسجن لإعلان تمردي المشروع ضد فاشية عبد الناصر والسؤال لماذا؟ وبدأ فكري ينكفئ المرة تلو الأخرى داخل حفر وأخاديد محاولاً عبثًا أن ينهض والزعيم الملهم يذبح الرأي بسجن أصحابه داخل زنازين أو دفنهم في حفر فمازال السؤال يطن على طنين النحل وأنا أدرس في كلية الحقوق القانون.. الديمقراطية الحرية قلتها لأستاذتي "عائشة راتب" التي تمنيتها في أحلامي صديقة وحبيبة لي قلت لها: " إنها حرية الحاكم وقانونه وديمقراطيته معاني كلها ملكه هو صانعها وما نحن سوى فيران تجاربه". لم تفهم حديثي.. مقصدي.. حتى أنا تشككت فيما قلت، في جدوى ما قلت وعبد الناصر يشوي معارضيه في فرن على نار هادية تمامًا مثل فعلة هتلر مع اليهود.. لقد سلب منا حريتنا. أرضنا التي نتقوت بها في مقابل وعد بحياة كريمة ولم يفِ بوعده أبدًا..

وانتهى به الحال إلى خازوق في شرجه صعد حتى فمه. وتلاه عصر السحاحة.. الحرية مسلوبة.. الأرض جدباء.. لا نبت فيها ولا رجاء.. بدأت عملية السحاحة بقطرة.. بالمنابر. ثم قطرة أخرى.. الأحزاب يا دوب لزراعة مترين أرض في مساحة تبلغ مئات الهكتارات وهم.. وهم.. فكيف يهبني الحاكم أرضًا أملكها ثم يضع عليها رهنًا عقاريًا يحد من تصرفي عليها ويعطيني الماء بالقطارة حتى أزرع منها أمتارًا.. عبث وأي عبث وبالتقادم الأربعيني أي بعد أربعين سنة.. بهت الحق الأصلي الذي ولد معي ونشأ داخل جوانحي.. حقي في أرضي.. في حريتي التي شاركتني حياتي منذ خروجي من رحم أمي ولا يتبقى سوى القيود.. الرهن العقاري.. وبمرور الزمن أنسى إنني أصلاً مالك الأرض فتنحصر كل مطالبي في فك الرهن غير المشروع والذي يسنده قانون طوارئ سكسكة ويساومني الحاكم وحوارييه رؤساء التشريع والتنفيذ والتنفيس!! مساومة التاجر الشاطر وهو يقطر لي الماء قطرة.. قطرة. يخدعني تحت مظنة إنني ساذج أهبل.. أبدًا لست وغيري كذلك لكن دائما الباطل تحميه القوة.. وتتحول صورتي أمامه من السذاجة إلى

القرف والتقزز فيبتعد عني لأكبر مسافة ممكنة حتى لا يحس بصهد أنفاس تكوي كل من يقترب منها!!.. فالإنسان عندما تضيق به الحال ينتفخ بطنه بالمرارة والحقد والكراهية وإذا لم يجد متنفسًا يطق.. يموت.. لكن إذا طق لن يسلم الحاكم أبدًا من رذاذ ماء النار الذي كان يملأ بطنه وجنبات نفسه.

وهو لن يصل إلى هذا الحد إلا بعد تطورات على أرض الواقع الزمني يلعب فيها النفاق من خلال الأجهزة المرئية والمسموعة دور البطل ويتحول النفاق من تمجيد النظام ومآثره إلى تمجيد شخص الحاكم وهنا الطامة الكبرى. العثرة التي يقع فيها أي نظام ديكتاتوري وتكون بداية نهاياته.. يتمحور معها الحاكم إلى إله أخطائه.. لا ترصد.. أكاذيبه صدق. إذا قال كن فيكون.. البحر ينشق والأرض تزلزل والسماء تمطر أو ليس هو الإله.

وإذا كان هذا كذلك وإذا كانت الحرية إحدى الغرائز إذن فاستلابها غير مشروع وكفالة الدفاع عنها بكل الوسائل المتاحة واجب ولهذا السبب استمدت الثورة الفرنسية مشروعيتها فالحرية لا يمكن حجبها أو منعها أو سلبها ومرتكب تلك يجب محاكمته وعقابه وسجنه خلف الأسوار.

إن الحرية بصورتها الباهتة في الدول المتخلفة باتت في حاجة للتعديل والتغيير لتتحول من عقد إذعان باطل بطلانًا مطلقًا إلى عقد اجتماعي محدد المدة بين الحاكم والرعية يلتزم فيه الحاكم بكفالة الحرية للجميع بمساواة كاملة.

أسس هذا العقد يعتمد على عناصر ثلاثة.. الرعية + الحاكم + الاختيار بموجبه يتم كفالة الحرية للكافة على قدم المساواة من خلاص نص دستوري مقابل احترامهم له.

وظل السؤال الذي طرحته على د. عيشة راتب بلا إجابة إلى أن حدثت الصدمة، نعم الصدمة، عندما حاولت ممارسة الحد الأدنى من غريزتي.. مساحة صغيرة من أرضي لا تتعدى سنتيمترات حاولت زرعها بالكلمة.. لم أطالب بدستور جديد يلغي قانون سكسكة.. ولا بحاكم جديد مبدع ينشر ألوية الحرية على ربوع البلاد.. ولا بمجلس شعب أو شورى.. ولا مزور، بل كل ما فعلته أنني مارست غريزتي المشروعة.. زرعت بعضًا من مساحتها بقليل من الورد والياسمين وارتفعت الأصوات.. "إزاي".. "إزاي".. لم أزرع أرضي بعيدًا عن عين الحاكم بل تحت سمع وبصر

أجهزته كلها التي ترصد دَبَّة النملة.. عسى أن يتنسم هو وغيره من عبير أكام الوردة التي زرعتها في رواياتي "مسافة في عقل رجل" " والفراش.. والدمية" يا سبحان الله هاجم التتار بقيادة هولاكو الأزهر.. تجيشت جيوش التخلف الأعمى يحمل رايتها صحفيون لوامع وقضاة أفاضل واتجهت في مسيرة ظلام إلى تلك الأرض البريئة من كل اتهام.. وداستها الأقدام الوضيعة بأحذيتها اللزجة ووطأت الزهورَ وقطعت الفروع وأشاعت الفوضى.. يا سبحان الله.. الأزهر ورجاله البصاصون وبماحث أمن السلطانية وأسراب الجراد المهاجرة من بلاد الحجاز تعيث في الخضرة فسادًا تقضي على كل أمل في حلم المستقبل.. حتى خلت أنني أقدمت على هتك حرية غيري. والسؤال الذي طرحته على د. عائشة راتب تطن على إجابته إنها حرية القوة.. ديكتاتورية الفرد.. كيف؟.. فرد واحد يدير الدولة.. فرد واحد يسيطر على الوزارة.. فرد واحد يدير كل حزب.. فأين هي الديمقراطية!

إنني أحترق

أحترق لأضيء للناس طريقًا.

سكبوا السولار.

فازددت توهجًا
عادوا فسكبوا السولار
فزدت احتراقًا
لأضيء للناس طريقًا.

ضوابط ممارسة الحرية

الضوابط تعني وضع قيود على ممارسة الحرية. هنا خط أحمر يتوقف عنده الإنسان وهنا خط أخضر.. وهذا النوع من الحرية محظور وهذا الآخر مباح وذاك يمارس بصورة مخففة وتلك مغالي فيها.. وقبل أن ندخل في تقييم مشروعية الضوابط والرأي فيها نتحدث عن الضوابط ذاتها والتي قد تكون اجتماعية عرفية أو تشريعية وضعية.. في الأولى يستحق المخالف ازدراء المجتمع وفي الثانية يوجب عقابه إذا ما عنَّ له الخروج عليها. إن مشروعية وضع الضوابط تكمن في فلسفة سَنِها والتي تعتمد على كفالة ممارسة الحرية لكل المواطنين بمساواة مطلقة.. كل حسب مركزه القانوني.. فإذا تجاوزت هذه الغاية وأصبحت سيفاً مسلطاً على الحرية ذاتها فقد مشروعية سنها.. وفرق ما بين الضوابط وبين التنظيم.

الضوابط تعني وضع محاذير على ممارسة الحرية في دائرة بعينها لتنظيمها، أما التنظيم فينصب على كيفية ممارسة الحرية من خلال الضوابط حتى لا يسئ البعض استعمالها

فإذا ما تحقق للبعض حريته دون البعض الآخر افتقد المجتمع معنى الحرية وتحول إلى حالة من الفوضى تحكمها الاعتبارات الخاصة.. فالتنظيم هدفه النهائي ممارسة أعمال الحرية على قدم المساواة، أما الضوابط فهي قيد على حرية الإنسان أورده المشرع في حدود غاية فلسفة تشريعها وهي عدم الاعتداء على حريات الآخرين فإذا انحرفت بها عن تلك الغاية بتنا أمام حالة من حالات الاعتداء على الحرية بوضع قيود عليها وهذا ما يحدث غالبًا لأسباب سياسية خاصة في النظم الديكتاتورية عندما يتوسع الحاكم في فرض الضوابط على ممارسة الحرية بفرض حالة الطوارئ أو سن قوانين استثنائية.. وهذه نلمسها بشكل صارخ في معظم النظم العربية.. في مصر مثلاً نجد ثلاثة فروع سرطانية لشجرة الحرية.. قانون الطوارئ.. قوانين الاشتباه.. القوانين الاستثنائية.. نتيجة لهذا انتشر السرطان في نسيج شجرة الحرية فذبلت فروعها وانكمشت أوراقها وضنت بالثمار.

إن حكام شعوب العالم الرابع بعد أن تحول الثالث إلى فصيل الرابع تتفنن في وضع المحاذير على ممارسة الحرية.. لا تظاهرات.. لا اجتماعات.. لا صحف..

لا أحزاب.. لا نقد للحاكم المقدس ولا لأي فرد من أسرته وإلا كان السجن في أحوال، والقتل في أحوال أخرى جزاء وعقاب.

يا هوه على المحاذير.. أصبحت القاعدة والاستثناء هو الحرية وهذا نابع من الفكر السلطوي الذي يسيطر على الحكام.. فالحاكم يعتقد أنه المالك الوحيد للحرية يهبها لمن يشاء بالقدر الذي يريد ويمنعها عمن يشاء. فكر لا يمكن زحزحته حتى بالقنابل العنقويدة!!! فكر سلطاني "من السلطانية" يسند نظرية النظم الديكتاتورية التي تعتمد على الحكم المطلق. فالحكم المطلق لا يتفق مع الديمقراطية بل هو على النقيض منها.. هما ضدان لا يلتقيان.. نعم ربما يتصارعان لكن أبدًا لا يتصالحان. أداة الحكم المطلق حاكم أصابه سعار السلطة يا ويله يا سواد ليله من يحاول الاقتراب منها "أي من السلطانية" حتى ولو كان يحمل بيده شكوى. مصيره الموت حتمًا بالرصاص على يد جلاديه. فهو الناهي.. الآمر.. المسيطر.. الجبار.. العاطي.. المانح.. المانع.. فإذا منح طلب الثمن، وإذا منع فليس لأحد أن يعترض أو يتمرد أو يثور. حرية كاملة له ولحاشيته تسندها

وتساندها التشريعات الوضيعة، ومنتقصة أو شبه معدومة للقطيع الذي يحكمه.. في فلك حكمه المطلق تدور مجالس تشريعية مشوهة.. حرام أن توصف بالتشريعية بل الأصوب توصيفها بالمجالس التنافقية مجالس تحاول تذليل كل صعاب الديكتاتورية من حرية رأي.. لتجمهر.. لاجتماعات.. لنقد بناء. وسيلتها في ذلك القمع أو البتر. أيضًا تجري في فلكها سلطة صحفية وإعلامية انتهازية تبرر الأخطاء وتجهز على الرأي الحر. تنفيه أو تنقيه من شوائب الحرية بالجوائز وشهادات التقدير وأحكام حبس أصحابه!! حال بلد كهذا ماذا ننتظر من أناسه سوى الشعوذة وزيارة القبور والاعتماد على الذات العليا المتمثلة في الحاكم ووزرائه لتسيير دفة الأمور.

هذا هو حال أي حكم شمولي يطرح شعارات براقة تخلب العقل والفؤاد لكنها تحمل في طياتها سما زعافا.. عانينا منها مرات ثلاث والنهاية معروفة مسبقًا. الوصاية التي يعرضها مغتصب الأرض، والرهن الذي ينشأ على الأرض ويمنع أصحابها من استغلالها الاستغلال الحسن.

لو حاولنا تتبع مجرى نهر قيم المجتمع العربي من منبعه حتى مصبه لنعرف مكان الحرية منه لوجدنا أنها

لا تخرج عن مال وحرص عليه واستثمار له وثراء فاحش وفقراء تتلوى جوعًا.. تناقض من الصعب فك رموزه فحتى ينهض الفقير من عثرته على الثرى أن يأخذ بيده وهو لن يفعل مع من يمص دمه ويستنفذ جهده ويستغل حاجته. إنها قيم الجاهلية الأولى والمصيبة أننا نتفاخر بهذا ونذود عنها ونقاتل من أجلها حتى غرقنا في مستنقع التطريف والشعوذة والغيبيات وعذاب القبر والحقد والكراهية وابتعدنا فراسخاً وأميالا عن قيم الحرية بعد أن أصبحت فيروسًا تصيب حاملها بأمراض الغربة والسجن والحصار!!

للعرب أصحاب هذه القيم المتأصلة في تاريخهم أن يفخروا بها وللمصريين أن يتنصلوا منها. فكيف يكون المصريون مستعربين لا الغزو ولا اللغة ولا وحدة الديانة تحول الفصيل إلى فصيل آخر.. للأسف وللأسف الشديد يعرف كثرة من العرب ذلك رغم هذا فهم يعاملون المصري بأسلوب الغازي عمرو العاصي وكأن مصر مازالت مستعمرة "نساؤنا لعب ورجالنا لمن غلب" نعم نحن مسلمون ولكننا لسنا مستعربون. بل مصريون مثلنا مثل الأتراك والإيرانيون لم يغير إسلامهم من فصيلهم النادر. لم ننسل

منهم ولم ينسلوا منا لم نتخالط بنسائهم ولم يختلطوا إلا برقيقنا فكيف أصبحنا "أمجاد يا عرب يا أمجاد"!!

إن أعاظمهم مازالوا يغطون في سباتهم. في عصر لم يتجاوز أبدًا عصر إخناتون. ويريدون فرض هلاوسهم علينا.. إخضاع العقل المصري لملوثات مخلفاتهم. ونجحوا في ذلك لأقصى حد. وبتنا ندور في دائرة التخلف.. أنفقوا المليارات ليوقعوا بنا في الكمين.. الفخ.. الذي نعرف نحن أنه فخ. ونعرف أبعاده وكيفية التخلص منه. لكن مسئولونا لا يريدون. ربما لأنهم متورطون معهم للإبقاء على فصيلنا يلحس بقايا روثهم.

أيام الإنجليز في العصور الفائتة.. كنا أكثر حرية. كنا نتظاهر ونشتم ونقل أدبنا عليهم وعلى حكامنا ملوكًا أو وزراء وكانوا يستمعون إلينا. المستعمر وحكومته.. أما على أيام حكامنا العظام المصريين فأي مظاهرة تقابل بالنار وحديد الأساور. وخلف الأبواب المغلقة نهمهم كما الحيوانات عندما لا تجد ما يسد رمقها نحني الظهر والقامة عندما نتواجه بجند مدجج بالسلاح واشي مباحث. واشي أمن مركزي. واشي مخابرات.. واشي أمن قومي. واشي

مصنفات فنية. واشي مخبرين. ومرتزقة كل هؤلاء لهم مهمة محددة ومعروفة هي حمية حرية الحاكم من ممارسة شعب أعزل لحريته. إن ترمومتر الحرية في أي بلد يقاس بحرية الحاكم. إذا وَسِعتْ هبطت حرية الناس إلى تحت إلى الحضيض والعكس صحيح إذا ضاقت مساحتها.

اللهب داخلي يستعر.

تعلو ألسنته

ثم تخبو.

اسكبو الجاز. البنزين.

اشعلوا النار من جديد.

حتى يسطع الجسد بالوميض.

ليضئ للناس طريقًا.

فما عاد للحرية طريق!!

والقضية في السطور التالية "إذا كان هذا حال الحاكم في النظم الديكتاتورية. جند مدججة بالسلاح تحمي نظامه من الفشل الكلوي يمتلك حرية بلا حدود أو بحدود وهمية اصطنعها لنفسه يستطيع في أي وقت اختراقها فماذا يفعل المحكوم؟

القضية صعبة. صعوبتها تكمن في الإجابة عن السؤال المطروح.. وعلينا حتى نجيب عليه أن نسترجع صفحات التاريخ لنجد أن الشعوب حاولت الإجابة عن السؤال بالثورة. لماذا لأن الحرية غريزة ينطبق عليها كما ينطبق على غيرها من الغرائز نظرية الحق والالتزام.. من حقك أن تمارس حريتك ولكن عليك أن تلتزم باحترام حرية الآخرين. الحكام في العالم الثالث لا يعترفون بهذا أبدًا.. فيمارسون الحق في الحرية بأبشع صورة والتي تتمثل في خفق حرية الآخرين لصالح حريتهم.. وهم إذ يفعلون ذلك يخلون بالتعاقد الاجتماعي بينهم وبين المحكومين ويفقدون بالتالي أهلية الحكم. وفقد الأهلية يعني افتقاد عناصر صلاحية الحكم. مثل هؤلاء الحكام ماذا نفعل حيالهم. إنهم عادة لا يتركون الحكم طواعية إلا بالموت أو الاغتيال لقد قتل عبد الناصر وبعده السادات والبقية قد تأتي لكن السؤال ما جدوى الاغتيال؟!

الواقع أن الاغتيال وسيلة غير مشروعة جريمة تتنافى مع أولويات الحرية حرية الحاكم أن يبقى حيًا. فضلاً عن أن قتله لن يغير منهجًا أو نظامًا.. زي ما هو.. مجرد اختلافات شكلية تفصيلية في الوجوه يوجبها العصر وسنة التطور!! أما

التغيير الحق فيتم باغتيال النظام نفسه، نحن لا نؤيد اغتيال الأفراد لكن نتحمس لاغتيال الأنظمة الفاشستية العسكرية. فالجيوش ليس من مهامها ولا من واجباتها دفن إرهاصات الحرية تحت جنازير المدرعات بل مهمتها الأساسية الدفاع عن الحدود ضد الخطر الخارجي..

إذا كان الاغتيال غير مجدي وتغيير الحاكم لا فائدة منه والتغيير يجب أن ينصب على النظام ذاته وهو أمر مستحيل التحقيق على يد الحاكم.. فما هي الوسيلة هل هي الثورة؟!

التسريب في حكم الشعوب

التاريخ يحدثنا كثيرًا عن ثورات العبيد التي يقودها الأحرار.. ولم نسمع في يوم من الأيام عن ثورات الأشراف التي يقودها العبيد.. لماذا؟ لسبب بسيط جدا. الأشراف لم يكونوا في يوم من الأيام عبيدا مطحونين حتى يقود العبيد ثوراتهم لكن هل يعني هذا أن الطحن هو سبب الثورات.. إذا كان هذا هو السبب.. لماذا لا تثور شعوب العالم الثالث والرابع.. لماذا لا تثور الشعوب العربية.. يعجب المحلل وتصيبه الدهشة إزاء هذا الاستسلام الغريب للطحن والمضغ دون أن يسمع صرخة تمرد أو احتجاج. حكام عرب مازالوا يرفضون حتى الآن انتعال حذاء "كاوتشوك" حتى بدون جورب مفضلين عليه زنوبة أو شبشب بسيور يتمنطقون بالخناجر وخلفهم شعوب تموج دواخلها بكل معاني السخط والتمرد دون كلمة أف عليكم وعلى أهاليكم مستسلمة تماما لقهر الحاكم أصابها الصمم وعمى الألوان!! فما عادت تسمع أقصوصات الحرية ولا ترى سوى لون السلطة الفاقع أما

بقية الألوان يا دوب تشاش. كل همها فقط ملء المعدة والثقب!!

ونعجب فمعظم هذه الشعوب أصحاب حضارة وعراقة ويزول العجب إذا ما تعرفنا على الأسباب التي تحجب عن تلك الشعوب إرادتها في التمرد أو الثورة واستبدالها بالانحطاط العقلي والذهني والبدني أحد هذه الأسباب وأهمها سياسة التسريب في حكم الشعوب.. سياسة قديمة لكن وضع لها الأسس والمعايير الحديثة نظام يوليو وتبعته باقي الأنظمة العربية. هذه السياسة تعتمد على تسريب الضغط الإسموزي بتقليله كلما زاد حتى لا يحدث انفجار "أجهزة حكومية مخابراتية ومباحثية" تقبض بيدها على صمام الضغط تقوم باستطلاع الرأي يشاركها بعض الجمعيات الأهلية وحقوق الإنسان فإذا ما ارتفع الضغط وضاق الناس بأحوالهم وأصابهم اليأس والإحباط وبات تمردهم قاب قوسين أو أدنى يفتح صمام الأمان. بتقديم فتات مادي متمثلاً في علاوة اجتماعية أو منحة.. بإلقاء خطبة عصماء للحاكم يعد الناس بوهم رخاء قادم. بعرض فزورة أو مسلسل بالتليفزيون. بإقامة مباريات كرة القدم فيخف الضغط.. وكان أن نجحت

سياسة الترسيب في حكم الشعوب بإبقاء الشعوب تحت حكم أسيادها أزمنة طويلة يصل بعضها لقرن أو لضعف قرن جاموسة سوداء!

إن أكثر شعب طالت مدة استعباده في منطقتنا هو الشعب المصري مرات عديدة من مستعمرين أجانب وأخرى من أبناء بررة حتى يمكن أن يوصف بأنه الشعب المستعبد بطبيعته فإذا قرأنا صحائف التاريخ المصري القديم والحديث لوجدنا عجبًا. إن فترات حكم المصريين لأنفسهم أقل بكثير من حكم الأجانب. قديما الهكسوس... الحيثيون. اليهود.. الأحباش.. الليبيون.. النوبيون.. الرومان.. العرب.. الأتراك.. المماليك.. الفرنسيون وحديثا الإنجليز ثم آخر العنقود الحكام المصريون الذين طبقوا بجدارة سياسة التسريب في حكم الشعوب.

والسؤال إذا كانت الثورة العنفوية مستحيلة التحقيق نتيجة سياسة التسريب. وجسيمة المخاطر إذا قدر لها النجاح فما هو الحل؟!.. الحل الأمثل هو الثورة السلمية لكن كيف يمكن تحقيق مثل هذه الثورة. بداية يجب أن نزرع في الأرض المجتمع ضمير العمل العام من خلال منهج سلمي

للثورة. برنامج محدد ينتهج الثورة على كل شيء. على المعاني الهزيلة الدينية التي تفاخر بها فلول الإرهاب.. الثورة ضد الترف الحاد لصالح الفقراء والمعدمين الثورة ضد نصوص دستور معيوبة تعبر عن حالة من حالات الموات التشريعي بالإحلال والتجديد حتى يتدفق دم تعلمه الحرية السياسية والاقتصادية في عروق الحرية الكسيحة التي نعيشها منذ الانقلابة المبرومة. الثورة ضد التخلف المُشيع لصالح جموع الشعب ضد العفن والأفسدة التي تزكم الأنوف. ضد أحكام القضاء البنوار. ضد طبقة المستولين. "غير المتسولين" فئة تسللت لكثير من مناصب الدولة.. أخطرها وأكثرها تأثيرًا. تجدها في السياسة.. الاقتصاد.. الإعلام.. القضاء.. الشرطة.. تدير دفة أمور الدولة. تهيمن عليها. نباتات متسلقة لا تستطيع الصعود إلا على سوق الوظيفة العامة.. فئة تضخمت وترعرت وكوشت.. السلطة غايتها والنفوذ محكها والمصلحة الخاصة وتر لألحانها.. هذه الثورة يتم تحقيقها بإجراءات صارمة.. حاسمة تقطع دابر الفساد والإفساد. والوسيلة لتحقيق ذلك هو الانضباط التنفيذي للقانون. فما عاد لدينا وقت للجدل ولا البحث عن الوسائل علينا أن نستبدل

فاشية القانون بفاشية الحاكم نطبقها بلا استثناء وبحسم وبكل قسوة حتى ولو طال الجزاء حكامنا.. نصنع من فاشية القانون عرفًا للانضباط خاصة بعد أن تحول في معظمه إلى نصوص هلامية التطبيق.

فالأمي الذي أهدر فرصته في التعلم يجب عقابه. وظاهرة التناسل لأكثر من اثنين كما هرة يجب قمعها بفاشية القانون. لم يعد مجتمعنا يطيق تلك المأثورة "تناكحوا.. تناسلوا" فليس نحن مقصدها بل عرب الحجاز. فما عاد للفئران مكان سوى الجحور.. ولن نعدم وسيلة العقاب بدءًا من تحريم الدعم وانتهاء بالعقاب المالي أو البدني ونستمر في تنفيذ ما بدأناه حتى نمزج الانضباط بالعرف.

بهذا نستطيع زرع ضمير العمل العام فإذا ارتوى بالصدق والصراحة الإعلامية المتعددة المصادر تم قطف ثماره الإيجابية التحرر والانطلاق في فترة قليلة لا تتجاوز خمسًا من السنين. هذا هو ما نحتاجه اليوم ثورة سلمية يقودها راع محنك ليس من بين القائمين على تطبيق سياسة الترسيب في حكم الشعوب من يصلح لتلك المهمة العسيرة!!

ولابد أن نعي تمامًا أن الحرية لا تمنح ولا توهب فهي لصيقة بالإنسان منذ مولده. ولأنها غريزة تماما كالغريزة الجنسية فيجب أن تهذبها و إلا تحولت إلى فوضى يعني إيه تهذيب؟!

الإجابة لن تخرج عن ما سبق أن أثرناه. الحرية للجميع بمساواة كاملة وحتى ندعمها ونقوى بنيانها علينا أن نرعى نبت ضمير العمل العام. لكن كيف يتحقق ذلك؟ التاريخ يلمح بأقصوصة كانت تحدث إبان عصور مصر القديمة. كانوا يقتصون من القاتل بإسلوب حضاري.. لا يعذبوه أو يسحلوه أو يسجنوه بل يضعوه في حفرة مع القتيل حاضناً إياه لمدة ثلاثة أيام يراهما الغادي والرائح. استعاضوا بقصاص الدم قصاص الضمير والسؤال وما صلة هذه الأقصوصة بضمير العمل العام؟ إنها صلة الرحم.. تنمية الضمير في كلا الحالتين في القتل يحتضن القاتل ضحيته لمدة أيام ثلاثة والثاني يتم باحتضان القانون للرعية "الضحية" لمدة قد تقصر أو تطول تبعًا للظروف. ظروف النظام والشعب. والسؤال كيف يتم الاحتضان.. كيف يحتضن قانون واحد ملايين من البشر. وفي أي حفرة. أو أي مستنقع.. وحتى نجيب على

هذا التساؤل علينا أن نغوص في أعماق محيط المعرفة لنبحث عن لؤلؤ الصواب.

الخطأ والصواب

هل الخطأ الذي تحميه القوة صوابًا.. والصواب الذي يدعمه الضعف وهما!! للإجابة عن مثل هذا السؤال علينا أن نسترجع الماضي. كما سبق و أوضحنا إنه منذ الأزمنة الغابرة كانت الحرية حرية الأقوى. من يملك القوة يمتلك الحرية. وفاقدها لا حول له ولا إرادة. القوى يمارس حريته في حدود ما يمتلكه من أسلحة للدفاع عنها داخل الجماعة التي ارتبط واندمج معها وبدأ يمارس وإياها غريزة الجماعة. تلك الغريزة التي تدفعه للارتباط بالجماعة والحياة داخلها من خلال دور فعال. ولوجود تعارض بين المصالح.. مصلحة رئيس الجماعة وأفراده نشأت الحدود. أولاً حدود حرية الأفراد ما يفعلوه وما يمتنعوا عنه. ثم حدود رئيسها الذي يستطيع خرقها كلما عنّ له ذلك. تطورت هذه الحدود حسب مكانة رئيس الجماعة من زعيم عشيرة إلى شيخ قبيلة إلى رئيس قرية ثم مدينة. وحسب تطور العادات والتقاليد من الإباحة إلى التحريم والتجريم إلى أن تبلورت في قوانين تعبر عن مراكز القوة.

إن الإنسان بعودته إلى الحرية وبفكِّه لطلاسمها إنما يعود لطبيعته الأساسية ولغريزته التي حرم منها خلال عصور الظلمة وأمامنا أمثلة كثيرة منها الجنس والعري. قديما كانت نظرة الإنسان إلى الجنس نظرته للطعام والشراب حاجة يشبعها ولم يعانِ من الكبت إلا بعد ظهور الديانات التي عاملت الجنس على أنه خطيئة والعري على أنه جريمة. ولكن بدأ موج هذه الخطيئة ينحسر رويدًا رويدًا في كثير من البلدان المتقدمة تاركًا خلفه مساحة كبيرة من الحرية الجنسية بمعنى آخر بدأ الإنسان يعود إلى طبيعته.. غريزته ضاربًا عرض الحائط بكل ما لقنه التاريخ إياه من ممنوعات ومحظورات دينية وأخلاقية.

وما حدث للجنس حدث للعري.. إن الإنسان ليتعجب عندما يشيح رائي وجهه عن رؤية تمثال لامرأة عارية. وتزداد رقعة العجب عندما يزوم محتجا على لوحة عري أبدعها رسام. لا يعلم أن الملابس ما هي إلا نوع من الخداع والغش نتيجة تطور مذهل. اكتسب الإنسان خلاله عادات جديدة.. الحيوان لا يداري عورته هكذا كان الإنسان فلم تكن رؤية الأعضاء التناسلية تمثل خللاً في العلاقات الاجتماعية

أو خطأ أو حراما ولم يكن الإنسان ينظر إلى هذه الأعضاء بغرابة أو شهوة أو دهشة لذلك كان الإنسان القديم أكثر حرية جنسية. طعام مكشوف لا يداريه ستر يستملحه الإنسان أو يرفضه. لم يكن مثل هذا الإنسان وأمامه الطعام المكشوف يعاني كبتا أو حرمانا. وحكاية الخجل الذي دفع حواء لمداراة عروتها بورقة شجر لا تتفق مع النظرة الصح للأمور. فالإنسان في صورته الأولى رجلا أو امرأة كان "ملط" لا يستره ملبس. اعتاد الحياة هكذا بلا خجل أو تحفظات إلى أن بدأت المرأة تفكر في حجب موضوع الجنس عن الأعين فتحول الواقع.. واقع الجنس متمثلا في العضو المرئي إلى حلم يحلم به الرجل ماذا هو. وكيف هو؟! وبدلاً أن يكون في المتناول.. العين واليد.. أصبح بعيدًا بتغطيته ولأن كل ممنوع مرغوب. فقد أضفى عليه ذلك نوع جديد من الإثارة أعقبه تطور آخر وهو تصعيد التغطية لتشمل كامل الردفين والأثداء. فكل ما هو مخبوء أكثر إثارة وهذا هو ما أوحي للمرأة بمدارة كنوزها.. وقد يكون هو نفس السبب الذي يدفعها إلى التحجب أو التنقيب.. إثارة الغموض وإغراق

الرجل في الحلم يستثيره ينطط يرفع من درجة استعداد شهوانيته لتحقيق الواقع وليس العكس هو الصحيح.

عندما كنت في الخارج استوقفتني مسرحية عارية. تعرض من ضمن مشاهدها رقصات استربتيز في البداية لهثت. نسوان عريانة. يا هوه. يا عالم. إلحقوني إنني أغرق. أغرق. لكن بعد وقت قصير هدأت أعصابي وبدأت أنسى تمامًا الشكل إلى المضمون وعقلي يرجف بالمعنى وأنا أطل بوجداني على فكر المسرحية. فلو كانت هذه الرقصات على واحدة ونص من إحدى راقصات هز البطن المحتشمات لاستثارة المتفرج أكثر بكثير جدا من تلك المسرحية العارية. لسبب بسيط جدا أن راقصة هز البطن ترقص كأنها تواقع رجلا في سرير.. بوسطها.. بردفيها بساقيها.. بحركة بطنها.

بين عصر العرى وعصر الملابس مر الإنسان بتطور هائل في فهمه لمعنى الخطأ والصواب والحد الفاصل بينهما ولم يكن حديثنا عن العري والجنس إلا للدخول إلى دائرة المتناقشين بالملابس الرسمية!!

الواقع إن تمحور مفهوم الخطأ إلى حرام والصواب إلى حلال بدأ ببزوغ شمس الدين عندما رفض الناس القناعة

بمفهوم الأشراف عن الخطأ والصواب لأنه يستذلهم لذلك بحث هؤلاء الأشراف عن صيغة ترضي الرعاع في الوقت نفسه تفرض عليهم مفهومهم للخطأ والصواب دون مناقشة أو محاورة، ووجدوها في الغيبية التي تسندها أوامر الإله.. مجموعة أوامر إلهية.. تحور الخطأ فيها إلى حرام والصواب إلى حلال.. نهاية رحلتها (العاصي) مآله النار خالدًا فيها أبدًا وللمذعن الجنة بلبنها وخمرها وعسلها وحور العين.. النساء البكارى دائمًا حتى بعد الولوج. عظمة وأي عظمة!! وطغي شبيه هذه الصيغة الدينية على فكر كثر من المجتمعات الأوروبية في القرون الوسطى لكن سرعان ما تحللت منها بعد قيام الثورة الصناعية وسايرها في ذلك بعض المجتمعات الإسلامية بعد تحررها من احتلال الدولة العثمانية باعتبار أن هذه الصيغة الدينية تمثل عائقًا لحركة المجتمع المدني وكان أن تم الفصل تمامًا بين غيبية الدين وواقع المجتمع المدني وبالتالي تغيرت فلسفة مفهوم الإباحة والمنع بالابتعاد لأكبر مسافة ممكنة عن تعريف الحلال والحرام والاقتراب بل والالتصاق بمفهوم الخطأ والصواب.. فليس كل حرام خطأ ولا كل صواب حلال وبالتالي تحول مفهوم التحريم الديني

في كثير من الأحيان إلى إباحة، والإباحة الشرعية إلى منع وتجريم، وترتب على ذلك تغير جذري حول مفهومات عدة.. العفة والشرف واللقاءات الجنسية وكل ما يتصل بالحرية الشخصية أصبحت كلها في متناول الجسد تحت مبدأ حرية الإنسان على جسده..

وانتقلت تلك العدوى إلى بعض المجتمعات الإسلامية!! فالخمر المحرمة شرعًا أضفت بعض القوانين الوضعية الحماية على احتسائها، وضرب الزوجة المباح شرعًا يحاكم مرتكبه جنائيًا، وأغنية الرق القديم لا تستطيع حنجرة حاكم التغني بها!!

مفهوم الخطأ والصواب هذا يتغير من عصر إلى عصر فخطيئة حرق التتاري عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية كانت إحدى مفاخر الغزو العربي آنذاك، ووشم قبط مصر، وحلق شعورهم، وإجبارهم التزيي بجلباب لا يتجاوز الركبة أثر من آثار التطرف الإسلامي البغيض "صوابًا" وهو ما لا يقره قانون ولا يسمح به حاكم الآن "خطأ".

وأيضًا قد تتغير مشروعية الفعل من صواب وخطأ حسب مكان حدوثه. فزواج الأربعة مباح قانونًا وشرعًا في

بلاد الإسلام لكنه جريمة يعاقب عليها القانون في أوروبا حتى في بعض البلاد العربية، والدعارة مباحة في تونس علناً محرمة علناً في السعودية.. قلنا علناً.. أما سراً فمساحة انتشارها أكبر بكثير من تونس.. فما يذاع عن حكايات الأميرات المصونات اللاتي يبحثن عن الجنس بملقاط حتى ولو كان جنس التليفون أقل بقليل عن الحادث فعلاً.. لسبب بسيط أن الجنس في بلاد الحجاز هو نفسه في أمريكا رجل وامرأة الاختلاف في أسلوب الممارس، مجتمع مغلق وآخر منفتح. مجتمع يمارس الجنس في سرية خوفاً من افتضاح أمره بوصفه المجتمع الأمثل بخلاف مجتمع آخر لا يرى غضاضة في حرية الإنسان على جسده ولأنه فعلاً المجتمع الأمثل مجتمع الوضوح والصراحة.

أمثلة كثيرة نخرج منها بنتيجة واحدة لا يختلف على صحتها اثنان.. إن الخطأ والصواب صيغة أخرى غير الحلال والحرام.. قد يستمد تقنين الخطأ والصواب جذوره من الحرام لكن في النهاية هو صياغة مختلفة فليس كل خطأ حراما وليس كل صواب حلالا وهذا يدفعنا للتساؤل إذا كان الخطأ والصواب صيغة يرتئيها مجتمع ما في وقت ما فهل

يوجد صواب مطلق وخطأ مطلق.. علينا حتى نجيب على هذا السؤال أن نرد القاعدة إلى أصلها وهي الضرر.. ماذا يعني الضرر؟! ناقشت ذلك في كتابي "مسافة في عقل رجل" وقبلاً تحدثنا عن ضوابط الحرية والآن نتكلم عن علاقة السببية بين الفعل وبين الضرر الذي يحدثه هذا الفعل أي النتيجة حتى نستطيع أن نجيب على السؤال الذي طرحناه عن إطلاقية الصواب والخطأ.

الإنسان حر في أفعاله أن يفعل ما يشاء.. هذا هو الأصل لا لسبب إلا لأنه ولدا حرًا.. لكن حريته المطلقة هذه قد تصطدم بحريات البعض لذلك يجب تنظيمها حتى لا يترتب على ممارستها الإضرار بحرية الآخرين. عقدة فكيف يمكن الجمع بين المتناقضين الحرية والتنظيم؟!.. أية حرية التي تعترف بالقيود.. إنها ليست سوى حرية منتقصة.. الواقع أن العكس هو الصحيح فممارسة الإنسان لطقوس حريته والتي تسلب الغير حريته حرية منقوصة في النهاية لأن من سلب حق الغير في الحرية بالأمس مسلوب حقه فيها غدًا.

نخرج من هذا بنتيجة هامة أن أي فعل يترتب على ممارسته ضررًا خطأ وعكسه صواب. بمعنى أن الخطأ والصواب يدوران في فلك الضرر.

من أول وهلة نستطيع القول "نظريًا" إنه يوجد خطأ مطلق وصواب مطلق. الحق بيِّن والباطل بيِّن. لكن عمليًا عندما نقرأ خريطة الواقع نجد عجبًا وأي عجب.. النسبية جرثومة خطيرة مؤذية يصيب الإطلاق بمرض عضال لا يبرأ منه من خلال سؤال كيف ومتى؟ كيف هذا الضرر.. صورته. معياره ومتى يتحقق. حدوده. فتوصيف الضرر بالإطلاق مستحيل لأن مفهومه يتغير من عصر لآخر. كما يتغير تحت ظروف معينة أو حسب رؤى خاصة. ونأتي هنا للسؤال الذي سبق أن طرحناه ونحن نتحدث عن التسريب في حكم الشعوب. كيف لقانون واحد أن يحتضن كل الرعية؟! بتطبيق معيار الضرر في علاقته بالناس وفي علاقة الناس بعضهم بالبعض الآخر. فيمتنع على الفرد إتيان أي فعل من شأنه الإضرار بغيره من آحاد الناس.. وبتطبيق هذا المعيار في علاقة الحاكم بالمحكومين نستطيع القول إن الحاكم الحامل لفيروس الديكتاتورية يصيب الناس بآفات الخوف

والتقوقع واللامبالاة والسلبية والانطوائية وبالتالي يدفع المجتمع للانتحار.. الحاكم الفاشيستي لا يستطيع.. لا يقدر على حب من يكرهه والحرية هي الدواء الوحيد الناجح لكل أمراض المجتمع وهي وسيلة لتطبيق معيار الضرر.

حرية ما بعد الحظ الوهمي

لم أقل الحقيقة.. كل الحقيقة.
جلادي سألني
هل أنت كافر؟!
هل معبودك شيطان خاسر؟!
يقرع أجراس الكنائس!
يؤذن فوق المآذن.
شرخت صرختي صدري.
ضاقت بصمتي.
أبدًا لست هذا الكافر.
لم أقل الحقيقة.. كل الحقيقة.
نبشوا صدري..
ما بداخل صدري.
نزعوا المصحف من قلبي.
من مهجة قلبي.
لم يدرِ الكلاب.. سجاني الاستئناف وطُرَه والقطّا...

إن الجذر في أعماق حديقة الفؤاد.

ينبت ألف مصحف ومصحف.

وإن الشرارة.

لا يقتلها سوط حاكم جلاد.

تساؤل عاجز أثاره فهمي هويدي الكاتب المُتَسَعْوِّد وهو يهاجم روايتي "مسافة في عقل رجل" في ندوة حقوق الإنسان بجمعية الاقتصاد والسياسة.. هل سبع طبقات وأستك يعتبر فكرا قاصدًا.. هنا عبارة ساخرة وردت على لسان أحد الأبطال في الكتاب ثم وهو يضع الفواصل بين الفكر واللافكر.. الأول يناقش والثاني يسجن ثم وهو يقيم ما كتبه علاء حامد "بلا فكر" وأخيرًا ما جاء بهذا الكتاب المعنون "سلمان رشدي المصري.. علاء حامد" ومؤلفه صاحب الباع الكبير في تملق الدين وهو يتساءل ثم وهو يرد على تساؤله "إن ما كتبه علاء حامد ليس فكرًا يُرد عليه ولا أراء تستحق التفنيد والنقاش ولكنه مجرد سب للدين والعقيدة وتطاول على الحق ولا يمكن لأي إنسان أن يرد على السب بفكر مساوٍ"

ولم يكن فهمي هويدي ولا هذا المؤلف المجهول المصدر أول من وقعا في الخطيئة. خطيئة الاتهام فقد سبقه

إلى ذلك كثيرون قبله. أحمد بهجت "صاحب صندوق النذور بالأهرام". جمال بدوي "على كل لون" مصطفى محمود "المليونير الغيبي".. الغزالي. كشك الأول والثاني.. ثروت أباظة.. الشيخ الشعراوي.. غالي شكري.. رحمهم الله. ولم يكن الاتهام منصبًا على خلو الكتاب من الفكر بل تعدى إلى العقيدة بكلام بذئ تفوق بذاءته لسان "مومس" نفضت جسدها في التو من تحت جذع رجل!!

لم يكن سبب هذه الحملة الشرسة من رجال الدين وبعض كتاب "الترسو" ضد الكاتب والكتاب سوى الخوف على مكاسبهم المادية والأدبية ومن صحوة الشعب فقد صدق الأزهر عندما كشف في تقريره عن هدف المؤلف المستتر بفتح باب الجدل والنقاش حول قضايا محظور نقاشها لإحداث ثورة فكرية على العنف ولم لا. ونحن ها هنا قاعدون وقد أصابنا خبل عقلي بعد أن بدأنا نموء مثل القطط وننبح مثل الكلاب لا نكترث لمفاهيم متغيرة تصعقنا ولا لعوالم حولنا تصدمنا بتطورها المذهل الخلاق ولم لا والإنسان نفسه ثمرة هذا التطور!!. وللحقيقة فقد حدث ما توقعه علماء الأزهر بل فاق كل التخيلات حتى لقد بيعت النسخة الواحدة من الكتاب

مصورة بثلاثمائة جنيه ذهبت كلها إلى جيب الناشر أبو بيض!!

والسؤال ما الذي دفع هؤلاء الناس إلى كل ثرثرة الغضب هذه.. بالقطع لا يمكن أن تكون الغيرة على الإسلام.. فالدين الذي يهزه قلم كاتب دين جبان. دين هش.. وليس الإسلام كذلك.. إذن ما هو السبب ما هو الدافع.. السبب كما قلنا الصدمة إلتي حدثت لاختراق دائرة الوهم من الخرافات والبدع التي اصطنعها المجتمع لنفسه وتحوط بها. لم يفعل قبلاً كاتب مثل ما فعل ونحتاج لعشرات السنين وربما لأكثر حتى ينهض من يحذو حذوه.. إن مساحة الحرية في الشرق والمسموح من خلالها بالممارسة ضيقة جدًا.. هذه المساحة الضيقة الخارجية يقابلها مساحة أوسع للمحظورات وأضيق للمستباح للنفس الإنسانية.. لذلك فقد فوجئ المجتمع وكاتب يكسر هذه القاعدة الشاذة. نعم شاذة. فالعكس هو المفروض. فوجئ الناس بمن يدخل إلى هذه الستر المخملية المشعوذة يمزقها بسن قلمه استيقظ الناس ليجدوا من تعدى الخط الواهم الذي استنه تخلف المجتمع على مدار عشرات

بل مئات السنين.. هذه هي القضية.. اختراق خط ممنوعات مناقشة مسلمات الدين!!

ما المشكلة أن يتناول العقل هذه المسلمات بحثًا وتمحيصًا بعد أن أفردنا لحتمية التسليم بها أطنان الكتب ومئات الهوامش؟!.. وهل يضير الحقيقة مناقشة صحتها ووجودها إذا كانت حقًا موجودة. إطلاقًا.. قانون الجاذبية الأرضية لا يختلف أحد حول صحته، لكن إذا أنكره عالم فهل نعلقه من خصيتيه حتى الموت. وقضية القدر التي يفرضها علينا السادة المتفقهون بالعصا والسوط كيف يمتنع على بشر مناقشتها وتفنيد ملمح الاستسلام فيها. ثم أين المشكلة في المطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل والفقير بالغني. ماذا لو طالبنا بتجريد الأثرياء الحرامية من أموالهم. هل هذا يقهر الإسلام ويذله. ويعذبه ويضنيه؟.. إطلاقًا.. بل ينميه ويقويه ويدعمه إذا كان الإسلام دين حق.. وهو كذلك. حق بمضامينه باطل بمفسريه.

لكن وفي النهاية ماذا يتبقى كاتب نقهره ونستعذب هذا القهر بشتى الوسائل سجن.. واضطهاد.. وقطع أرزاق.. وكتاب لم يناقش يجب أن نفتح صدورنا لمفاهيمه الجديدة وأن

تتسع عقولنا لجرأة إبداعه.. فالكاتب مصري ليس هنديًا متجلنزًا ولا مصريًا متهودًا يؤمن تماما بقضايا بلده. بفصيل قومه الغارق في التخلف يوقن أن هدف الدين هو إسعاد هذا الفصيل وأنه أي: الدين، وسيلة لتحقيق هذا الهدف. فإذا عجز كما هو الحادث الآن عندنا فليس العيب في الدين بل في من يطبقون نظريات الفتة على الدين.. إذا تعارضت الوسيلة "الدين" مع الهدف "إسعاد البشر وأصبح الدين وسيلة لتعذيب البشر ومحقهم وإذلالهم وتخلفهم.. إذا تعارض الدين مع إنسانيتهم يصبح هدف الدين غير مشروع فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نغلب الوسيلة على الهدف أو أن تتحول الوسيلة إلى هدف. أي أن يتحول الدين إلى هدف في حد ذاته بعيدًا عن كونه وسيلة لإسعاد البشر.. وهذا هو حادث الأمس القريب باسم الدين تطايرت جثث النساء والأطفال في الشوارع.. حرقت الكنائس والمصانع وفخخت السيارات قتل البراء من الناس. غرقت السياحة في مستنقع العنف تقطعت أرزاق مئات من البشر. السلام مزقه الإرهاب باسم الدين. باتت حياة الناس في كفة والدين في كفة أخرى رغم كل هذا مازالت الناس تتساءل المجتمع أم الدين. الإرهاب أم

الاستقرار.. الحب أم الانتقام.. مازالوا يتساءلون عن الخيارات بعد أن تحول هدف الدين من إسعاد الناس إلى نقيضه تمامًا تحقيق عذابات البشر بأقصى قدر ممكن وبأوسع مساحة وبأحد مضمون.. العلاج هنا ليس بمحاكمة مئات من دعاة التطرف وتقتيل عشرات منهم. العلاج ليس بالانتقام بمحوهم من على خريطة الحياة أو باعتقالهم وسجنهم بل في تقليص عذابات البشر لا يكفي تقطيع الأطراف.. لسبب بسيط جدا. أن غيرها ينمو بسرعة مذهلة. إذن ما هو الحل؟!. أيضًا بسيط جدا الضرب في المليان على العمود الفقري لهؤلاء المهاويس لكن ما هو هذا العمود الفقري؟!

إنه لمما يثير الدهشة والعجب أن يوجد في مجتمع مدني ثلاث وزارات للدين واحدة للأوقاف والثانية للأزهر والثالثة للفتوى. حاجة غريبة على رأي "شادية وعبد الحليم" في أغنيتهما الشهيرة. حاجة "تمخول" أن ترعى الدولة ثلاث مؤسسات.. وتنفق عليها باستقطاع أجزاء من لحم الحي أي لحم الشعب النيء بعد طهوه في صناديق النذور وخزائن الأوقاف.. "ويا ريت همه مليمينها".. أبدًا.. إننا نحن المثقفون لا نفهم في مجتمع مدني تواجد مثل هذه المؤسسات الدينية

بعد أن أصبحت بؤرة لدعاوي القتل والإرهاب لا أفهم ما دور هذه الأجهزة في مجتمع علماني استمد قانونه المدني من قانون نابليون.. الله يرحمه ويبشبش الطوبة تحت دماغه "على فكرة الرحمة ممكن طلبها حتى للكفرة"!! لا أفهم هذا الدور بما لهذه المؤسسات من سطوة وقوة وإصرار على ضرب المجتمع المدني في المليان ومحاولة جره إلى الغيبية والانهزامية والاستسلام.. لا أفهم مصلحة الإنسان المصري أن تنفق الحكومة ملايين الجنيهات على إنشاء المساجد وترميمها وسرقة ميزانيتها.. وتبخل بخلاً يقارب التقتير في الإنفاق على التعليم أو صحة الإنسان وعافيته بل وتنقص الأموال المخصصة لها لتدعم بها مؤسسات الغيبية المقدسة!! لا أفهم أن يطالعنا التليفزيون يوميًا بما يمجه العقل من أفكار استسلامية انهزامية يجتر بها مهاويس الدين لدعم التخلف وتوسيع رقعته..

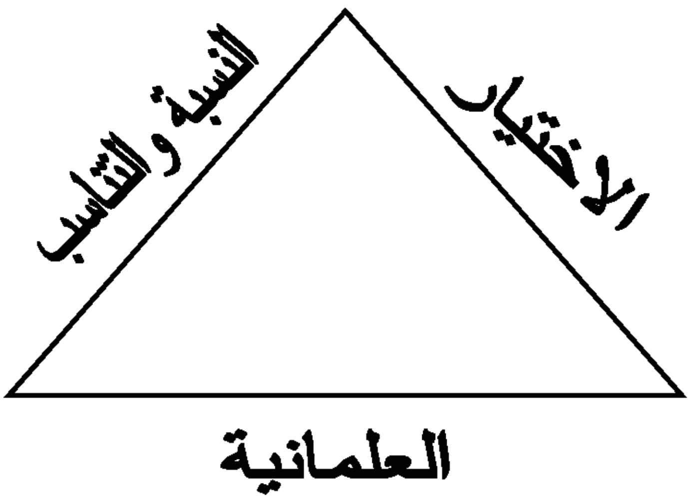
لا أفهم إقامة خط إنتاج إذاعي يومي وتخصيصه للتلاوة والفتاية وكلام كثير لنا عليه تحفظات. أليس من المفيد في ظل هذه الظروف التي تمر بنا أن نغير منهجنا بأن نضرب على العمود الفقري للإرهاب.. الوسيلة الوحيدة لوقفه.. ولنبدأ

بالمأثورة القائلة "الدين لله والوطن للجميع" وبعد ذلك نستعرض وندرس ونحلل لنتجه بكل ثقلنا إلى المجتمع المدني الكامل..من خلال التعليم والإعلام.. البداية.. برامج التعليم يتم تغييرها لتحقيق أهداف المجتمع المدني وكذا الإعلام يجب أن نوقف فورًا الدعاية لأي دين والنص على ذلك دستوريًا كما هو منصوص عليه في الدستور الأمريكي ثم يعقب ذلك خطوات وخطوات جادة منها التفكير في تحويل وزارة الأوقاف لإدارة عموم المساجد الأهلية بعد خصخصتها، فالعالم المتحضر من شرقه لغربه لا توجد به وزارة للدين. علينا أن نفكر في إلغاء ملكية الأزهر للجامعة الأزهرية توطئة لتحويلها إلى جامعة منتجة لا غيبية.. أو ليس من الأجدى أن نغير تماما خريطة الرأي على شاشة التليفزيون وفي الإذاعة. إننا لن نعالج مشكلة الإرهاب بالسجن أو الإعدام.. بل بالضرب على العمود الفقري بالبحث عن جذور المشكلة.. وهي أمامنا معروفة مفهومة.. وبعد ذلك علينا باجتثاث هذه الجذور.. علينا أن لا نقف متفرجين والإرهاب يستعمر مساحة شاسعة للرأي العام ويحقق مكاسب اجتماعية يومية بسبب الصدام المروع بينه وبين وزارة الداخلية ولا

ننخدع بالهدنة المؤقتة مع قياداته.. فهي هدنة مسبباتها اكتساب الوقت وتفادي عنف الداخلية مؤقتا.. لكن سرعان ما تنقض تلك الجماعات على الفريسة إذا ما استشعرت القدرة على تخطيط وتنفيذ العمليات الإرهابية.. الحذر كل الحذر من هدنة خادعة. لذلك يجب علينا أن نناورهم مناورة جيدة نأتي من خلفهم ثم نطوقهم ونضرب في أعماقهم في عمودهم الفقري.. علينا أن نحاصرهم حصارًا لا مفر منه الموت أو الاستسلام "البحر ورائكم والعدو من أمامكم" إذا كنا حقا نريد إنقاذ مصر. الخيار المطروح أصبح خيارًا واحدًا لكنه صعب.. التطرف أم مصر. لا أحد يحب هذا البلد الرائع أن يتحول اختياره إلى التطرف الذي يهدف إلى تمزيق تراب مصر إلى دويلات مثل ما حدث للبوسنة والكروات وصربيا. إذا كان هذا هو الخيار الوحيد فعلينا أن نضحي لكن لا يمكن أن نضحي بالشعب.. بالناس بوضعهم وقودًا في أفران التمزق الطائفي أبدًا كما أنه ليس مطلوبًا أن نضحي بديننا وعقيدتنا لا وألف لا. لكن التضحية المطلوبة مقبولة. وهي تحويل المجتمع المصري إلى مجتمع مدني. والحكومة المصرية بالكامل إلى حكومة مدنية لا دينية. لا نطالب بإلغاء

الدين وقيمه كما فعل أتاتورك لأننا سنتصدى لكل من يطالب بذلك، لكن مطلبنا ببساطة شديدة أن تتحول الدولة إلى دولة علمانية ماية في المابة لا تشوبها شائبة. هذا هو الطريق الوحيد لتسحب الحكومة البساط من تحت أقدام الإرهاب بعد أن تتطاول على كل قمية نعشقها ونحبها.. بهذا نستطيع إذا ضربنا باستمرار على العمود الفقري نستطيع أن نشل حركته خلال عام واحد.. وليس هذا فحسب بل أيضًا نقطع اليد التي امتدت إليه أيضًا بالريالات والخراب.. اليد التي استطاعت أن تخترق كل تحصينات المجتمع من نقابات وجميعات. وقضاء.. وشرطة. وضرائب.. حتى بات تقييم المسألة أخطر بكثير جدًا عما ارتأته الحكومة. فبتر الأطراف بالإعدام والسجن والاعتقال لن يوقف نمو أطراف جديدة للإخطبوط المتربص للسلام لذلك يجب على الحكومة أن تغير من إستراتيجية مواجهتها للإرهاب بدراسة متأنية لخريطة المجتمع المدني وذلك بضخ مفهوماته المأثورة "الدين علاقة خاصة بين المواطن وربه، والوطن علاقة عامة بين مجموع المواطنين في قلب هذا المجتمع.

مثلث الحرية



دعامات الحرية ثلاثة.. أول هذه الدعامات كفالة الاختيار.. فلا اختيار مع القسر أو غيبية البدائل.. الأصل فيه.. الإطلاقية.. أي الاختيار اللامشروط.. يختار الإنسان من البدائل ما يوائم مع مصالحه ورغباته وظروفه لا يحد من اختياره موانع أو حدود أو عقبات لكن مثل هذا الاختيار

المطلق يصطدم بحرية الآخرين لذلك يجب أن يتحدد إطار الممارسة بعدم الاعتداء على حق الغير في اختياره بحجبه أو سلبه منه أي اختيار حر للشخص بلا ضرر على الغير. فالذي يواقع أنثى غصبًا عنها يحجب عنها اختيارها في سلامة جسدها حتى ولو كانت تبيع المتعة بالساعة والدقيقة.. والذي يسرق مالا منقولاً ثم يحوزه يعتدي على حق اختيار صاحبه في ملكيته وحيازته. هذا السلب قد يتم صراحة في مواجهة صاحب الشيء وقد يكون أسلوبه التدليس أو الغش أو الخداع هنا يسقط عن الفعل كل أقنعة المشروعية ويتحول إلى عمل محرّم بل ومجرّم ومن ثم لا يتحصن بالحيازة أمام حق صاحبه في استرداده ولا يكفل له القانون الحماية فإذا حدث فهو تشريع باطل يجب إسقاطه.

ومن هنا تكمن فلسفة مشروعية إسقاط القوانين التي تسلب من المواطن حق اختياره لصالح قلة حاكمية. فقوانين الطوارئ التي تسلب حرية اختيار الأفراد وتوسع من دائرة حقوق الحاكم على حساب حريات الآخرين وتحجب عن المواطنين حقهم في اختيار البدائل وهي تفرض عليهم أسلوبًا معينًا في ممارسة حرياتهم يعتمد على القسر والإرهاب. مثل

هذه القوانين التي تخرق قاعدة توازي الحق والواجب بين الفئة الحاكمية وبين المحكومين لا سند لها في بنود قاعدة الاختيار.. قريبة الشبه بأقفاص القرود حرية الحركة مكفولة فقط داخل نطاق لا تتعداه.

المفروض في قوانين الطوارئ أنها تشرّع لمواجهة ظرف طارئ.. حال خطير لذلك فهي حالة استثنائية يتسامح معها المواطن في تجاوز انتقاص حريته واختياره لصفتها الاستثنائية فإذا تحولت من صفتها تلك المؤقتة إلى الديمومة وأصبحت هي القاعدة العامة بينما يتحول العام إلى استثنائي فهذا يعني فقدها السند القانوني ومن ثم تسقط مشروعيتها وللمواطن الحق في التمرد وإعلان هذا التمرد بكافة أشكاله السلبي والإيجابي بالإضراب عن العمل والتظاهرات.

إن قانون انتخاب الحاكم الذي ينص على الاستفتاء على شخص الرئيس يمحو من خريطة الحرية بدائل الاختيار بحرمان الفرد من حقه في التفاضل الانتخابي، مثل هذا القانون عبيط لا يعي المستجدات المتعاظمة في توسيع قاعدة حقوق الإنسان بعد أن أصبح هو مصدر السلطات فانتقلت السلطة من الأمة إلى مجاميع من الأفراد داخل مؤسسات

تهيمن على المجتمع وتسيطر عليه ويخضع تمثيله لصدى متطلبات هذه المجموعات بل إن الأخذ بقاعدة الاستفتاء يؤدي إلى خرق قاعدة التوازي بين الحق والواجب. كيف؟ ذلك أن تضييق قاعدة الاختيار بعرض سلعة واحدة على الناخب ليس أمامه حيالها سوى الرفض أو القبول يهدر حقه النابع من غريزة الحرية بل ويجبره على استلاك طريق واحد وهو يسلب حقه في الاختيار بين البدائل وينتهي بالتالي إلى تغليب مصلحة الحاكم والذي لم يكن لمواطنيه حق اختياره!! فمن أدلى بصوته لصالحه يمثل نسبة ضئيلة من مجموع الناخبين لا تكفي لنجاحه مع الأخذ في الاعتبار تلك النسبة الضخمة التي لم تتقدم أصلاً للإدلاء بأصواتها معلنة ضمنيًا رفضها لشخص الحاكم ولنظامه بأغلبية كاسحة تفوق تلك النسبة الهزيلة التي صوتت لصالحه أغلبية تكفي لإسقاطه!! مثل هذا الحاكم الذي رفضته الأغلبية الشعبية يفقد سند تقلده المنصب ومن ثم يعين عزله.

من منطلق هذه الطرحة نستطيع الاقتراب أكثر إلى مفهوم الاختيار نستكشف بمصباحنا صور العولمة المرسومة

على الجدر والأسقف نمسح عنها غبار الزمن بغيتنا رصد معانيها واستخلاص النتائج.

مشاهد الاختيار

المشهد الأول

حرية الإنسان على جسده

الجسد ملكية خاصة جدا ولأنه يمثل ذات الإنسان فهو أخص من ملكيته للأشياء لسبب لا يخفى عن الفطنة أن الأشياء منفصلة عن الجسد بعكس أعضاء الجسم فهي متوحدة مع النفس.. كيان واحد لا يتجزأ ومن هنا تأتي قدسية الجسد من انفراده بالخصوصية الشديدة والتي يمكن من خلال رصدها استخلاص نتائج حتمية.

الخصوصية يستلزم معها حرية الإنسان في اختيار سلامة جسده هذه الاختيار نابع من توحد النفس البشرية مع ذاتها بخلاف ملكية الأشياء التي يمارس عليها الشخص اختيار منفصل.. هذا التوحد يترتب عليه بالضرورة حق استعمال أو استغلال أعضاء الجسد وهو نتيجة منطقية فإذا كان للإنسان الحق في هدم جسده كله أو بعضه بالانتحار أو البتر أو التبرع فمن باب أولى له حق استغلاله واستعماله

لا فرق في هذا بين عضو وآخر فلا يحرم على اليد اليمين ما تفعله الشمال كما لا يحرم على الإنسان استعمال أي عضو من أعضاءه تحت مظلة التحريم الشرعي ذلك أن مشروعية فعل الاختيار من عدمه تتوقف على توافق إرادتين لإتيانه فلا تحجب عن الإنسان حريته في اختيار سلامة جسده طالما لا يمثل خرقًا لنصوص القانون باقتران الفعل بجريمة جنائية وهو ما أخذ به مؤتمر السكان الذي انعقد في القاهرة منذ سنوات.

حرية الإنسان على جسده يتحتم معها سيطرته عليه فإذا فقد تحكمه انعدمت حرية الاختيار لديه.. صور فَقْد السيطرة عديدة قديما وحديثًا. فالرق الذي تتحول به ذات الشخص إلى ملكية آخر ويفقد سيطرته على نفسه صورة بشعة للاعتداء على حرية الإنسان في سلامة جسده. والطاعة التي يتم فرضها على الزوجة قسرًا للدخول في عصمة زوجها صورة تاريخية مقيتة لهذا الاعتداء. وحجب الطلاق عن الزوجة وإجبارها على الاستمرار في معاشرة رجل تكرهه يستبيح جسدها بالقوة لا يتفق مع فلسفة حرية اختيار الإنسان على جسده. واغتصاب الرجل لزوجته غصبًا عنها بحجة وجود

عقد شرعي بينهما عبارة عن ورقة يمكن مسح إلية قرد بها حجة واهية للاعتداء على حرمة الجسد والتجنيد، الإجباري صورة فجة للاعتداء الصارخ على حرية الإنسان في سلامة جسده و.. كل ما ذكرناه من صور يقع الضرر على الفرد نتيجة الاعتداء على حرية اختياره وهو أساس تحريم الفعل الواقع على الجسد.. لكن ترتيب حقوق للغير على الجسد من ارتفاق واستغلال وانتفاع بموافقة صاحبه حتى ولو حدث ضرر عليه هو من صميم حريته واختياره. بشرط ألا يمثل ذلك خرقًا للقانون وعلى هذا يصبح التبرع بعضو من الأعضاء أو بيعه مشروعًا ومن باب أولى استغلاله.

والدعارة ليست سوى صورة من صور الاستغلال البدني تقوم المرأة بتأجير جسدها لآخر بمقابل وهو ينبع من حقها في الاختيار. مثله مثل العمل البدني الذي يؤجر فيه الشخص لإتمامه. فما الفرق؟! ولا يغير من هذه الحقيقة تحريم بعض التشريعات مثل هذا النوع من الاستغلال فهذا التحريم يرجع إلى فلسفة حماية المجتمع من انتشار البغاء وهو في المقام الأول هدف اجتماعي يختلف من عصر إلى آخر ومن مجتمع إلى غيره من المجتمعات. فالبغاء العلني

في مصر كان مسموحًا به في الأربعينيات والآن تجرمه التشريعات الوضعية اكتفاء بدعارة الشقق المفروشة!! وفي تونس البغاء عيني عينك حيث تدار هناك بيوت الدعارة تحت سمع وبصر الحكومة!! المسألة إذن ليس مرجعها صحة المبدأ من عدمه فالاستغلال البدني يتفق مع متطلبات حرية اختيار الإنسان على جسده. لكن المسألة لا تتعدى سوى رأي المجتمعات في المدى المسموح به لمثل هذا النوع من الاستغلال فتبيح أو تحرم الصور التي تتفق مع فلسفتها.

من هذا المنطلق نستطيع القول أن الزواج العرفي أو زواج المتعة الذي تتلاقى فيه إرادتان حرتان يتفق أيضًا مع مبدأ حرية الإنسان على جسده. أبدا ليست هذه صورة من صور الدعارة المقننة.. فما هي العلة التي تكمن وراء تحريم زواج شاب بفتاة حتى ولو كان هدفهما تحقيق غاية الإشباع الجنسي؟! فالزواج الرسمي. المتعذر الآن من أحد أهدافه الجنس وقد يكون هو الهدف الوحيد. العلة وراء الحظر غامضة وغير مفهومة .. عقلانيًا!! فمثل هذا الزواج لا يحمل بشاعة الاسترقاق الذي سلمت به الشريعة ومجدته في الدنيا والآخرة!!

إن الأخذ بالعولمة يعتمد في المقام الأول على كفالة حقوق الإنسان وتحقيق نتائجه المرجوة بإرادته الحرة. وفرض الحظر على إرادة إنسان ومنعه من تصرف لا يضر غيره لا يعني سوى أمر واحد وهو إهدار حقه والوقوف أمام عملاق العولمة. والمصير معروف. مثل هؤلاء البشر المتدنين مصيرهم السحق تحت أقدام العولمة ومن يريد ذلك؟! بل من يجرؤ على فعل ذلك.

حق الاختيار هذا يجب كفالته للجميع كل حسب مركزه القانوني لا يغير من هذا اختلاف المذهب أو العقيدة أو الجنس، الكل على قدم المساواة المرأة مثل الرجل والمسيحي له حقوق المسلم والسني له ما للشيعي من حقوق. الاختلاف فقط في حقوق وواجبات المركز الذي يشغله الفرد!! المهم هو كفالة حق الاختيار بمساواة مطلقة فلا يحجب عن أحد اختياره لصالح طرف آخر.

إن كراهية المجتمعات المتقدمة للتعصب العرقي أو الديني راجع إلى رفضه التفرقة بين الأفراد بسبب العقيدة أو الجنس أو النوع ويأتي هذا من منطلق تحقيق مبدأ المساواة. بعكس المجتمعات المتخلفة التي أصبح الإخلال

بالمساواة إحدى سماتها ولم يعد مثل هذا الإخلال يثير الغرابة والدهشة بعد أن تمحور من استثناء إلى قاعدة تحكم مسيرة المجتمع وتؤثر فيه بالسلب. من صور هذا الإخلال الزاعقة تحريم تعيين المرأة في بعض المناصب القيادية والقضاء رغم أنه يتم ترشيحها وزيرة ووكيلة. تناقض يثير الدهشة والعجب والتساؤل عن سلامة عقلية هؤلاء الذين يضربون على وتر هذا التحريم!! من تلك الصور أيضًا ما يثير التقزز والقرف والإحباط صورة توريث الوظائف الهامة في الخارجية والقضاء والشرطة والإعلام وكذا صورة الاعتداد بديانة معينة كشرط للتعيين في وظائف بعض الشركات الخاصة والعامة!! كل هذا يتم دون مراعاة لأولويات الكفاءة أو الخبرة بل الحادث هو قصر الوظائف المخصوصة على المخاصيص. فئة ترعرعت وكوشت وبسطت أجنحتها لا لشيء إلا لأنها من ذوات الأربع!!! الثراء والسلطة والوساطة والمحسوبية!!

كل ما ذكرناه يخل بحق الآخرين في الاختيار.. ويهدم قاعدة المساواة.. بل ويقلب المثلث الإنساني لتتحول قمته إلى قاعدة مهتزة بعد إهدار قاعدة "الحياة للأفضل" لتصبح الحياة

للأضعف الذي تسانده اللامشروعية. والنتيجة كما نراها على الساحة المحلية جيل هش مكمم ضعيف يقبض بتخلفه على مصائر بشر كل همه التوغل بالسلطة أو هز شجرتها لالتقاط ثمارها. عدوى انتقلت حتى إلى قاعدة اختيار الوزراء. فلم يعد اختيارهم قائمًا على أسباب موضوعية تنتمي إلى شجرة الكفاءة بل تدنت أسباب الاختيار لتصبح الهدايا الثمينة لمسئولين كبار ضمن هذه الأسباب. فوزير يتم اختياره لقيامه بإهداء آثار ثمينة لا يملكها، ومحافظ يتم ترقيته من محافظ أقاليم إلى محافظ مركزي لدفعه الثمن ذهبًا، ووزير يقدم دائمًا السبت حتى يجد الأحد يطلقون عليه المكروه الأكبر وحاصل على تقييم جينز القياسي في كم الكراهية الشعبية يعاد تعيينه رغم أنه حول محافظته إلى ماخور داخل الدولة هو الذي يبصم على تعيينات الموظفين الكبار بل ويضع إتاوة ويقبضها نقدا وعدًا لكل من يريد أن يتولى إحدى الوظائف الحساسة. أمثلة يمج منها القلم ويندي لها الجبين من آثارها المحسوسة هذا الفودة المحبوس في سجن طره الذي وجه في التحقيقات اتهامه بالرشوة واستغلال النفوذ الأكبر رؤوس في البلد ولم يستطيعوا ولن يستطيعوا معه شيئا لا تكذيبه ولا

محاكمته!! والمدهش حقا أن أحد تلك الرؤوس مازال ينتعل الوزارة رافعًا نعلها في وجه كل من طالب بكشحه وأنا واحد منهم!!

إن القاسم الأعظم المشترك لتطبيقات فعل الاختيار هو الرضاء.. فالإجبار والقسر يستولد الإنعدام ليصبح الفعل كأن لم يكن وتصمه آفة البطلان حتى ولو تم تحت حجة المصلحة العامة.. ذلك الثوب الفضفاض الذي يلجأ إليه كل مسئول يعن له الإخلال بمبدأ المساواة.. حتى هذا الرضاء ينعدم إذا شابه غش أو تدليس ليصبح في حكم الإجبار.. فزواج المغتصب من الفتاة المغتصبة زواج باطل لأن رضاءها شابه إكراه وهو صورة تعسفية لاستغلال الموقف وهنا تكمن فلسفة إلزام عقاب المغتصب حتى ولو تزوج بمن اغتصبها.

المشهد الثاني:

حرية الإنسان على أشيائه

هذه الحرية في مفهومنا للعولمة تعني كفالة حق الاختيار للشخص على أشيائه بالاستغلال أو بالاستعمال أو التصرف. يستوي في هذه الصور الثلاث المنقول أو العقار.. الشرط الأساسي في كفالة هذا الحق هو المشروعية. بل هي الأب الشرعي بدونها يسقط هذا الحق.. فلا يمكن كفالة هذا الحق للمرتشي أو السارق أو اللهيف ذلك أن حيازته حيازة غير مشروعة.

هذه الحرية يتعين معها قيام صاحب الشيء برعايته لكن ماذا لو أهمل رعايته أو الاهتمام به؟ هي حريته.. ربما يرى الضرر الواقع على الشيء فائدة محققة له وهو ما يمكن تسميته بحرية اللامبالاة. في الدول المتخلفة تتماثل العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكومين بتلك التي تربط صاحب الشيء بأشيائه. له عليهم حق الاستغلال والاستعمال والتصرف وفي المقابل عليه أن يرعاهم بتهيئة الظروف المناسبة لمعيشتهم.. لكنها أيضًا حريته أن يفعل ذلك أو لا يفعل.. وكان أن

تحولت حرية المحكومين لما يشبه حرية الأشياء.. تسيرها إرادة صاحبها وتتصرف فيها بأي نوع من أنواع التصرفات!!

إن قصة استرقاق الملكة "جيهان السادات" لفتاة نوبية بهرتها بجمالها السنوبري عندما كانت في زيارة لإحدى المدارس واحتجازها لها في قصر الحكم شهورًا قبل الإفراج عنها للاستمتاع بمرآها الفريد وعرضها على صويحباتها لتدل دلالة قاطعة على فكر هؤلاء الذين يحكمون في الدول المتخلفة وزوجاتهم فهم يتعاملون مع الناس على أنهم أشياء وهم أصحابها!! ومن يدري الآن!!

المشهد الثالث

حرية الإنسان على حركته:

أنا أتحرك فأنا إذن موجود.. الحركة حياة والسكون جمود.. الحركة هي العمل. هي النشاط هي البحث والاستقصاء، والسكون هو المرض. الآفة.. السرطان الذي يصيب حيوية الشعوب.. لهذا يجب السماح للإنسان بالحركة.. وليس مقصودًا بالحركة فقط حركة أعضاء الجسم بل أيضًا حركة العقل.. فلا يحبس داخل مقننات تشريعية أو دينية تمنع عنه ميزة الحركة بالإبداع والابتكار والتمرد..

فقوانين الطوارئ وكافة القوانين الاستثنائية ليست سوى قيود لحركة الإنسان العقلية تقتل فيه الإبداع وتكبل إرادته بالمستحيل وفي النهاية تعجزه عن الحركة فيتحول إلى شيء من الأشياء له صاحب يرعاه. والاجتماعات والتظاهرات والندوات وحرية تكوين الأحزاب وإنشاء الصحف والمؤسسات الإعلامية من إذاعة وتليفزيون ما هي إلا صور لديمقراطية الحركة تتواجد في ساحة الدول التي تحترم الإنسان وحقوقه. هذه الصور نادرًا ما تمارس في الأنظمة

الفاشية. فإذا ما عنَّ لزائر إحدى البلدان التعرف على شكل النظام وهويته ديمقراطي أم ديكتاتوري فعليه أن يرصد صور الحركة والمدى المسموح به لممارستها والتي تضم أيضًا بجانب حرية الحركة السياسية الحرية الاقتصادية والاجتماعية .

الاقتصادية تعتمد في المقام الأول على نظام الاقتصاد الحر دعامته الأساسية الفرد الإنسان حتى ولو أظلته شركات أو مؤسسات. بحيث يمكن القول إن تدخل الدولة تحت أي مسمى قطاع عام أو مشروعات حكومية يقيد ويكبل الحركة الاقتصادية ويعطل مسيرتها وما حدث للأنظمة الاشتراكية وتلك التي سارت على نهجها من انهيار اقتصادي لأكبر دليل على فشل الدولة في تبني المشروعات الاقتصادية وذلك يعود في المقام الأول إلى انعدام الحافز الفردي فضلاً عن القوانين واللوائح والروتين التي تحكم مسيرة مثل هذه المشروعات.. إن فلسفة تركيز المشروعات الاقتصادية في قبضة الأنظمة الفاشية الحاكمة تكمن في مدها بأسباب السلطة والقوة والمنعة وإضعاف الفرد حتى تستطيع فرض أسلوبها الديكتاتوري وهو في النهاية هدف سياسي.

يتبقى بعد ذلك حرية الحركة الاجتماعية وهي تتمثل في ممارسة كافة أشكال الحياة وخاصة حرية العمل.

إن للحركة قانون ثابت لا يتغير.. الأرض ومجموعة الكواكب والشموس والكائنات. محصلته النهائية إمداد الإنسان وباقي المخلوقات بأسباب البقاء ولو تغير هذا القانون لصبح الكون في حكم العدم.

إن هذا القانون الكوني الهائل نستمد منه فلسفة قانون حركتنا الذاتية حتى نظل على قيد الحياة لذلك فالضوابط والمحاذير الواردة عليه تشل فاعلية هذا القانون وتحول البشر إلى مجموعة من الدمى تحركها يد لاعب ماهر فتتحول الحركة الذاتية إلى ظاهرية مسطحة باعتمادها على عنصر خارجي ويؤدي هذا في النهاية إلى تعميق السلبية في صور الحركة الثلاثية الأبعاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فتنعدم المشاركة السياسية وتموت داخل الأنفس الروح الوطنية من خلال الإحساس بالاغتراب ويفقد الإنسان وعيه بقيمة العمل ويتقوقع الإبداع بعد أن يصيبه العقم وتتسيد معاني الحقد والكراهية وتتكون بؤر الإرهاب الصديدية في جسد المجتمع. ويدفع نمو هذه الظواهر السلبية النظام إلى

مزيد من التشبث بالقوانين الاستثنائية والمغالاة في جرعة القمع فتتزايد أعداد المعتقلين وتنتشر ظاهرة الأحكام العسكرية الصورية التي يعدم فيا المئات!! وفي النهاية تتحول الدولة إلى معسكرين الأول للسلطة خارج الأسلاك ويمسك بالعصي والهراوات والثاني للشعب والمغلوب على أمره المحاصر خلفها..

ولإلقاء مزيد من الضوء على الاعتقال الذي أصبح وسيلة الأنظمة الفاشية لتحجيم المعارضة أو لسحقها علينا أن نتعرف على الأسباب التي تدفع الحاكم إلى استلاك هذا الطريق.. الاعتقال في الأصل يؤخذ به لدرء خطر حلَّ على المجتمع باحتجاز شخص فترة محددة وهو حالة استثنائية لأن إيداع الشخص في سجن يتم بناء على قرار من وزير الأمن لا استنادا على حكم وشتان بين الاثنين، ففكرة الاعتقال في حد ذاتها خطيرة فهي تحرم الإنسان من حرية اختيار حركته بوضعه خلف الأسوار دون ما محاكمة أو إدانة لمجرد تخطيره بجهاز أمني ربما لاختلاف منهجه السياسي عن نظام الحكم وهو الغالب الأعم وربما لخطورته جنائيًا. ولهذه

الاستثنائية التي يتسم بها الاعتقال فالدول المتقدمة لا تلجأ إليه تحت أي مسمى ولأي سبب.

في بداية انقلابة عبد الناصر تم اعتقال خمسين ألف مواطن خلال ثمان وأربعين ساعة وكان هذا أحد مفاخر غزوة الزعيم البربري وحوارييه.. فالوقت قياسي والعدد قياسي!!

وبتحليل ظاهرة الاعتقال كإجراء وقائي نجد أنه أي الاعتقال جريمة بكل المقاييس يرتكبها النظام القائم على تنفيذه.. فما معنى أن يجد مواطن حر نفسه محبوسا داخل أربعة جدران لأنه يختلف مع النظام أو يناوئه أو يتعارض معه أو ليس هذا أقصى درجات الفاشية . إن القاعدة المأخوذ بها في القانون الجنائي "المتهم برئ حتى تثبت إدانته" تتناقض وإجراءات الاعتقال. فالمعتقل يحبس لمجرد الشبهات وهي قاعدة استثنائية مخالفة لنصوص الدستور والاعتقال يكون عناصر جريمة ضد مرتكبها باعتباره احتجازًا بلا وجه حق وتعذيبًا بلا مبرر مثل هذه الجريمة لا تسقط بالتقادم!!

الاعتقال = حجر على الحرية الشخصية = حرمان من الحركة = جريمة

إن هذه الجريمة البشعة ترتكب يوميًا.. بطلها ومنفذها جهابذة أجهزة وزارة الداخلية يحققون بتنفيذها بطولة يستحقون عنها نياشين ويحصلون بموجبها على رواتب وبدلات ومكافآت رغم أنها جريمة معاقب عليها بكل المقاييس!!

لقد احتوتني الدهشة وأنا أتابع بيانًا رصدته إحدى منظمات حقوق الإنسان في أوروبا مدرج فيه أعداد المعتقلين في مصر. في البداية لم أصدق ما قرأت فاتصلت بالمنظمة لأستطلع حقيقة الأمر. دخت وأنا أتساءل هل هذا معقول. إنه رقم مخيف.. مرعب.. مائة ألف معتقل في سجون مصر مائة ألف محبوس بلا جريمة.. الجريمة الوحيدة التي يجب أن يعاقب عليها أي وزير للأمن هو اعتقال هذا العدد الضخم. فلا عجب إذن أن تكتظ زنزانات السجون بقاطنيها فلا تتجاوز مسافة مبيت المسجون نصف متر.. أفضل منه كتكوت المزارع!!

المشهد الرابع

حرية الإنسان على فكره

أنا أفكر فأنا إذن موجود.. فالفكر أساس الكينونة لهذا فهو أسمى الاختيارات وأقدسها وكل الكائنات الحية تفكر بدرجات متفاوتة يستوي في هذا الإنس والحيوانات والأنبتة. لهذا فهي موجودة. تحت ظلاله أبدع الأدباء والشعراء والعلماء والرسل.

الفكر هو لحظة تأمل تنتهي إلى إبداع الذي هو فصيل من الاكتشاف في أحد فروع المعرفة المختلفة.. فن.. أدب.. علم.. يعقبه خلق.

الفكر = إبداع = خلق.

وكل من الإبداع أو الخلق لا يتم إلا من خلال الحرية.. وعلى هذا فالقيود هي آفة الفكر تتخلل خلاياه وتسرطنه وتقضي عليه. والفكر المتحرك هو ما يتم التعبير عنه بشتى صور التعبير "كتابية أو شفهية" أما الساكن الذي لم يخرج عن نطاق صاحبه فليس سوى خلجات أو إبهار داخلي.

والقاعدة التي تحكم الفكر هي حرية الإنسان في اختيار ما يعلن أو ما يقرأ من مادته سواء أكان في الأدب أو الفن أو العلم. وهي حرية بلا حدود سوى الالتزام بالصدق. والالتزام بالصدق قاعدة أخلاقية بحتة لكن إذا نتج عن الإخلال بها ضرر بالغير هنا فقط يمكن حسابه حساب الملكين!! عكس هذا تماما ما يحدث في مصر في الآونة الأخيرة. فقد شنت سواطير القمع والاضطهاد حملتها ضد المبدعين بأيدي جلاديها من المشرعين والقضاة حتى نزفت دماؤها بتعديل قانون الصحافة إلى الأسوء وتلك المحاكمات الهزلية لأصحاب البدائع من أدباء ومفكرين فأصدرت محاكم التفتيش بنوعيها جنائية وإدارية أحكامًا بالسجن والفصل من العمل والغرامة والتفريق الجسدي ضد فكر هؤلاء وصبت عليه جام غضب السلطة. وبات العقل الإبداعي في أزمة التمحور للعدمية والانطوائية والقوقعة وشل الخوف أرجاء الفكر الفسيح والمحاكم العليا المتمثلة في محكمة النقض والإدارية العليا والاستئناف تشارك في عرس ذبح الفكر وبوشم حريتنا بوشم أبدي لا يصم مضامين الأحكام فحسب بل العصر الذي يتسامح مع التطاول على الذات العليا للإنسان. التي هي ذات

الله!! وشهدنا عصرًا من عصور الإظلام الفكري بعد أن تولت السلطة إلى آلة قتل وتدمير لكل إبداع يجرؤ على تجاوز الخط الوهمي الذي رسمته قوانين غبية منعت أي مبدع من تجاوزه متعللة بسبحة الدين والسياسة والتقاليد العفنة والحقيقة مهما حاول البعض تبرير أحكام محاكم التفتيش بمقولات خايبة تبقى صامدة. إن قصد المنع يتجاوز كل هذا إلى الحفاظ على كراسي المسئولين من الاهتزاز تحت وطأة الفكر.. فهو يجلي العقول من الصدأ ويمد أمام البشر جسور الوعي المقطوعة ويهدم مضامين الفساد التي يتحصن خلفها كبراء ووزراء. فإذا حدث هذا فأين المفر؟!

وكان أن فرض حظر شديد على كل فكر يناوئ المفهومات العفنة السائدة أساس بلاوي البلد المسِيَّحة. وفي المقابل "برطع" الفكر الممالئ للسلطة واستطاع على مدار عصور ثلاثة أن يستولد فكرًا مخنثًا لا ينتمي بأي حال من الأحوال لفصيل الفكر الحقيقي انمسخ إلى شكل من الأشكال الفكرية الهلامية في مسطورات على صفحات الصحف والمجلات والكتب.. ونتعجب كيف وصل الحال بكبار الكتاب إلى هذا المستوى الرقيع (بالقاف وليس بالفاء) من ركاكة

المضامين وتفاهة المغزى.. المعظم منهم بدأ يستسهل تزويق الأخطاء ويستعذب النفاق ويستطعم مرارة معاناة البشر بكلم يُشتم منه رائحة النتن رغم محاولاتهم المتكررة رش الإسبراي فرائحته تفوق الوصاف وما من سبب يدعوهم لهذا إلا ضحالة الفكر وسعار التكبيش والتحويش واقتناء الشقق الفاخمة والسيارات الفارهة والمنتجعات العمرانية في أكتوبر ومراقيا.. وكلما تقاطر لعاب السعار هبطت المضامين أكثر وأكثر إلى ترسو الأمية الثقافية حتى يتواءم المكتوب مع الهدف المرسوم!!

وأصبح لدينا والحمد لله رصيد هائل من الفكر المخنث وجيل كامل من الشباب الصحافي تشبع من هذا التخنيث فاستكثر على نفسه أن يفهم الألف من كوز الذرة عند صياغته الجملة الخبرية.. جيل كامل من مخنثي الفكر في أعاظم صحفنا ومجلاتنا يؤمهم عملاء في النفاق والزلفى والنتيجة الحتمية هروب الفكر الجيد فالعملة الرديئة تطرد العملة الجيدة وكان أن أصيب الوعي المصري بل العربي بعدوى هذا الفكر المخنث وأربابه يفرضون على القارئ أقاويلهم الجوفاء بدءًا بكتابات متملقي الدين وانتهاء بإعجاز

رجب هذا الأخير الذي شيد بكتاباته الممالئة للسلطة سيفونا تنظف مياهه الجارية مخلفاتها.. يمسح بمناديل كلماته الورقية عرقها كلما أجهدها مشوار تعذيب البشر!! ما عاد في بلدي كلم طاهر بعد أن تلوث بكافة ملوثات مدارس الرجبية والنفعية وهذا ليس بغريب على مجتمع ضاقت فيه مساحة الحرية وكلما ضاقت اتسعت باحة النفاق والعكس صحيح.. شيد كبار الكتاب للكلمة حائطًا للمبكى يتباكى أمامه الناس على ما آل إليه حال الصحافة من تردي وانفصام عن الواقع وكأن الصحف تصدر في بلاد أخرى ينعم فيها الناس بالحرية والديمقراطية والسعادة والمال الوفير. باتت الصحافة طبقية تعبر فقط عن آمال وأحلام رجال السلطة أما هؤلاء الذين تشويهم أفران الفقر والحاجة فليسو في وطننا. وأصبح للصحف ثلاث اتجاهات فكرية ثناء ورثاء وإعلان. نشرة أخبار أول صفحة يتصدرها الرئيس ثم قرينته فوزير الإعلام ثم بقية الوزراء يلي هذا العسكر ومناوراتهم ثم الحوادث وأفاعيل الشرطة في الأقسام.. ثلاث صحف قومية متطابقة تمامًا في المضمون والمفهوم مع اختلاف طفيف في التناول ثلاثتها تتسابق لتصبح أبواقًا تردد أغاني سخيفة عن

الديمقراطية الفخيمة وأسخف منها عن الحرية التي يستمتع الناس بقطف ثمارها الغضة!! وعنق الزجاجة الاقتصادية الممزلق وقد بدأنا نتزحلق منها ربما إلى ضياع ربما إلى انهيار. ربما إلى الانبهار بنظام جديد لا هو ديمقراطي ولا هو فاشيستي لقيط لا أب ولا أم وأيضًا مسخ وما من سبب يدعو إلى هذا سوى الحرص كل الحرص على بقاء الحال على ما هو عليه.. قشرة بيضة هشة.. الخوف كل الخوف أن تدوسها قدم حرة.. رغم أن هذا لن يحدث.. فهي مجرد مخاوف المنتفعين أن تزول عنهم النفخة الكدابة.. ونتيجة لهذا فكل شيء تمام وعلى ما يرام.. لا تغيير فيه ولا تبديل باقي بحذافيره.. الدستور الاشتراكي بكل عيوبه وثقوبه كل ثقب وثقب يفوّت جمل.. المجالس التشريعية بجلال قدر أخطائها وقد استشرت اللصوصية بين أعضائها يحتمون وراء الحصانة المقدسة.. مكبرين مهللين في كل مناسبة باسم القائد المظفر وبعبارة "المجلس سيد قراره".. لا يعلمون أن عظمة التزوير في إقرار المجلس له، وأن جهل وجهالة وأمية أكثر الأعضاء وسامًا على صدره!! لا يعلمون أن أبطن البشر قرقرت من كثرة الكذب والنفاق.. وما أكثر الكذب. وزراء

شاخ مقامهم وانعدمت قدراتهم فما عادوا يقدمون سوى التعازي للناس في صفحة الحوادث اليومية.. قطارات ومبان مهدومة وكباري محترقة وبشر مقتول.. مقتول والفاعل سنافور المحطة!!

وكان أن فقد الناس نتيجة القمع والقسر والخوف حرية الحلم التي يستتبعها حرية التصور. من همه ضاع حلمه.. ونتيجة لهذا ضاقت باحة الإلهام وانخفض أداء الإبداع إلى أسفل سافلين بعد أن فقد الإنسان القدرة على الحلم.. ما يحلمون به هو الكوابيس.. شظف العيش كثرة الولده.. فقدان الأمل.. سكة البطالة وقد طال مداها ووسع عرضها.. فأصبحت مثل النار طولها السموات والأرض!! عكس الجنة وبفقد الإنسان ميزة التصور تدني لما هو أدنى من الكلب.. فقد القدرة على الإحساس بالخطر. تكلست إرادته. مات إلهامه.. فقد وعيه.

النسبية والتناسب في تحقيق عولمة الحرية

المثل القائل إذا توحدت المشارب بارت البضاعة يمكن تطبيقه على كل ما يتصل بحياة البشر اقتصاديًا وسياسيًا وعلميًا.. فالتوحد أو التشابه أو التطابق وكلها تندرج تحت معنى واحد تعني بوار الاقتصاد أو السياسة أو العلم.. لذلك كان الاختلاف سمة من سمات التطور.. وما نقصده هنا اختلاف المفاهيم.. فهو الذي يشعل روح التنافس والصراع والتوتر ويخلق التجديد حتى لا تتحول المفاهيم إلى صور كربونية متكررة باهتة.

إن انعدام القدرة أو الإرادة على الاختلاف لدى مجاميع الناس وعجزهم عن استلاك مناهج متعددة ورفضهم شرود فكر إنساني وانسلاخه عن السائد من موروثات المسلمات هي بداية انهيار أي شعب وتحوله إلى مجتمع بدائي جاهل غبي نستعيد معه ذكرى مجتمع قريش عندما انتهج الرسول نهجًا يخالف بعض مأثورات وعقائد قومه ليس كلها.. بمناداته بالإله الواحد وتنكره لتعدد الآلهة السائدة آنذاك. فالمجتمع

الذي يقاوم إرهاصات الفكر الجديد حتى ولو بلغ شطوطه تقليب جدوى صفحات المسلمات مجتمع أمي كافر بكل قيم الحضارة والتحضر منغلق على نفسه في مواجهة المستحدثات العولمية وهو يستحلب أفيون التخلف خرافة وغيبية يمتهن بها العقل الجماعي.. مثل هذا المجتمع يمر بالاحتضارة الأخيرة وبالتالي فإن أي كاتب يملك ذرة من حياء ويستشعر هذه الاحتضارة دون أن يشعل بسن قله شمعة يضئ بها وجه الظلمات لا يستحق البقاء على قيد الحياة.. لذلك كان التكاتف بين أصحاب الفكر في مرحلة ما قبل الاحتضارة واجبًا قوميًا يشعل الخامد من النيران.. يؤججها.. يسلط على الجروح المتقيحة لسان من لهب يطهرها حتى يشفى الوطن من آلامه وأحزانه ويستعيد نشاطه وحيويته وينهض من عثرته التي تقلل الجماعة الحاكمية من شأنها وتهون من حجمها وهي تخفي ما تخفي من المفاسد فتحاول تصوير فيل الفساد الضخم بأنه نملة تافهة مصيرها طال الوقت أم قصر إلى زوال أما الحقيقة فأمر آخر تمامًا.. فجيعة الوطن ضخمة والمطلوب يتجاوز قدرات وتضحيات كاتب واحد أو حتى تضحيات قلة..

لكن ما صلة اختلاف المشارب بعنوان الفصل "النسبية والتناسب" النسبية تعني الغير مطلق. فكل ما يواجه الإنسان في الحياة نسبي يختلف من شخص لآخر كل حسب تنويعاته البشرية أو الجينية.. والنسبية هنا تنصب على الحرية لكن كيف الحرية نسبية؟!

النسبية تعني تناسب نطاق دائرة الحرية مع المركز القانوني للفرد فيتسع نطاقها أو يتلقص حسب هذا المركز القانوني والأمثلة كثيرة فنطاق دائرة الحرية للمسجون غيره للحر. الأول غير كامل الأهلية يحرم من مباشرة حقوقه الأساسية ومنها السياسية بعكس الثاني الذي يمارس كل حقوق الحر.. والقاضي أمير العدل يملك حصانة قضائية خلاف غيره من طبقة الكناسين والزبالين لكل منهما نطاق لحريته يختلف عن الآخر وحقوقه وواجباته من حيث الكم والكيف يحدهها المركز القانوني الذي يشغله نستخلص من هذا أن الحرية لا تعني حقوقا فقط بل يقابلها واجبات لأن عكس هذا يعني الفوضى لهذا يتسع نطاق الحقوق كلما زادت الواجبات الملقاة على عاتق شاغل المركز.. فنطاق حرية القاضي يتسع عن مثيله لدى الزبال لكن هذا يتم بمقابل

"العدل" فإذا أخل القاضي بواجب العدل سقطت عنه فورا كل حقوقه التي خولها له إحلاله في مركز القاضي بل وأكثر من هذا يتعرى من ثوب هذا المركز بإقالته أو تنحيته.

وما ينطبق على القاضي يمكن تطبيقه على كافة الفئات بداية من الخفير إلى الوزير وانتهاء بالحاكم أي قاعدة توازي الحق مع الواجب وتلازمهما.. فلا حق بدون واجب ولا واجب بدون حق هذا هو التلازم أما التوازي فينصب على المساواة بين الحق وأداء الواجب فلا يطغي أحدهما على الآخر بمعنى أن اتساع نطاق دائرة الحق أو تضييقه مرتبط بعبء المسئولية فمسئولية الحاكم الرئاسية أضخم من مثيلتها لدى الوزير لهذا يجب أن تتسع دائرة حقوقه أكثر بكثير من نطاق دائرة حقوق الوزير.. لكن نطاق دائرة هذا الحق يجب ألا يتجاوز بأي حال من الأحوال ما هو ضروري لممارسة المسئولية الملقاة على عاتق صاحبها لأن توسيع دائرة الحق عن مثيله في دائرة الالتزام يترتب عليه الإخلال بقاعدة توازي الحق مع الواجب وما يستتبعه ذلك من إساءة استعمال السلطة واستشراء الفساد..

وهنا تكمن فلسفة مشروعية إسقاط المسئول أو تنحية الحاكم عندما يستغل دائرة الحقوق التي منحها الدستور لمركزه لتحقيق الواجبات الملقاة على عاتق هذا المركز فقط في تحقيق مآرب شخصية له أو لأحد أفراد أسرته. وحكمة ذلك أن الدستور لم يكفل تلك الحقوق تغزلاً فيه أو في سواد عيونه أو تيمناً بشخصه المبارك بل كفلها له حتى يتمكن من ممارسة سلطات المركز لتحقيق الواجبات التي أوجبتها نصوصه على شاغله. لذلك يجب أن لا نخلط بين المركز وشاغله فهما مختلفان تماما فالمركز معنوي ساكن دائم بديمومة تشريعه يتمثل في مجاميع من الحقوق والواجبات بخلاف شاغله الشخص الطبيعي المتحرك المتغير.

من هذا الاختلاف نستطيع القول بشرعية إسقاط شخص الحاكم بالقوة في الأحوال التي ينحرف عن هدف المركز الذي يشغله بالإخلال بالتزاماته إذا لم تسعف الشرعية الدستورية إقالته.. لكن متى تتوفر تلك الشرعية لإسقاط الحاكم؟! إن تنصيب الحاكم يتم بناء على اتفاق صريح إذا انتخبته جموع الشعب.. وبناء على تعاقد ضمني إذا نصبته بالقوة إحدى القوة المؤثرة.. الجيش أو فئة عرقية أو جماعة

مسلحة في الحالة الأولى يحق لجموع الناخبين الممثلة في المجالس المنتخبة إقصاؤه من خلال الشرعية الدستورية وفي الحالة الثانية يتم إسقاطه بالقوة عن طريق الثورة كما حدث مع شاه إيران أو بالتظاهرات كما في حالة سوهارتو أندونيسيا وهذا مدخلنا للحديث عن شرعية إسقاط الحكام العرب!!

بدون أن نتوارى خلف أقنعة الخديعة والكذب علينا بالاعتراف أن أعاظم الحكام العرب إما أفرزتهم أنظمة ملكية أو فرضتهم أنظمة عسكرية أو فاشية لا يوجد حاكم عربي تولى الحكم من خلال نظام ديمقراطي كتلك الأنظمة التي تتخايل كالطاووس في حديقة الحرية، بل هو ينصب إما ملكًا بالتوريث أو رئيسا بالتعيين من قبل جماعة مؤثرة عسكرية أو عرقية، في الحالتين يتولى الحاكم السلطة بإرادة منفردة لا دخل للشعب فيها بحيث يمكن القول إن كلا النظامين متقاربان في الجوهر والمضمون.. صورة متشابهة في الكليات وإن اختلفت في بعض الجزئيات فهي كلها نظم ملكية حتى ولو كانت جمهورية. قاسمها المشترك حكم الفرد الواحد يسانده في نظم الحكم الرئاسية إحدى القوى المؤثرة وفي

الملكية ركائزها التاريخية.. في الحالتين تغيب إرادة الشعب فهو في جانب والحاكم في جانب آخر. حتى لقد قيل أثناء هجمة أمريكا الشرسة على العراق أن البلاد العربية تمارس الديمقراطية بأسلوب فعال أكثر من أمريكا ذاتها والدليل على ذلك اختلاف الحكومات في الرأي مع شعوبها! نكتة وأي نكتة أن يجهل الحكام لغة شعوبهم. أبجديات مطالبهم واحتياجاتهم.. أن يتعذر عليهم حل شفرة معاناتهم فلغة الشعوب تحتاج إلى فهامة.. والفهامة مستشارون فقدوا حس الاستقبال من خلال انعدام الصلة بين المرسل "الشعوب" والمستقبل "المستشارون" وبات الحاكم لا يمثل سوى نفسه فقط. يعبر عن طموحاته الشخصية الذاتية بتلميع أحد أبنائه ليخلفه في الحكم. وتحولت البلد إلى تكية.. الحاكم فيها ناظر الوقف فالتغير يتم إما بالموت رباني وإما بالموت اغتيالا لا يوجد طريق ثالث.

إن ألف باء الديموقراطية في النظم الرئاسية هي تحديد مدة الرئاسة بولاية واحدة أو على أكثر تقدير بولايتين وفي النظم الملكية "الملك يملك ولا يحكم" بغير هذا فهي الديكتاتورية الأصلية والفاشية المتأصلة. والسؤال الذي

يطرح نفسه على الساحة وبشدة إذا كانت الشعوب العربية ترتبط بحكامها بتعاقد ضمني ولا تسعفها الشرعية الدستورية لإقالتهم فهل يحق لتلك الشعوب المغلوبة على أمرها إذا ما أخفق الحكام في تحقيق قاعدة توازي الحق مع الواجب هل يحق لهم إسقاطهم بالقوة.

قبل الإجابة على هذا التساؤل الخطير والذي قد تهز إجابته عروش وكروش فإننا نرفض في البداية الوصاية على الشعوب العربية أو فرض الحماية عليها لا من الخارج ولا من الداخل على يد أحد أبنائها تحت حجة أنها شعوب قاصرة في حاجة إلى من يأخذ بيدها حتى لا تحدث فوضى لا يعلم نتائجها غير الله من خلال اعتبارات عدة:

أولاً: الأنظمة العربية باتت أنظمة هشة ضعيفة متآكلة البنيان في حاجة ماسة إلى عَمْرة تجدد وتغير وتصلح حتى تدور سيارة التغيير.. وهذا لن يحدث إلا باستبدال الصمامات التالفة بأخرى جديدة تصنعها أيادي الحرية.

ثانيًا: أن الحكام بتكوينهم الديكتاتوري.. بعضهم عسكر والباقي ملوك يرفضون بشدة التغيير السلمي ويقاومون الكلمة الحرة والرأي المستنير بردود أفعال عنيفة وصلت إلى حد

السجن والجلد والفصل للمبدعين وصناع الكلمة.. ويمارسون أسلوب الترهيب والتخويف بأبشع صوره بدءًا من الاعتقال وانتهاء بالقتل لفصائل المعارضة حفاظًا على الكرسي.. حتى أصبح هذا الكرسي هو شاغلهم الأكبر.. أهم لديهم من حرية الشعب ذاته بل في مقدمة أولوياتهم وأحد رموزهم.. تنكروا للحرية خوفًا على الكرسي منها!!

ثالثًا: إن فئة الأمراء والأثرياء والمنتفعين والتي تذكرنا بمثيلتها في أوربا أيام القرون الوسطى هي الفئة الوحيدة المستفيدة من انفصام الشعوب عن حكامها فهي تُطْعم الشْهد بينما الأغلبية الكاسحة تأكل من وسخ المداس أفرادًا أو دولاً.

رابعًا: إن الحركات المستنيرة والتي غالبًا ما يحركها فكر كاتب يخرج به عن المألوف يتواطأ على كبتها كتاب ومفكري السلطة الهشاش من المنتفعين ببقاء الأنظمة على حالها.

خامسًا: إن حركة الجمعيات المدنية الأهلية في اتجاه تحرير الإنسان حركة وهمية بعد أن غلت السلطة يدها عن أداء رسالته بفرض القيود الرقابية والروتينية والأمنية بل استطاعت تحويل بعضها إلى أدوات لقياس الرأي العام.

سادسًا: إن التعددية التي نراها على الساحة السياسية في بعض الأنظمة العربية ليست سوى تعددية صورية لاستيفاء الشكل العام أمام الرأي العام الخارجي الذي لا يجهل الحقيقة المرة. والذي يعرف تمام المعرفة أن هذه الأنظمة فاشستية ديكتاتورية تنهض في إدارتها على فرد أو بعض أفراد.

سابعا: إن الحكام العرب بلا استثناء يستغلون سلطات مركزهم القانوني الذي يشغلونه في تحقيق مآرب شخصية لهم ولأولادهم ولذويهم أو للطبقة التي ينتمون لها.

بعد كل هذا العرض المسبب يستطيع القارئ أن يجيب على التساؤل الذي طرحناه في البداية عن شرعية إسقاط أي حاكم عربي بالقوة يخفق في تنفيذ قاعدة توازي الحق مع الواجب!! شتان ما يحدث على مستوى العالم العربي وبين الأنظمة الغربية فعندما نفاجأ بمحاكمة كلينتون لأنه حنث في القسم وضلل العدالة بينما معظم الحكام العرب في غيهم يضللون شعوبهم كل يوم وكل دقيقة ويكذبون كذبًا فاحشاً ويقتلون في الأنفس الضمير ويعذبون الحياة ويقضون على كل أمل للزهور الغضة أن تتفتح في حلم جميل ولا تتحرك

فيهم ذرة ندم على أفعالهم التي تحطم سفينة التغيير فقد أجهضوا كل الحلول السلمية الممكنة.

إن كلينتون حوكم لأنه أخل بقاعدة التوازي بين الحق والواجب بالحنث في القسم ومحاولة تضليل العدالة بعد أن استغل مركزه القانوني كرئيس دولة في تحقيق مآرب النشوة الجنسية على حشية أريكة الرئاسة ولهذا يكون قد انحرف بالسلطة باستغلاله حقوق مركزه الرئاسي في تحقيق ميزات لم يقررها له القانون "الاستمتاع بالجنس" وبهذا يكون قد تجاوز الحق الممنوح له وهو يكبكب على فستان مونيكا!! وهذا في حد ذاته يمثل إخلال جسيمًا لشروط شغل المركز ومن ثم يجب إسقاطه وعزله فلو كان كلينتون قد التقى بالآنسة مونيكا وهل هي حقًا آنسة؟! في إحدى بيوت الدعارة أو في شقة مفروشة في حي مانهاتن أو على ناصية شارع البيت الأبيض فلا مجال لاتهامه بالإخلال بقاعدة توازي الحق والواجب لا لسبب لأنه مارس العفة بعيدا عن نطاق المركز الذي يشغله.. أي مارس بالطريقة الكلينتونية وليس الرئاسية أي بشخصه وليس بصفته!!

القاعدة الجوهرية أو الذهبية للحرية هي "حتى تمارس الحرية اسمح لغيرك بممارستها" وهذا يعني أن لا تتجاوز في استعمال حريتك إلى الحد الذي تعوق غيرك في استعمالها ولكن كيف يتأتى هذا؟ بتناسب دائرة نطاق الحرية مع المركز القانوني للفرد بحيث لا يستغل حريته في الإضرار بحرية الغير وهو ما تحدثنا عنه في موضوع توازي الحق والواجب لكن مع هذا يتبقى لدينا قضايا أخرى لابد من حسمها. أولها التناسب ما بين حرية الحاكم والفرد بالتزام كل منهما نطاق حريته فلا تطغى أحدهما على الأخرى.. وهذا ما يحدث عادة في حالة اعتداء الحاكم على حرية فرد معين باعتقاله أو بالإغارة على حريته الشخصية، وثانيها التناسب بين حرية فرد وأخر فلا تطغى دائرة حقوق أيهما على الآخر.. بمعنى استقطاع مساحة من حرية فرد لصالح فرد آخر فتزداد مساحة حريته على حساب حرية الآخر.

يتبقى أخيرا التناسب بين مجموع الأفراد والحاكم أي بين مجاميع حريات الأفراد وحرية الحاكم.. أي حرية الشعب في مقابل حرية الحاكم وهي قضية معرقبة. ذلك أنه إذا تجاوز الحاكم بحريته حدود التعاقد الصريح أو الضمني بينه

وبين الشعب يتحول الحكم إلى ديكتاتوري أو فاشيستي وهذا عادة ما يحدث في الأنظمة العسكرية أي تلك التي تحكمها مؤسسات عسكرية وتفرز أحد قادتها لحكم الشعب أو تلك الأنظمة المملوكية التي يتولى فيها الحكم السادة الملوك والأمراء وطلايلهم مثل كثير من الأنظمة العربية الراكدة.. لا مجال في مثل تلك الأنظمة سواء كانت عسكرية فاشية أم ملكية ديكتاتورية لإعطاء جرعة من الحرية للشعوب تشبع نهمها في إدارة شئونها بل هي دائمًا مكبلة بقيود الفكر العسكري المحدود أو الملكي الشمولي المتعالي.. هذه الأنظمة طال الوقت أم قصر في طريقها إلى الانحسار تمامًا مثل ما حدث في أوربا عندما تحولت الملكية إلى مجرد مرموز لقاعدة الملك يملك ولا يحكم في انجلترا أعرق الدول الملكية.. في أسبانيا.. هولندا.. الدنمرك ملوك.. صورة فقط.. يافطة جميلة تكللها زهور الحرية.. المهم دعا الوالدين!!

مصير هذه الأنظمة العربية الملكية المتهالكة إما التحول بإرادة ملوكها إلى أنظمة تظلها الحرية.. الملك فيها مجرد رمز أو إلى جهنم الثورات وبئس المصير عندما تشوى

أجساد الملوك على نار هادية لا ينقذهم منها تيجان أو فلوس بترول.. سيعلقونهم من أرجلهم.. ذبائح في أعياد الحرية القريبة والتي بدأت تدق أبواب حصون الديكتاتورية بالانفصام التام ما بين الفئة الحاكمة وما بين الشعوب التي ترزح تحت نير الظلم والطغيان وقد ظهر ذلك جليًا خلال أزمة ضرب العراق الأخيرة.. حتى قال البعض إن الملوك تحكم الأرض والمباني وليس البشر.. فالبشر في وادي آخر تمامًا بأحلامهم وأمانيهم بعيدًا جدًا عما يشغل حاكمهم. الاستمساك بكرسي العرش حتى آخر قطرة من دمائه فلا يعزل أو يتنحى حتى ولو فقد القدرة على الحكم بإصابته بأمراض الشيخوخة أو السرطان أو العجز الكلي أو الجزئي ويدفع في مقابل استبقائه ثروات شعبه لمن يؤمّن له تحقيق تلك غايته النبيلة!! وليس ذلك قاصرًا على الملوك وحدهم بل انتقلت عدواها إلى الرؤساء بشكل صارخ يثير التساؤلات عن جدوى التشبث بالحكم لمدد تتجاوز الثلاثين عامًا. هل نضبت الحياة السياسية فما عادت تفرز الأفضل.. ألا يوجد في الشعوب العربية فرد يستطيع الاضطلاع بمسئولية الحكم خلاف الحاكم الذي ذهب فكره ووهن عقله وارتخت عضلات

إرادته في التغيير.. فلا يعي سوى الجلوس على المرحاض ثلاث مرات يوميًا ليتخلص من نفاياته على رأس الشعب المستكينة داخل السلطانية!! إن التشبث بالحكم هذه السنوات الطوال ليس له مبرر إلا الحفاظ على السلطة والخوف من كشف المفاسد وثقوب الحكم بعد الرحيل.. رغم أن ما فات مات.. فالشعوب العربية مسالمة من كثرة ما عانت من محن.. فليرحل من يريد من الحكام فهي لن تفتح صفحات الماضي الكئيب.. كل ما في الأمر أن الناس زهقت من الحكم المؤبد.. باتت تهفو إلى التغيير بعد سنوات الحرية العجاف.

إن قاعدة الموت الملكية التي يتشبث بها الرؤساء تشبهًا بالسادة الملوك تطبق بحذافيرها على الرؤساء العرب.. نادرًا ما يترك حاكم عربي الحكم باختياره حتى لقد قيل في مجال النكتة أن أمنية الملوك أن يكونوا رؤساء!! في مصر أفرز النظام العسكري حاكمين تركا الحكم مرغمين بالموت.. في سوريا الآن رجل يحكمها لن يطلق صراح السلطة إلا بالوفاة. في ليبيا يسطر حاكمها سنوات حكم فيها أكثر من عمر الإمام المخلوع وبعد أن يموت سينصب أعوانه من

جثته حاكمًا عامًا على جماهيرية الأحياء الأموات. تونس الخضرا.. الجزائر الحمرا. السودان السودا. مصر البيضا. حكام أفرزتهم أنظمة عسكرية كل هذه حقائق لا يمكن التغاضي عنها لكن يبقى سؤال. هل يمكن أن يصبح الشعب هو المعتدي على قاعدة توازي الحق والواجب بينه وبين الحاكم.. فيتجاوز نطاق حريته ليستقطع مساحة من سلطات الحاكم وهو ما يمكن تسميته بطغيان الشعب.. ولم لا. وهذا عادة ما يحدث في ظل ضعف الأنظمة الحاكمة لكن غالبًا ما ينتهي مثل هذا الطغيان إلى نوع من الفوضى.

العلمانية

وهو ضلع مثلث الحرية الأخير.. لكن ماذا يقصد بالعلمانية الذي يسميه المستمسكون بمنهج الدين "العميانية" من أين اشتق هذا اللفظ.. هل من العلم "المختبر والأنبوب" أم من العالمية "الكون"، أم من العلم بالشيء "المعرفة"، أم من التعلم "أسلوب المعرفة"، أم من العالم "الكرة الأرضية" لا أحد يستطيع التحديد على وجه الدقة. ربما يقصد بها المعاني كلها.. لكن المؤكد أن هذا اللفظ تشيع للدلالة على معكوس الدين. مقصود به دلالة دنيوية. والدنيوية تعني الواقع الأرضي وليس الغيبي.. فالدين غيبي حتى عندما تتصل أحكامه بالدنيا الفانية!! فالدين عقيدة عمادها الالتزام وسيلتها الإجبار من خلال أداء تعليمات وطقوس من جانب واحد الإثابة فيها مؤجلة إلى ما بعد الموت.. والقانون صيغة علمانية لتحقيق التوازن الدنيوي أساسه الالتزام بعدم الإضرار بالغير فإذا حدث يرتب التشريع الجنائي عقوبة على فعل الإضرار تتفاوت ما بين الغرامة إلى الحبس إلى الإعدام.

بمعنى آخر العلمانية عمادها الحرية أما الدين فعماده الإجبار.. لا اختيار في الدين.. ولهذا السبب تمثل العلمانية لا "للدين" قاعدة مثلث الحرية..

الالتزام والحرية

الإنسان نظرية هندسية يجمع فيها بين الالتزام والحق.. الالتزام مسئولية والحق رخصة تتيح لصاحبها الحق في الحصول على ميزات حتى يستطيع القيام بتبعات هذه المسئولية فإذا غاب عنه كل من المسئولية والحق فهو ميت حتى ولو كان حيًا.. سيبنا بقى من الأفكار الشايعة.. الإنسان جسد وروح فقد زهدنا مناقشتها وتعالوا معنا لكلمة سواء.. إن الفكر العلمي الواقعي يفرض علينا تصورًا لا فكاك منه.. الإنسان ليس سوى مجموعة من الالتزامات تقابلها مجاميع من الحقوق.. هذا هو الإنسان ليس مجرد جسد مهمته تحقيق رغباته من أطعمة وأشربة وجنس وغرائز بل قبل هذا مجموعة معاني.. من هذا التحليل الغامض نقفز إلى شرح ماهية الحق والالتزام.. الحق ميزة. والالتزام واجب. ومن خلال تطبيق قاعدة الحق والالتزام تتولد أمور بديهية:

أولا: لا يوجد حق بلا التزام بدون حق أي أن تقرير الميزات مرتبط بتنفيذ الالتزامات.

ثانيًا: يوجد ارتباط مشيمي بين الالتزام والحق يصل إلى درجة التلاحم بمعنى أنه يلزم لتنفيذ الالتزام وجود دائرة للحقوق تتحرك داخلها إرادة الفرد.

ثالثًا: كلما وسعت دائرة الالتزام وسعت دائرة الحقوق والعكس صحيح إذا ما ضاقت واستحكمت حلقاتها. أي أن التناسب الحجمي بين الالتزامات والحقوق إحدى تلك البديهيات.

رابعًا: حتى يمارس الإنسان مسئولياته لابد وأن يتوفر لديه قدر من الحرية. فانعدام الحرية يعدم المسئولية.

وهذه القاعدة.. قاعدة توازي الحق والواجب. تمثل غريزة حب الحياة.. وفرق كبير بين غريزة حب الحياة وحب البقاء.. الأخيرة دعامتها الصراع من أجل البقاء.. الدوام الكينونة.. أما الأولى فالصراع هدفه الاستمتاع وهي تعني التطريب..

غريزة حب الحياة ليس حربًا ضروسًا تنتهي بفوز الأقوى. بل هي منافسة رائعة في تطوير منهج الحياة للأحسن للأفضل.. وليس ساحتها غابة تتحارب فيها الفصائل حربًا لا هوادة فيها من أجل البقاء بل ساحتها فطرية الفن

والطرب والمرأة والسلطة والمال هدفها الاستمتاع بكل ما في الحياة من متع وليس الموت أبدًا من ضمن أهدافها. حب البقاء هو كيف تبقى حيا، أم حب الحياة فهو كيف تحيا؟

إذا نظرنا إلى الإنسان من أول نشأته، ميلاده حتى هدمه "موته" نجد أنه حقل لقوانين ثابتة لا تتغير.. في طعامه.. شرابه.. جنسه.. عمل أجهزته.. كبد ومخ وكلاوي وطحال ومعدة ومصارين.. قوانين لا تختلف من إنسان لآخر هذه القوانين تعمل طبقًا لنظرية الحق والالتزام بل وتطبق بصرامة فعندما يلتهم الجسد الطعام "حق" عليه أن يهضمه "واجب"، وعندما تتنفس الهواء "حق" على الرئتين أن تنقيه من ثاني أكسيد الكربون "واجب"، كلها عمليات فسيولوجية تدور داخل حتمية تطبيق نظرية الحق والواجب يؤدي القصور في إحداها حدوث خلل.. هذه النظرية يجب تطبيقها على ديناميكية الشعوب في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وصور الإخلال بها تنحصر في:

- الحق أكبر من الالتزام = خلل
- الالتزام أكبر من الحق = خلل

إعمال هذه القاعدة بصرامة على أي مسئول هي بمثابة ميزان حسابي لمحاسبته عن أي تقصير عندما يحصل على حقوق أكبر بكثير من تلك اللازمة لممارسة واجبه.. هذه الحقوق لا تقتصر على الأجر بل تشمل كل الميزات التي يحصل عليها الشخص سواء أكانت [ميزاتًا] مادية أو معنوية.. هذه القاعدة قاعدة التوازي بين الحق والواجب يمكن تطبيقها بدقة على سلطات الحاكم.. المعروف والمتداول في الدول المتخلفة وخاصة الدول العربية العريقة في الديكتاتورية والفاشية.. إن الحاكم له سلطات واسعة تقارب سلطة الإله على البشر، ودائرة الحق لديه أوسع بكثير جدًا من دائرة الواجب.. لهذا يجب أن تستمد دساتير مثل هذه البلاد المتخلفة فلسفتها من هذه القاعدة.. توازي الحق والواجب وأن تطبق بحرفية شديدة إذا كانت حقًا هذه المجتمعات تريد الأفضل.

إن أحد أسبابا التطرف هو إهمال المجتمع لقضية توازي الحق مع الواجب وعدم مراعاتها.. وهو أيضًا سبب ديناميكية الفساد وتطاوله بيده على كثير من قيمنا.. كيف؟ يوجد فرضان للإخلال بنظرية الحق والواجب:

١- إذا أعطى الإنسان أكثر مما يأخذ.

٢- إذا أخذ الإنسان أكثر مما يعطي.

ناتج الفرض الأول إحباط والثاني إفساد.. إنني لا أفهم أن يتضور العامل وأسرته جوعًا وهو يعمل ثمان ساعات بينما الرأسمالي يعيش أقصى حدود البذخ.. الأول أدى إلى التزام العمل ولم يحصل على مقابل مجزي، والثاني لم يفعل شيئًا سوى التسكع على شواطئ الريفيرا وحمامات السباحة..

إن بداية أي ثورة هو الإحساس بالإحباط نتيجة غيبة الأمان والطمأنينة وافتقاد العدل.. هذا الإحباط نتاج احتراق داخلي للإنسان لما يصيبه من ظلم فما يأخذه تافه بالمقابل لما يعطيه أو لما يلهفه غيره من اللصوص والحرامية وقطاع الطرق ونهر التمرد له شطان. أحدهما: سلبي وهو أضعف أنواع التمرد. ويدعو فيه المتمرد على الظالم أن يقصف الله عمره.. وصوره كثيرة.. اللامبالاة.. الامتناع عن المشاركة في الحياة العامة.. الامتناع عن العمل كليًا أو جزئيًا.. أما الإيجابي فيعلن فيه المتمرد احتجاجه بالمظاهرات.. باللجوء للعنف.. بالتطرف وأخيرًا الثورة.

وما يحدث في بلدنا صورة باهتة للتمرد السلبي وناقصة للتمرد الإيجابي. التمرد السلبي الذي أغرق دواوين الحكومة ومصالحها وشركاتها باللامبالاة.. ديدنهم تخريب الإنسان والاقتصاد شعارهم علي وعلى أعدائي.. وصورة التطرف التي نراها كل يوم تنزف الدم المصري ليست إلا صورة حمراء للتمرد. أبدًا ليس ما نعانيه اليوم هو الدعوة للدين.. بل هو نوع من التمرد ضد طغيان الحكومة ارتدي ثوب الدين.. لم يكن أمامه ثوب آخر سواه.

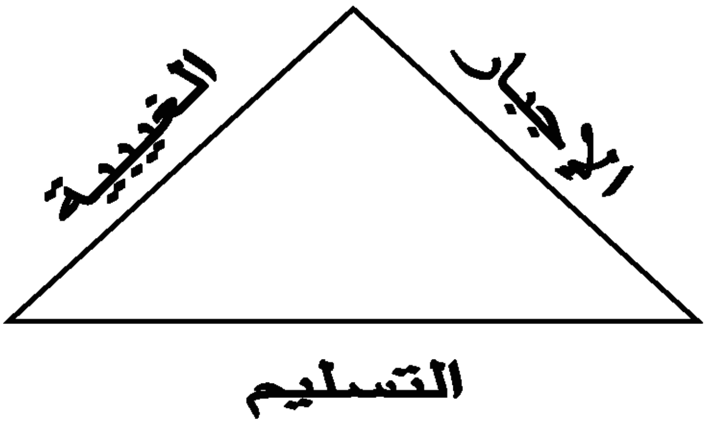
والسبب حتى ولو دفسنا رأس النعامة في الرمال الإحساس بحدة الفوارق الاجتماعية .. بالظلم.. بالإحباط.. بالحنق.. يا ناس افهموها بقى.. إن الصور أمام الشباب باتت مهتزة.. أسيفة.. حزينة عاوز لها قدرة إلهية لتغييرها.. بعد أن امتلأت دهاليز السلطة باللصوص والحرامية يسلبون الملايين حقوقهم. بشر ترسف في قيود الفقر.. تحيا حتى دون حده اللعين.. حياة ليس فيها سوى حركة الديدان لكن كل ما بدواخلهم مائت. أبدًا ليس الدين هو ما يدفع الشباب للتطرف بل الدين هو الوسيلة لإعلان التمرد بعد أن تحول التزام المجتمع حيالهم إلى قزم وحقوق السلطة إلى مارد..

وتمر الأيام ويزداد المارد طولاً ويتقلص القزم إلى قزيم.. وبات كل جميل يداس.. العلائق الإنسانية.. الحب.. المساواة.. الحق.. الخير.. الجمال.. والسؤال إلى أين والسلطة تحكم قبضتها من خلال مسئولين.. عواجيز عجزة يرفضون أي فكر تقدمي.. أي فلسفة للتغيير فما هو قائم.. قائم.. ويبقى الحال على ما هو عليه وعلى المتضرر اللجوء إلى الله. ودمتم!!

الإصلاح هو بديل التطرف وليس الدين. إن موجات العنف لن تخمد بقمعها أبدًا.. بل ستهدأ بمحاولة الوصول إلى القاع.. إلى الأسباب لإزالتها.. إن ما يحدث من ردود أفعال لمواجهتها لن يوقفها.. أمر واحد فقط تطبيق نظرية الحق والالتزام بصرامة شديدة وبقوة.. حتى تعود الروح للأمة.. بعد أن شاخت وذبلت.. لن تعود تلك الروح إلا بتحقيق المساواة.. العدل.. إن روح الأمة تموت بين أيدينا.. والمسئولون يستعجلون موتها.. بل ويعملون بكل طاقتهم لتقديم كل عون ممكن للقضاء عليها. روح الأمة في الشباب العاطل الخامل.. روح الأمة في الحرية.. روح الأمة في العدل.. روح الأمة في المساواة.. إن الوساطة تعذبها

وعرايض النواب للوزراء تفتك بها.. والمحسوبية تقضي عليها والفساد يدوخها.. واللصوصية تلطشها على قفاها.. والرشوة تمزقها.. وتواطؤ المسئولين يشل أطرافها.. ألم يعد في بلدنا شيء جميل نتغنى به نتحاكى به مع أولادنا.. بعد أن بات العدل سرابا والحرية مطلبًا عسيرًا.. والإنسان دابة يركبها المسئول حتى يصل لغايته.. فما عاد في الحقل زهرة.. بعد أن قطفت وديست.. لم يعد في البستان وردة بعد أن سقيت بمياه مالحة فذبلت أوراقها.. ماذا يقول الأب لابنه عندما يسأله عن مستقبله ومصيره.. ماذا تقول الأم لابنتها عندما تسألها مصاريف الجهاز والزواج.. في النهاية نصبح شعب رهبان أو زواني ابني يسألني لماذا الفوارق.. لماذا الفساد المستشري.. الإجابة الوحيدة.. كفالة الحرية.. وعندما نكفل الحرية تتحقق المساواة.. وعندما تتحقق المساواة يتم تطبيق قانون الانتخاب الطبيعي للحياة الأفضل.

مثلث الدين



هو مثلث الرعب أو برمودا الشهير.. الإبحار إلى قدسيته مخاطرة.. أمواج التحريم ودوامات الرهبة واحتمالات الغرق كبيرة والنجاة بلا خسائر معجزة بكل المقاييس العلمية. الإبحار إلى أعماقه يتطلب امتلاك جسارة الغوص وإرادة المقاومة والإعداد لهذا ذهنيًا وبدنيًا ونفسيًا وسؤال يلح يتخايل على العقل الإنساني ولماذا تجشم تلك المخاطر أو

ليس من الأفضل الابتعاد عن هذا المثلث المرعب لأكبر مسافة ممكنة وتفادي احتمال الغرق والموت؟!

إن علة الإبحار إلى هذا المثلث ثم الغوص في مياهه المهلكة تكمن في البحث عن وسائل النجاة من دواماته ليس فقط لتهيئة الحاضر حتى يعبر إلى المستقبل بل لتفجير صخور المسلمات التي تسد نفق الوصول إليه وهذا يتطلب شجاعة نادرة وقدرة على تخطي المهالك واجتياز المصاعب أحمد الله أنها لا تنقصني.

الإجبار

أول ما يواجه الإنسان في مغامرة الإبحار إلى مثلث الرعب هو ضلع الإجبار من خلال تعليمات وأوامر على الإنسان إتباعها والالتزام بها دون رفض أو مناقشة أو تعقيب فهي بمثابة المقود إلى نبع الطاعة أساس الدين، ولهذا فلا حرية مع وجود النص.. النص يَجُبُ التفكير، والبحث والاستقصاء يحوله من مقروء إلى منظور.. ودور العقل ينحصر فقط في تخزينه داخل سراديبه فلا حرية في مناقشة جدواه أو إرادة الإنسان مع الإرادة العليا التي أوحت بالنص ويقتصر دور اختيارات الإنسان على ممارسة أعمال تلك الإرادة داخل نطاق حرية حركة المقود وليس على حرية اختياره هو!! فالإله هو المهيمن المسيطر على مقدرات البشر يوجهه كما شاء وكيفما شاء.. يميت ويحي ويشفي ويمرض ويعذب ويرزق، وما على الإنسان سوى التسليم بأوامره والاستسلام لفعل إرادته.

هذا المفهوم المشيع تسيَّد في أوساط الفقراء والعامة وأصبحت له مدلولاته ونتائجه ومدارسه الاتكالية من خلال

فرضية الاستسلام لفعل الإرادة العليا وتقبل النتائج بلا استقصاء للأسباب والتسليم بظواهر الأمور دون بحث لبواطنها. رسخ هذا المفهوم غيبة تفسير مقنع لمسلمة الإله الملزم اللاملتزم الذي يلزم البشر بتعليماته التي لا يلتزم بها.

فإذا مَنْطَقْنا هذا المفهوم وأخضعناه للعقل البشري حتى نستخلص فلسفته الحقيقية ومرماه وأهدافه المتخفاة نجد أن الكون والكائنات يحكمها قانون كامل متكامل لا نقصان فيه يتناول كل جزئية وكل تفصيلة بجانب الكليات العامة.. لم يترك شاردة أو واردة إلا وانتظمها داخل أفرع قانونه وهذا ما يمكن تسميته بحتمية الإلزام، قانون شامل كامل تلتزم به المخلوقات والكائنات في نشأتها وحركة مسيرتها ثم هدمها، هنا الإلزام وجوبي لأن غيبته تعني الفوضى وينتهي بالحياة إلى نهايتها المحتومة.. الهدم. لأنه إذا كانت الحياة تنهض على استمرار تطبيق هذا القانون فإنها تنعدم في غيبته، لكن الصفة الإلزامية أو الإجبارية لهذا القانون لا تعني انعدام الاختيار كلية لتلك المخلوقات بل لديها كامل الاختيار في تسطير حياتها منذ النشأة حتى الهدم "الموت" داخل أفرع هذا القانون الكامل المتكامل لا تخرج عليه في

الوقت نفسه الذي تملك حرية الحركة بممارسة تطبيقاته المختلفة داخل نطاق لا تتعداه، وبهذه الفلسفة يتحول التواكل إلى عمل إيجابي والاستسلام إلى إرادة تغيير والتسليم إلى مبادرة، وحتى يتحقق ذلك يلتزم القانون "تلاله" بقواعده التي سنها تلك التي لا يشوبها نقص فلا يغيرها كلما عنَّ له ذلك، والسبب لا يخفي عن الأذهان غيبة العلة في تغيير قانون كامل.. فأي تغيير أو تعديل أو تطوير لا يتم إلا للأفضل.. فإذا كان ما يحكمنا هو الأفضل قانون كامل لا مثيل له فما حكمة التغيير وما حاجتنا للأفضل؟! ذلك أن التطوير عادة لا يحدث إلا لدرء خطأ أو رتق عيب وهو في حد ذاته اتهام للقانون الإلهي بالنقصان فضلا عن أن أي تغيير في الكامل يؤدي إلى انتقاصه ويفقده هكذا علة كماله.

يترتب على تلك المستخلصات المنطقية نتيجة هامة أن الله ملتزم بقانونه الكامل لا يغيره ولا يشلفطه كلما ارتأى ذلك فلا يستبدل بقاعدة الجاذبية الأرضية أخرى شمسية أو قمرية لأنه يهدم بهذا نتائج ترتبت على سن القانون الأول وتحقق استطراد مسيرة المخلوقات. هذا الالتزام لصيق بالقانون. بذات القانون لا يمكن فصلهما عن بعضهما "الالتزام

والقانون" وهذا يعني الدوام.. بمعنى القانون الدائم الذي لا يمكن تغييره فتغييره يخلع عنه صفة الديمومة إلى التوقيت فالله هو القانون، والقانون هو الله "حسب مبتدي الخليقة".. وإذا كان هذا كذلك فما جدوى هذا الجدل الثائر حول تنسيب المنسوخ من الكلام له.. النسخ يحمل معنى الانتقاص.. وهو وارد على كل الصيغ البشرية من علم وفن ودين.

الكامل = صيغة إلهية لا يمكن نسخها أو تعديلها.

الناقص = صيغة بشرية يمكن نسخها.

فالنقص لا ينسب لله بل فيمن حاول اكتشاف قانونه.

إن الإجبار الذي هو أحد أضلاع مثلث الدين عنصر جوهري يدخل في تركيباته.. لكن ماذا يعني الإجبار؟! من أول وهلة يمكن وصفه بأنه إكراه على فعل أمر، لكنه في الحقيقة يعني إلزام من الملزم يقابله التزام على الملتزم بتنفيذ تعليمات النص الديني دون التحلل من أدائها، وإلا حق عليه العقاب الأكبر.. المتمثل في النار الحارقة التي وقودها الناس والحجارة، لكنه في نفس الوقت يثاب إذا ما امتثل لها فيدخل الجنة على حصان أشهب تستقبله الحور العين بالزغاريد

وبأحضانها الدافئة، هناك يمارس كل الرذائل الحسية التي حرم منها في الدنيا الفانية!!

إن منهج الترغيب والترهيب "الجنة والنار" كوسيلة لإقناع العامة بفعل الخير والبعد عن المعاصي صورة مشيعة ومجدية لوقف زحف الجراد البشري على قيم المجتمع وفضائله.. فالجاهل الأمي يستمد قناعاته عن الفضيلة من الوازع الديني.. بدونه يتم انتهاك كل القيم والمقدسات. سذاجة وأي سذاجة الدعوة إلى إلغاء مساحة الدين من عقول العامة أو ما يتصل بها من خزعبلة وخرافة قبل تهيئة تلك العقول لاستقبال صيغة جديدة بالارتقاء بوعي الفرد الحضاري حتى يستطيع استيعاب البديل فحتى تتحول تلك المجتمعات المتخلفة من مرحلة الرضاعة الدينية إلى الفطام المدني علينا أن نهيئ لها بديل مص ثدي الدين.. الطعام المناسب حتى لا نفاجأ في مرحلة الفطام بأطعمة من خلاصة نخاع الشيطان!!

من الممكن أن يحل الخوف العقابي الوضعي بتطبيق فاشية القانون مكان الخوف الإلهي كصيغة من الصيغ المطروحة لانتظام المجتمعات وبالتطور المرحلي يمتزج

هذا الخوف بالضمير ويكوِّن معه كيانًا واحدًا يتحول إلى قيمة تنقذ المجتمعات من هوة الانحدار لكن مثل هذا الإحلال يتطلب مخصبًا للأرض البور وبذرة جيدة صالحة للإنبات.

فعندما يواجه المسلمون ألاعيب الولايات المتحدة أو عسكرية إسرائيل بتلك الصيحة المعهودة "الله أكبر" والتي لا نملك سوى ترديدها بصوت عال!! فشتان ما بين هتاف الحنجرة وعناصر القوة. العلم والحرية والديمقراطية.. رغم هذا فتبقى تلك الصيحة العنترية قاسمًا مشتركًا لتلك المجتمعات المتخلفة للحفاظ على هويتها من الاندثار ويبقى الدين أحد دعامات استمراريتها على خريطة العالم وهدم الدين ومحو مساحته من الضمائر يعني إسقاط تأثير الجبرية الدينية وإلغاء فلسفة الترهيب والترغيب والنتيجة الحتمية لذلك إحلال شبق الفوضى مكان عفة الفضائل.

إن فلسفة الإجبار تنبع من قدسية التعليمات المنزلة وفرضية تحصنها ضد الخطأ لهذا كان على البشر الالتزام بتنفيذها انطلاقا من قاعدة "الله الذي لا يخطىء" ولا خلاف حول منطقية النتيجة والتسليم بها.

إله لا يخطىء + أوامر منزلة منه = حتمية الالتزام بها.

لكن الخلاف حول ما أثارته بعض الأقلام أن هذه الأوامر المنزلة ما هي إلا خواطر للرسل ظنوا فيها التنزيل وعلى هذا تتفكك المنظمة الإلزامية لتصبح النتيجة على النقيض تماما من الفرضية الأولى.

خواطر للرسل = حرية الاختيار في الالتزام بها.

حجتهم في المثار أن الإله يملك الحقيقة كاملة فلماذا أمسكها عنهم وكان بإمكانه أن يحيطهم علمًا بكل دقائق المستقبل من نظريات في الكيمياء والكهرباء والمغناطيسية وإذا كان ما تم تنزيله يمثل الحقيقة كاملة فلماذا ينسخها بالتعديل أو الإلغاء؟! كل هذا من خلال التشكيك في وجود الصلة المباشرة بين الإله والرسل على أساس فرضيتها فهي لا تخرج عن نطاق التصور أو أحلام اليقظة!!

هذا السياق العقلاني لا يتفق مع التفسير الغيبي للدين والذي يجب التسليم به تسليمًا مطلقًا دون تحليله أو وضعه على منضدة عمليات العقل البشري حتى لا نفقد إيماننا به، لأن التسليم بالتنزيل أحد دعامات الدين ولم يكن هذا خطأ

انزلق إليه المستشرقون وحدهم بل شاركهم أرباب سوابق الدين من المعممين عندما تبني فقهاؤهم النظرية التوفيقية بين العلم والدين بتفسير النص الديني تفسيرًا علميًا رغم ضيق الجورب، فهو لا يتحمل استيعاب قدم فيل والنتيجة المؤكدة تمزيق نسيجه للتباين الصارخ والاختلاف الجذري بين النص الديني والنظرية العلمية لذلك لم يكن أمام متفقهي الدين سوى تطويع نظريات العلم لخدمة مفاهيم النص الديني.. استغلوا العلم بردعه للدين ولما لم يفلح هذا أيضًا لجأوا إلى رفض الحقيقة العلمية بحسبان أنه طال الوقت أم قصر سيثبت خطل الفكر العلمي لصالح مفهومات الدين فإذا كان للدين رأي حول كروية الأرض يخالف العلم فالدين هو الصح وسيثبت مهما طال الوقت أن الأرض بيضاوية!!

لهذا يجب علينا حتى لا نجد أنفسنا في النهاية مضطرين إلى رفض الدين رفضًا قطيعًا أن نبتعد به نهائيًا عن دائرة العلم.. نعم نبتعد بمفهومه الغيبي عن الاستنساخ من نظريات العلم.. حتى لا نتواجه بمسخ بشع لا هو دين ولا هو علم.. لكن في نفس الوقت نقترب به من دائرة الدنيا ليصبح الدين إنسانيًا هدفه التخفيف من عذابات البشر ومسح

أحزانهم ورفع معاناتهم وركوب سفينة الأمل بالاقتراب من واقع الإنسان بما يشبع حاجاته ويحمل مشاكله المستعصية ينزل الدين من عليائه في السماوات العلى إلى الأرض.. إلى الواقع المضني محاولة للتغيير للأفضل.. للأثرى.

إن فلسفة الإجبار تعني أولاً أنه لا حرية مع وجود النص.. إلزام وجوبي فلا اختيار أو مفاضلة بين النص الإلهي وآخر وضعي، وبالتالي يحرم ويجرم توظيف صيغة أخرى لتحل محل الصيغة الربانية، وثانيًا إنه في حالة الإخلال بهذه القاعدة والتجرؤ على الأخذ بصيغة أخرى يحدث ما لا يحمد عقباه.. اتهامات الكفر والردة وحل الدم والقتل والعذاب الأبدي يوم السعير السرمدي!

لكن ماذا بعد أن عطلت معظم البلاد الإسلامية النص الديني بإحلال القانون الوضعي مكانه فسمحت بالخمر، وحرمت الزواج بأربعة، ومنعت الطلاق بإرادة الرجل المنفردة، وشونت التشريع الجزائي الإسلامي في شونة التاريخ، وأحلت مكانه القوانين الجنائية، كما شرعت نصوصًا مدنية بديلاً عن شريعة المعاملات الإسلامية!؟

إن سبب هذا الإحلال يعود إلى أن مقتضيات العصر والصالح العام وما يرتبط بهما من مستجدات فرض واقعًا مختلفًا عن هذا الذي كان سائدًا أيام حثالة كفرة قريش، أقوام تقطن الصحاري القاحلة والفيافي العقيمة.. تغط في سبات الجاهلية.. قبائل تتصارع وتتقاتل من أجل حفنة شعير.. طعامها المفضل الفئران والكلاب والأظلاف والدما مخلوطة بوبر الجمل.. مجتمع بدائي متخلف يحرم على أفراده من الصعلوك إلى الأمير استعمال الكنيف.. لا فرق بينهم وبين القطط.. الفرق الوحيد أن القطط تحفر لمخلفاتها ثم تردم!! مجتمع جاهل أمي شق عصا الطاعة على كل قيم الحضارة.. الحق.. العدل.. المساواة.. باسترقاق البشر. مجتمع يمجد وصية أميره بتعلم القنص والسباحة وركوب الخيل، ويهمل الكتابة والمعرفة وما من سبب يدعوه لفرض تلك الوصية إلا لأن الحصان والسهم في يد صاحبه وسيلة التقوت بالسلب والنهب.. مجتمع نبذ المرأة وحط من قدرها فوأدها طفلة وباعها جارية ونزلت أحكام الشريعة الإسلامية لتنهض بهذا المجتمع الغارق في بحور الجهالة مجتمع عميان.. هدفها تمزيق نسيج غشاوة أعينهم.

فلا غرابة إذن أن تتمرد التشريعات الوضعية الحديثة في مجتمعات تعدت تلك المرحلة البدائية "الغشاوة الاجتماعية" على أحكام الشريعة الغراء بل وتتنصل منها باعتبارها شريعة محلية شرعت لقريش.. وتأخذ في مجالات العلاقة الإنسانية والاقتصادية والسياسية بأحكام جديدة مغايرة تماما لما شرع لتلك الحثالة تتواءم مع مقتضيات عصر العولمة الذي يعيشه البشر.. فليس مقبولاً اليوم أن نطبق فلسفة الاسترقاق ونعيد أسواق النخاسين في إمبابة والمرج وحلوان ونشتري العبد والعصا معه فالعبيد أنجاس مناكيد كما أشعر فيهم شيخ الشعراء "المتنبي"!! أو نطبق فلسفة تحطيم الأصنام فنأتي بمثل أفعال الغازي عمرو العاص وهو يحطم تماثيل حضارتنا القديمة، أو نحذو حذو شيخ الأزهر ومفتي الديار فنحرم التعبير بالتصاوير والتماثيل في بيوتنا، أو نحني هاماتنا لفلسفة خطيئة الربا فنغلق البنوك، أو نجلد شارب الخمر، ونكفر المبدع ونهدر دمه عند أول ناصية، ونوشم رقبة المسيحي بوشمة التعصب كما فعل الآمر عمر الخطاب!! لم يعد مقبولاً ولا مفهومًا تحت ظلال الشرعية الإنسانية وما اكتسبه الإنسان من حقوق وحريات أن نجبر

المرأة على الطاعة في عصمة زوجها رغمًا عن إرادتها أو أن نحظر عليها حرية الانتقال والسفر للخارج إلا بموافقة ولي أمرها زوجها و.. لم يعد مقبولاً ضربها "بالمنتوفلي" أو حرمانها من نصف الميراث أو كامل الشهادة وتفضيل الرجل عليها مفاضلة تتسم بالأنانية لا يسندها سوى التعصب الجنسي!!

لكن في مقابل هذا يتحتم ثبات أحكام العقيدة فلا يشملها مثل هذا التغيير أو التبديل. الصلاة والصوم والزكاة والحج.. أركان الإسلام.. فلسفة هذه التفرقة تكمن في أن أحكام العقيدة تتصل بذات الإنسان. لكن الحياة بمنظومتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تخضع لحركة المجتمع المدني التي تقوم بغربلة كل ما يحكم المجتمع ومسيرته من نظم ما يراه صالحًا يستبقيه، أما الطالح فيتساقط من ثقوب الغربال.. "العقل الإنساني".

الغيبية

ما تعجز الحواس عن إدراكه يعجز عن معرفته العقل، وما يعجز العقل عن معرفته غيبي فكل ما وراء الطبيعة "الميتافزيقيا" غيبيات: الجنة والنار والملائكة والروح والشيطان كلها مجهولات داخل دائرة اللامدركات معرفيًا.. لذلك فهي تدور داخل دائرة المجهول المطلق لا تتعداه إلى الدائرة الأضيق.. المعرفة النسبية.. ويظل هكذا حتى يتم اكتشافه بإحدى المدركات العقلية فتتحول إلى دائرة المعرفة النسبية.

الغيبية = مجهول = لا مدرك.

الاكتشاف + مادة المجهول = معرفة.

ولأن مادة الغيبية أثيرية يستحيل اكتشاف مكونها بالعقل فقد حاول الإنسان تخيلها فشلت الحواس العقلية في ضبطها وإحضارها إلى دائرة المعرفة فأعملت فيها كاميرا التصوير العقلي ولأن عدسة تلك الكاميرا العقلية تختلف من شخص إلى آخر فقد اختلفت تلك الصور حسب لقطات كل كاميرا لكنها في الغالب الأعم صور ضبابية تحتاج إلى بصيرة

حادة!! فالملائكة الأبرار أحيانًا مجسمة في طير بجناحين وأحيانًا أخرى بأربعمائة جناح مرصعة بالياقوت والزمرد تم عدها بدقة شديدة جناحًا جناحًا!! مرة تتزين برداء أبيض فضفاض وأخرى تظهر كالطاقة نور وهّاج والجنة والنار ياما أبدع فيها الكثيرون التخيل.. في النار مراحل العذاب وتصنيفاته وشدته وطبقاته.. وفي الجنة كافة أنواع المتع الحسية من خمر ونساء ولبن وعسل كل ما كان متاحًا يومها من المتع الدنيوية، لكن اليوم نستطيع أن نضيف إلى القائمة أحدث الاختراعات العلمية.. التليفزيون والسينما والكمبيوتر والثلاجة وأجهزة التكييف والتليفون اللاسلكي والمحمول حتى تحادث الزوجة قاطنة الجنة زوجها هذا الذي يشوى في النار شامتةً متشفيةً فيه وهو يبكي حاله تسأله المصيرا. عن عينه التي زاغت على جمال الخلق هل خوزقت؟!.. رتوش كثيرة في حاجة اليوم إلى إضافتها للأصل حتى تتفق صورة الجنة والنار مع المستحدثات العصرية!!

لكن لأن حقيقة الغيبية مواد تخيلية لذلك فالخيال ينطلق جامحًا ليرسم أبعادًا وأحجامًا متخيلة لتلك الغيبيات تختلف من شخص لآخر حسب طبيعته وثقافته والرسالة التي تهيئ لها

فشتان ما بين تخيل دانتي للنار وبين جهنم المسلمين، ولأن العامة تريد الهرب من واقعها المخزي الممل فهي تصدّق وتصادق على ما يقال حول هذه التخيلات بل وتبصم على كل كلمة وكل حرف ببصمة عقلها الواعي.. فكان أن تحولت تلك الأخيلة إلى خرافة.. فأساس الخرافة تخيل يقتنع به العقل دون أن تسنده مادة معرفية فيتمحور إلى خرافة.. فلا عجب إذن أن يجسم العامة صورة الشياطين في كلاب تنبح وتعض أو في صورة آدمية يجللها السواد بقرون مخيفة لكن في النهاية يعجز هؤلاء عن تصور لدائن صنعها. هل هي مواد بشرية خلايا ودم أم مواد أثيرية، ثم كيف بتجسيمها.. هل هو تجسيم محسوس أم تجسيم رؤية مثل ما نرى على شاشة التليفزيون إشعاعات ضوئية؟؟

ولأنه تستحيل الإجابة العلمية العقلانية على هذه الأسئلة لذلك تبقى كل تلك التخيلات داخل دائرة المجهول المطلق الذي يضمها ضمن مقتنياته الغيبية، لكن الذي يصيب العقل بغثيان هي أسطورة عذاب القبر وبطلها الثعبان الأقرع من خلال تساؤل جاد على من يقع التعذيب.. الخلايا التي يسرح فيها الدود وهل يهم الشاة لدغها بعد موتها أم الروح التي

لا يعلم كنهها أحد.. فكيف بتعذيب من لا يوصف ولا يتصف؟! فإذا كان مثل هذا التعذيب ممكنًا فالقول بتعذيب شعاع الشمس بغلق منفذه أو تعذيب الهواء بتلوثه أقرب منه للصواب.!!

ورغم كل ما قيل عن أوصاف الجنة والنار فتبقى الجنة بحور العين وأنهار الخمر واللبن والمتع الحسية والنار بعذاباتها المحسوسة من تحريق وتغيير جلد وشرب الماء المغلي من أثرى التخيلات بتفاصيلها المثيرة والتي أبدع مادة قصها فص ما وراء الطبيعة التخيلي.. المدهش والمضحك إنه ليس خيالا مستقبليًا بل خيال الهدم والعدم، وشتان ما بين فلسفة تخيلنا وتخيل الغرب، هم يتحدثون عن مصيرهم قبل وقوع الكارثة حتى يقيموا دفاعاتهم وتحصيناتهم، ونحن نتخيل ما بعد الكارثة حتى نبكي حالنا الذي يعبر عن الاستسلام والانهزامية. صدقنا ما تخيلناه وأقمنا حوله سياج من القدسية لا يقربه أحد إلا وصعقه تيار الإلحاد والكفر بعد أن تحولت أقصوصات التخيل إلى حقائق مادية ملموسة وتحورت المادة التهويمية إلى معرفة إنسانية وبلا سند أو دليل من قاموس المعرفة وكان أن تلوث العقل البشري

بملوثات الخرافة.. وهذا هو سبب تأزيم العقل المسلم.. اختلاط الأوراق بعضها بالبعض الآخر فما هو غيبي تحول بقدرة قادر إلى حقائق افتراضية وانشغل العقل بها تحاوره ويحاورها بلا نتيجة حاسمة وترك لها ساحة الحقيقة لتحارب العلم بل وتشن غاراتها على كل فكر مستنير ينكر أن تكون نهاية العقل سرداب الوهم المظلم.

والنتيجة علوم غيبية ومدارس تدرس فيها قدرات الجن وتصنيفاته وأشكاله وأماكن تجمعه.. كما يتم داخل معاملها الغيبية تحليل المواد الأولية للجنة والنار في أنابيب اختبار الخرافة لاستخلاص عصارة طقوس العبادات واستعمالها في علاج النقرس والروماتيد والسرطان!! وفي المقابل تم غلق مدارس وحرق كتب تدرس علوم الاستنارة بالضبة والمفتاح!!

وأصبح للدين جاذبية خاصة في علاج المرضى فتم فتح عيادات المقروء فيها يخفف الأمراض المستعصية في أوقات، وفي أخرى يشفيها. وكان أن اختلطت أوراق الكوتشينة فأصبح العلم قرين الغيبية والحقيقة الابن البار للميتافزقيا.. وشارك خاصة المثقفون بغباء في هذه الخلطة

الغريبة فنثروا عليها من أرائهم الفلفل والبهارات وهم ينقدون بشدة المفاهيم المتخالفة ويقطعوا كل أربطة الفواصل بينها بتحويل الغيبيات إلى حقائق كونية والنتيجة.. بتنا نهمهم كما الحيوانات بعد أن فقدنا لغة النطق الصحيحة وانفصلنا عن ذاتنا الإنسانية وأصبحنا على مشارف حظائر الماعز والبغال والحمير والخنازير، وربما داخلها نبحث عن وهم ما بعد الموت ونحن مغيبون بأقراص الخرافة، وغيرنا الإنس يبحث عن حقيقة ما قبله وهو متيقظ لكل ما حوله من مجريات!!

كل هذا.. يجرنا للحديث عن دائرة المجهول المطلق الذي يضم ضمن مقتنياته الغيبية ذلك بإلقاء الضوء عليه.. المجهول المطلق.. كما سبق أن أوضحنا هو ما لا يمكن إدراكه معرفيًا وبالتالي فهو غير جدير بالاعتراف به كحقيقة معرفية في نفس الوقت الذي لا يمكن إنكار وجوده.. "إزاي" يبقى موجود لكن لا نعترف به أو ليس هذا قمة التناقض؟! ولا تناقض ولا حاجة فالحقيقة العلمية قبل اكتشافها كانت موجودة داخل دائرة المجهول المطلق لكنها مجهلة فلا يمكن الاعتراف بها لكن بعد اكتشافها تنتقل إلى دائرة المعرفة النسبية.. ينطبق هذا على كل الحقائق العلمية..

المجهول المطلق هو ما نجهله ونجهل أسبابه ومبرراته وحقائق العلم قبل اكتشافها كانت داخل دائرته المجهولة.. وبعد اكتشافها تدخل دائرة المعرفة النسبية.. المجهول المطلق هذا لا يمكن إنكار وجوده، وفي نفس الوقت لا يمكن الاعتراف به كمعلوم نسبي إلا إذا تحول من كينونته المجهلة إلى دائرة المعرفة فالقمر قبل الصعود إليه كان مجهولا!! هنا التجهيل لم يكن ينصب على وجود القمر بل ماهيته.. غلاف القمر الظروف المناخية.. الكائنات.. أمور كان الإنسان يجهلها قبل اعتلاء سطحه.. أصبحت معلومة ودخلت دائرة المعرفة النسبية وهذا الحديث يجرنا إلى اللغم.. نحاول تفجيره دون أن يصيبنا أو على الأقل نبطل مفعوله. غيبية الدين.. ما هي وما تفسير العلم لها.. مكانها على خريطة الحياة.. دائرة المجهول المطلق أم دائرة المعرفة النسبية؟!

الغيبية بمادتها التهويمية الغامضة لا يمكن أن تدخل دائرة المعرفة النسبية لذلك لأنها مجهولة، بالتالي لا يمكن الاعتراف بها كحقيقة علمية أو اجتماعية أو إنسانية، لذلك يجب أن نفرق بين الغيبية والمعرفة الإنسانية وأن لا نخلط بينهما بأن نصور الغيبية على أنها نتاج المعرفة الإنسانية،

أو أن نوظفها كنهج في تفسير العلم، بأن نفسر بالغيبية حدوث الظواهر الطبيعية من مطر وضباب وسحاب وحر وزلازل، ذلك بأن نعلل مثلا سقوط الأمطار صيفا بغضب الله.. أو نستعمل السحر والتعاويذ وقراءة القرآن لشفاء المرضى.. أو الصلوات لمنع الزلازل وهطول المطر.. هنا في الأمثلة الأخيرة قمنا بتوظيف الغيبية لتحقيق فرضية علمية لا تحدث إلا نتيجة حدوث ظواهر طبيعية وبالتالي تتداخل المسائل وتتشابك مع بعضها ثمارها علقم!! وتنتهي إلى عجز الإنسان عن التفرقة ما بين الوهم والحقيقة. العلم والغيبيات بعد أن تشابكت أغصان الغابة وتداخلت ولم تجد من يهتم بقطع تلك المتشابكات ليمهد لنفسه وللناس طريقًا وسط الأحراش، وكان أن اختلطت المفاهيم.. العمل الطيب بالعمل الحقيقي المثمر فأصبح العمل الطيب بديلاً عنه فضاقت دور العبادة بروادها.. وفرغت المصانع من جهد رجالها وبات الكسل سمة هؤلاء الناس والاستسلام واجهتهم وفقدوا إرادة العمل الجماعي وتحولوا لمجرد قطيع أغنام يأكل ويشرب وينام في انتظار الذبح.. وارتضوا حياة الاستسلام.

والسؤال ماذا يفيدنا نحن من تحديد نطاق المجهول المطلق والمعلوم النسبي وتوجد كثير من النظريات العلمية أجمعت الإنسانية في حقبة معينة على صحتها ثم خذلها بعد ذلك العقل المستقبلي.. إن هذا الافتراض لا يقوض ما قلنا به من التفرقة بين المجهول المطلق والمعلوم النسبي.. فمتى دخل المجهول المطلق دائرة المعرفة أصبح معلومًا ويظل هكذا إلى أن يثبت خطأ ما تم التوصل إليه.. هذا الافتراض لا يهدم ما قلنا به لكنه يثبت أن الحقيقة نسبية.. لا يوجد حقيقة مطلقة حتى حقيقة الميلاد والموت ليست مطلقة.. فالموت هدم وليس فناء.. هدم يعود به الإنسان إلى مواده الأولية حديد وفسفور ومنجنيز ومغنسيوم ومواد عضوية.. وهذه إحدى مجاهيل الغابة الاستوائية الإنسانية.. الإنسان يموت عندما تتغلب عوامل الفناء على أسباب البقاء تمامًا مثل العمارة التي تنهدم بسبب رشح المياه أو تخلخل الأساسات أو الزلازل.. وهكذا الإنسان.. قد يكون السبب المرض.. الكهولة.. الفقر.. وقد تكون تلك الأسباب مجتمعة هي التي تصدع بناءه وتهدمه..

لكن ما صلة المعرفة أو الغيبية بالحرية.. المعرفة تعني الحرية.. لأنه حتى تصل إليها عليك أن تمارس حريتك الكاملة في التقصي عنها و "الفحت" عن جذورها المتعمقة والبحث عن أسبابها.. مع إمكانية الرفض أو القبول.

أما الغيبية فتعني أمرا واحدا فقط وهو الإذعان أي الانقياد والطاعة.. فلا اختيار بدائل ولا حرية بحث أو تقصي أو رفض بل قبول بكل المفاهيم الغيبية على علاتها وإلا فالاتهام مشرع بالردة والكفر والإلحاد.. وهذا في حد ذاته وما يحمله من معاني الإذعان وحجب حرية الرفض يعني إهدار الحرية. وتعارض تام مع معناها بل ومشتقاتها.

فعندما يتواجه العقل البشري لسخافات مسيرة حياة الجن ومواقعته نساء المسلمين يقف شعر البطن لا الرأس من هول ما يسمع.. عندما يصل بنا خبل المفهومات إلى الحد الذي نقطع فيه يقيناً بتوالد شياطين صغار في صورة بشر عند مواقعة رجل لامرأته عارية.. ليصبح العري مفتاح شفرة إنجاب الشياطين وعندما يكون محترفو القول رجالاً يحملون على صدورهم وسام العدل، عندما يحدث هذا لا نستطيع إلا التعليق في حسرة "يا خسارة على العقل بعد العدل". عبارة

قلناها ورددناها على العدل منذ سنوات مضت!! وإذا وصل بنا التدني إلى حد مطارحة هذه الشعوذة علنا على الخاصة والعامة ونحن في قناعة بما نقول ونحول الغيبية إلى مادة إنسانية ونمارس معها أعمال العقل فنتفنن في سردها ونسطر لها نتائج وأحكامًا لا دليل عليها سوى أعاجيب سحرة أو أخيلة مريضة.. إذا وصل بنا الحال إلى إقحام الجن في أسمى خصوصياتنا ليشاركنا الفراش مع نساءنا العاريات ربما من الدبر فهذا انحطاط فكري لم تصل إليه بعد أدنى المجتمعات اجتماعيًا.. وإذا كان السند يؤيد الإسناد فيما ذهب إليه فلا أقل من حرق أوراقه وبعثرة ترابه في شتى أنحاء بلاد المسلمين، أو يصنع منه أقلام حواجب تتزين به نساء الجن!!

أية فوضى فكرية هذه وأي إنس هذا غارق في الأُكذوبة وهو يتصدى لقضايا الجن والشياطين ويسطو على العقل بتحويل مادتها الأثيرية إلى واقعية دون ما سند علمي أو عقلي رغم أنه يمارس في وظيفته علم الأدلة..!!

إن العلم لم يستطع حتى الآن التوصل إلى معرفة حقيقة ما وراء الطبيعية ليس فقط لغياب العلة طالما أنه لا يوجد

مداخلات منها في تكوينات الحياة البشرية بل أيضًا لاستحالة الإثبات لكن هذا لا يعني إنكار الغيبية باعتبار صفتها تلك كمنظومة لإحدى فروع المعرفة نجهل ماهيتها..

بعد هذا ننتقل نقلة سريعة وعميقة إلى ثالث أضلاع الدين التسليم وهي مرحلة من مراحل الإيمان.

التسليم

هي فعل الرضاء بالواقع حتى ولو تم تحت إكراه أو ضغط أو رهبة أو خوف، وهو هنا مسألة إيمانية تسبق الاستسلام.. النتيجة الحتمية لفعل الرضاء والترجمة الأمينة لعبارة سلمت أمري لله، هذا التسليم ينصب على تعليمات الله عز وجل المنزه عن الخطأ. ومن صفات المسلم التسليم والاستسلام، وهي مرحلة سابقة على الإيمان التي تتطلب لتحقيقها الاقتناع بتوظيف حواس العقل لأعمال الوجدان.

لهذا فليس دائمًا كل مسلم بمؤمن وإن كان العكس صحيحًا أن كل مؤمن مسلم والتنزيل هو القاسم المشترك لعقيدة كل من المسلم والمؤمن بل هو جوهر الدين . إنكاره يعني انهيار دعائمه فمن هذا الذي يستمسك بكلام مؤلفين يبثون خواطرهم وأفكارهم الشاردة!! وهذا صحيح رغم أنه توجد ديانات في الشرق.. البوذية، والكونفوشوسية لم يدَّعِ أصحابها التنزيل لكنها لم تنهار أو تختفي.. ذلك راجع إلى صياغة بداياتها فهي من تأليف الرسل بخلاف تلك الديانات التي تنهض رسالتها على الإيمان بتنزيلها وما يترتب عليها

من نتائج لا خلاف عليها.. أولها الجبرية الدينية فمعتنق الديانة عليه الالتزام بأحكامها ولا اختيار له في رفضها أو الخروج عليها.

هذه القاعدة.. قاعدة الالتزام الجبري لها عند العامة مذاق وجداني خاص فهي التي تربي لديهم الحس الأخلاقي لفعل الخير والابتعاد عن المعصية، لكنها في المقابل تنمي في الإنسان الرهبة والخوف من الله.. من المجهول.. من النار ثم تنتقل تلك الرهبة من الغيبيات إلى الواقع الحاكم.. المسئول.. السلطة الأبوية كما يترتب عليها نتائج فاشية بحجب النقاش حول أصوبة المفاهيم أو تصحيحها فيكفي مقولة "الرفض معناه إنكار تعليمات الله" في مواجهة أي إنسان ليعيد ترتيب أوراق مواقعه.. لأن ما وراء ذلك ثعابين سامة نائمة مستعدة لتنفث سمومها الإلحاد والكفر والردة وكل ما لا يخطر على بال من سموم زاعفة.. قاتلة.

وإذا كانت بعض القوانين الوضعية قد خرجت على تلك القاعدة فليس لإنكار مشرعها تنزيل تلك الأحكام، بل لدوافعها التي تعتمد على المفاضلة بين المصلحة العامة واعتبار المستجدات والتي اختلفت تضاريسها تماما عن تلك التي

كانت سائدة أيام عصر التنزيل.. فشتان ما بين الماضي والحاضر. بحيث يمكن القول إنه الفرق ما بين السماء والأرض صعودًا وهبوطًا، الفرق ما بين الجمل سفينة الصحراء ومركبة الفضاء سفينة السماء.. وما يمثل كلاهما من فكر. القديم يرتبط بالأرض ويتميز بالبطء والجديد يرتفع إلى عنان السماء وفي سرعة الضوء.. بحيث يمكن القول إما أن نأخذ بها كلها ونعود معها إلى الصحراء نرعى الماعز والجمال كنتيجة حتمية للأخذ بها وهذا هو الهذيان الاجتماعي، أو نتركها تمامًا نعلمها فقط لأولادنا في كتب التاريخ وهذا هو المستقبل.

منظور الحرية في الدين

تحدثنا عن الحرية بوجه عام باعتبارها غريزة من غرائز الإنس الأساسية. يولد بها وتعيش معه فترة إقامته داخل شقته الخاصة "حياته" التي تملّكها بكل المرافق والغرائز الطبيعية بموجب عقد تمليك معنوي يدفع الإنسان بمقتضاه الثمن بالسير على هدى تعليمات الله!! وكان آدم عليه السلام هو أول من أخل بهذا العقد "عقد التمليك" عندما فاضل بين تعليمات الله وبين حريته واختار حريته وكان الله يعنيها وهو ينبت شجرتها شجرة الحرية في الجنة ثم وهي تثمر الاختيار أجمل الفواكه وأعذبها وأحبها للنفس البشرية. أثمرت ثمرة لا تقاوم وكان الجزاء من نوع العصيان فقد نُفي آدم من الجنة إلى الأرض واستن الله بهذا قاعدة أساسية.. إذا كان آدم قد عصى ربه وتمرد عليه وفضل الحرية على تعاليمه وهذه أقصى درجات الحرية.. فلم يمنعه الله من ممارسة حريته في اختيار عصيانه وكان يستطيع، فبالتالي للإنسان الحق في استعمال هذه الحرية في مواجهة غيره بالتمرد والعصيان وتكونت منذ بدء الخليقة أول لبنة في كيفية

تطور الإنسان.. الاختيار أي المفاضلة بين البدائل.. والحرية في الاختيار أي الأسلوب.. إذن فعندما هبط آدم إلى الأرض هبط ومعه حريته لم تستلب منه بل بقيت إحدى الغرائز التي يطل بها أحفاده على دروب الحياة من خلال الخير والشر أو الصواب والخطأ وحرية المجتمعات في تفسير ماهية الخطأ والصواب متى يعتبر خطأ ومتى يعتبر صوابا.

من خلال هذا التناول قد يتساءل البعض عن جدوى الحرية إذا كانت تمثل معصية للخالق، والرد بسيط ومتواضع.. أن الحرية في حد ذاتها ليست معصية بل هي أسلوب... وهذا الأسلوب يستخدم لفعل الخير أو الشر.. لكن لم يحرم الله البشر من ممارسة الحرية حتى ولو كانت تمارس لمعصيته.. فآلاف البشر يقتلون ويسرقون وينهبون يفعلون كل ما هو مجرم، وآلاف غيرهم يخترعون ويكتشفون أدق أسرار الخليقة.. لطائفتين: طائفة الخير أو الشر الحرية الكاملة فيما تفعل.. فالإنسان يملك إرادته حتى ولو أدت هذه الإرادة لفعل قد يترتب عليه عقابه.. كما فعل الله مع آدم.. إذن يجب الفصل بين حرية الفعل وبين الفعل ذاته الذي قد يكون خطأ أو صوابًا.. فلا نجرم الحرية حتى ولو كان فعل

الحرية خطأ بل نعاقب ونثيب للنتيجة التي قد تترتب على فعل الحرية.. فالذي يطعم نفسه من مال حرام لا نستطيع حجب حريته في البقاء حيًا، ولكن نستطيع أن نحاسبه على النتيجة.. المال الحرام.. ومن يقتل نعاقبه على فعل القتل لا حريته في ارتكاب الجريمة، فالحرية ذاتها لا تؤثم بل فعلها.

هذا بالنسبة لمن يعتنق الأديان!! لكن بالنسبة لأصحاب النظرة العقلانية الذين يبرمجون التطور في نظرية دارون يثور التساؤل.. كيف الحرية عندهم؟ كيف نعثر على مضمونها.. جوهر فلسفتها من الأميبا حتى الإنسان مرورا بالسمكة والضفدعة والقنفذ والخفاش والحيوانات الثديية.. كيف مارست الأميبا تطورها المذهل؟! إنها الحرية. هذه الحرية تمارس داخل أفرع قانون صارم يحكم الكائنات كتاب مسطور داخل كل فصيل من المخلوقات ينظم نشوءه.. استمراريته.. تطوره، وأخيرًا هدمه من خلال هذا القانون المسطور يمارس الفصيل حريته في النشوء والترقي.. ولا ينطبق هذا القانون على الكائنات الحية فقط بل كل ما نطلق عليه الكائنات الميتة "الجامدة" من صخور وأراضي

وزلط ورمل بل ويشمل الشموس والأقمار والكواكب ومهمة الإنسان الجلية على مر العصور هو اكتشاف عناصر هذا القانون وفروعه المختلفة في كافة مجالات الحياة وقبل أن نحدد منظور الحرية في الدين علينا أولاً أن نقرر بديهيات:

١- هدف الدين علوي أو سفلي إسعاد البشر من خلال تعليمات يفترض مع تنفيذها أن تتحقق تلك السعادة.

٢- هذه التعليمات قد تكون في صورة طقوس لعبادات أو معاملات إنسانية.

والسؤال وما صلة هذا بالحرية؟

طبقًا لنظرية توازي الحق والواجب الدنيوي أن أي التزام بأداء واجب معين يقابله حق يتوازى معه حتى لا يحدث خلل في العلاقة الاجتماعية.. أما بالنسبة للدين فالإنسان يلتزم بتنفيذ تعليمات الدين وأوامره دون ما مقابل أو حق دنيوي.. الحق يتمثل في وعد غيبي.. إذن فهو التزام دنيوي لا يقابله حق من نفس الفصيل.. فقط الجنة.. رضا الله.. المغفرة.. التوبة.. كلها أمور غيبية فالملتزم يؤدي طقوس وعبادات حقيقية كالصلاة أو الصيام أو الطواف

أو الزكاة والمقابل وعد غيبي.. هنا يحدث نوع من الخلل الاجتماعي لا نحسه إلا داخل أنفس البشر.. فالذي يؤدي العبادات ويسبح بحمد الله مطادر ومعذب "واخد" صابونة والآخر الذي يبخس الدين حقه "طايح" في الناس وغرقان في عسل المال ورحيق السلطة.. إيه الحكاية بالضبط. ولا حكاية ولا رواية لقد حدث نوع من الخلل الاجتماعي نتيجة غيبة قاعدة توازي الحق مع الواجب! والسؤال ما لنا ومال الدوشة دي. ماذا يفيد هذا الكلام الحلمنتيشي.. أولاً: هو ليس "حلمنتيشي"، وثانيًا: هو يفيد.. كيف؟! بتأصيل الحرية وفهمها الفهم الصحيح. فلا يكفي لفهم مدلول الحرية التعرف على فوائدها بل أيضًا يجب تأصيلها حتى نقتنع بارتباط الفائدة المرجوة بالمدلول الكائن لكن كيف تفهم الدين مدلول الحرية؟

إن دور الإنسان في مجال تطبيق الدين يطابق تمامًا دور الممثل عندما يلقنه المخرج الحوار والسيناريو.. فليس عليه الخروج عن النص.. بل عليه الالتزام بكل حرف وكل حركة دون أن يتناقش في تفاصيل جدواها.. المهم أن يؤديها بإخلاص وأن يتقمص الدور. الفرق الجوهري هو عدم ترتيب أي حق دنيوي سوى الدخول للجنة بالملابس

الرسمية!! هذا الالتزام الذي يفرضه الدين لا يقابله في الدنيا الفانية حق للملتزم به. الحق مجرد وعد. ثمرة لا يقطفها الملتزم إلا بعد نضجها وهذا النضج لا يتم إلا على دفء أعماله الطيبة وبعد عمر طويل.. وإلا فلا!!

نعود إلى سؤالنا وما صلة هذا بالحرية؟! علينا أن نعي تماما أن إحدى بديهيات إمكانية ممارسة الحرية هو الاختيار.. ودعامة الدين هو الإجبار.. من خلال تعليمات ملزمة لا يجوز ولا يصح الخروج عليها أو حتى مناقشة جدواها وهو ما لا ينسجم ولا يتسق مع فلسفة الحرية.. وهنا الطامة الكبرى التعارض التام بين مادة الإجبار "التعاليم" وبين المتاح "الحرية" ويصبح بالتالي الاختيار بينهما اختيار مطروح.

هذه المسافة الشاسعة بينهما هي ما تدفع بالكثيرين إلى رفض أداء أوامر الدين من عبادات وطقوس ليس لأنها تحجب اختياره وهي تجبره على أداء شعيرة معينة في وقت معين دون مناقشة أو محاورة التفاصيل الجدوى والتسبيب!! بل لتعارضها مع بديهيات الحرية وهذا هو ما فعله آدم منذ بدء الخليقة طرح تعاليم الله جانبا في مقابل حريته حتى لقد

قيل عن هذا المركز الناشئ من تنفيذ أحفاد آدم لتعاليم الدين أنه ليس سوى نوع من السخرة الإلهية أو التجنيد الإجباري الإلهي مدى الحياة لخدمة أهداف وأغراض الدين بلا مقابل أو بمقابل غيبي!! المودة إذن بين الدين والحرية غائبة.. وصلة الرحم مفتقدة.. ذلك لأن كل منهما يختلف عن الآخر في منهجه وهدفه. منهج الحرية الاختيار والتفاضل من خلال بدائل بمقابل، ومنهج الدين الجبرية بتنفيذ تعليمات محددة لا يجوز ولا يصح الخروج عليها بلا مقابل. رغم أن الغاية مشتركة بين كل من الدين والحرية وهو إسعاد البشر.. نظريا. أما من الناحية العملية فقد هجرت كثير من المجتمعات الدين في حدود تعارضه مع ممارسة الحرية.. وهذا هو مكمن المشكلة. فكيف يمارس شخص شعائر دين معين دون أن يتعارض ذلك مع حريته وهنا يستيقظ سؤال هام من غفوته.. أو ليست نصوص القانون الوضعي مثل تعاليم الدين تمثل قيدا على الحرية.. لازمتها إيه الفلسفة؟!

نعود ونكرر أن المسافة بينهما شاسعة أي بين الدين كشريعة إلهية والقانون كشريعة وضعية. فالقانون شرع للأفراد لحماية حريتهم. لم يشرع القانون عبثا حتى ولو

تجاوزت بعض نصوصه هذا الهدف إلى خدمة نظام الحاكم لكن مع هذا يبقى الهدف النهائي حماية حرية الأفراد فإذا افتقد هذا الهدف وشرع لخدمة فرد واحد فقط أو مجموعة أفراد كان هو والتعليمات الدينية سواء بسواء. الواجب الذي لا يقابله حق.. ثمن مدفوع بلا مقابل دنيوي.

لهذا السبب تقلص الاعتقاد في غاية الدين. فلم تعد المجتمعات المتقدمة توقن بالحق الاجتماعي في الجنة والمئات من حور العين واللبن والخمر والصبية!! بل باتت السعادة الأرضية هي هدف الإنسان. لذلك كان على الدين أن يبحث عن غاية أخرى اجتماعية.. غاية واقعية يجني ثمارها الإنسان من البرية وهو حي يرزق نتيجة لهذا حدثت طفرة هائلة في مفهوم الدين وصياغته وغايته واكبه أيضًا تغيير منهجه في محاولة جادة للتوفيق بين الحرية والدين.. بمزج النص القدسي بواقع الإنسان.. في أوربا لم يعد القسس يتحدثون عن الجنة والملائكة والشيطان والعذاب وأنهار اللبن والسمن والعسل والقشطة بل استنوا منهجًا جديدًا. لهجة حديثة يتحدثون بها عن الدنيا وقطف ثمار الدين والناس أحياء من خلال منهج سلوكي ومبادئ هدفها علاج الأمراض

الاجتماعية. يتحدث القس عن كل ما يهم الإنسان ويشغله في حياته وفي النهاية يطلب من الرب الرحمة لعباده مما يعانون منه.

نزل المنهج من برجه العاجي وتنازل وتواضع إلى أكواخ البشر يحادثهم في أمور دنياهم، وعلى النقيض منه تمامًا صورة الدين في الشرق التعالي على رجل الشارع ورفض النزول إليه ليحل مشاكله من مياه وسخة.. لطعام ملوث.. لإسكان في الخيم.. لصحة متدهورة.. لتعليم منحط.. لبطالة متفشية. لفقر مدقع.. للخبز المغموس في المعاناة.. بل بقى الدين فوق.. فوق في العلالي.. على الشوشة في مكان نائي يعاني الوحدة والغموض. مرددًا الكلام ":اللي لا يودي ولا يجيب "الأرض التي تقف على قرن ثور". "تعاقب الفصول بتغيير القرن"!! "الدنيا فونيا والزمن كباس".. "الأحلام الوردية بعد الموت".. أمور زهدها الإنسان بل أصابه الملل من تكرار ما سمع عن الانقياد والطاعة العمياء وما يترتب عليها من استسلام وتسليم بما هو كائن واتكالية سلبية. الإجبار ووليده الكراهية والعنف والإرهاب. تقديس الغيبية وإهمال الوضعية. ثلاث نوعيات من سرطان خبيث

أصاب المجتمعات بالوهن والضعف والتخاذل والعنف في غيبة حلول وضعية لمشاكل الإنسان.

الدواء ما عاد ممكنًا بعد أن وهن جسد أيوب. ما يحتاجه الجسد اليوم هو عملية جراحية تستأصل فيها الأجزاء المسرطنة. فالإنسان لا يتغير من تلقاء نفسه بل بإرادته، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. في هذه العبارة اعتراف بقانون الله الذي لا يغير أحوال الناس تلقائيًا. أي الذي لا يتدخل مباشرة لتعديل أوضاع فاسدة.. فهو لن يفعل ذلك لأن البشر أو هؤلاء القوم مطالبون أصلا بإحداث هذا التغيير من الأسوأ للأفضل.. هذا التغيير يجب أن يتم أولاً بتدخل إرادة الإنسان.. إصلاح ما بداخل النفس البشرية. إصلاح ما أفسده الدهر من قيمها ومبادئها حتى يتمكن بعد ذلك مثل هذا الإنسان المعدل أن يلج أعماق المشكلة أو الأوضاع الفاسدة ويغيرها.. والسؤال الذي يلح دائمًا على الساحة دون أن نعثر له على إجابة شافية. لماذا الجمود؟. لماذا رفض التطور؟. لماذا قصف الأقلام التي تنادي بالتجديد وإشاعة الفرحة والبهجة بتطبيق مفهوم جديد للدين بعد أن شاخ؟ هذه حقيقة شجرة يربو عمرها على مئات السنين

مازالت تسمَّد بنفس السماد العضوي، تروي بفكر الآباء العطن حتى تملحت التربة وما من سبب يدعو لهذا إلا استمساك الحكام المسلمين والأمراء بكراسيهم. يغرقون شعوبهم في شكل الدين لا جوهره.. والسبب ليس عزيزًا ولا مستحيلاً على الفهم.

نحن مطالبون حتى يستقيم الدين مع الحياة بتفاسير تخدم الوضعية لا الغيبية حتى لا يهرب الناس من الدين ضاربين بعرض الحائط كل ما فيه من إيجابيات.. أبدا إصلاح الحال ليس من المحال.. صلاح الدين قريب عندما يتصدى لتطويره أناس لا يقتلون ولا يكفّرون غيرهم لاختلاف النظر معهم، لكن للأسف الشديد إن هؤلاء الجامدون فرخوا الذعر والإرهاب العلني والتطرف الفكري فاختفى المفكرون داخل السراديب والكهوف كالخفافيش فلا أحد منهم يرغب أن يقتل أو يسحل.. لكن السؤال الذي يلح دائمًا على الساحة إلى متى الجمود؟. إلى متى رفض التطور؟.. إلى أن تشتعل الساحة كلها نارًا ولهيبًا وضحايا وسعيرا وقتلى. إلى أن يحترق كل ما هو جميل.. الحب

والسلام والتوحيد والإله إلى أن يتحول الحكام والأمراء المسلمون إلى أحذية وشباشب زنوبة في أقدام دول الغرب!!

إن الفرصة مازالت مواتية لم نفقدها بعد حتى نحافظ على قيم الدين.. ما بقى منها.. وليس أمامنا سوى التحذير إذا اشتعلت النار فأول من يحترق بها هي الأيادي التي استوقدتها.. الإنس الذي يصر على تجميد الدين في فريزر ورفض تعريضه للشمس والهواء وإطلاقه لينعم بدفء أشعة الحرية هؤلاء هم أول من يحترق على نار الثورات أكيد لم يقرأوا دروس التاريخ. أو قرأوا ولم يفهموا. أو فهموا ولم يتعظوا. لم يستوعبوا درس الإسلام في زحفه الرهيب على الحضارات وهو يفتتها ثم وهو ينهل منها ليصبح على مدى قرون طويلة منبعًا للحضارة يشع منها على جيرانه الغارقين في التخلف. وهو لم يصل إلى هذا المستوى إلا بالتجديد والتطوير من المنهج القدري الاستسلامي إلى الجرأة والإقدام وركوب مخاطرة البحث عن أسباب الحضارة والتحضر والأخذ بها. حقا إن الدين في محنة والاستمساك بكراسي الحكم ليس مبررًا لتجميد الأديان.. ما الضرر أن يحدث تآلف بين الدين والحرية. فلا يقف أحدهما للآخر بالمرصاد كما

سبقتنا إلى ذلك أوربا. ما المأخذ في أن نعقد بينهما معاهدة صلح يتفقان معًا على بنود الحياة لكل منهما. نلغي بمقتضاها الحق الإلهي الذي يؤيد الحكم المطلق. نفصل الدين عن الدولة فصلاً تامًا لا نغرق الدين داخل الحرية حتى لا تفسده ولا نقرن الحرية بجبرية الدين حتى لا تلغيها يتعايشان معا كل في نطاقه لا يعتدي أحدهما على الآخر فلن ينهض الدين بعقيرة عالية تطلق كل ألفاظ السباب على تحرر الغرب، ولا برفع اليد المضرجة بالدم في وجه المسالمين ولا باحتقار الحرية ومقتها ولا بقنص كل الفنون والآداب. ولا . ولا. ولا. عشرات اللاءات..

وليست منطقيًا بقاء شعوب الأديان في هذه الحال المزرية من التخلف.. لقد سئمنا نظرة الغرب لنا ماو. ماو الأديان. آكلي لحوم الحرية. فالمسلمون أكثر ناس في العالم تزعق وتهلل وأكثر ناس في الدنيا لا تعمل. متواكلون. مستسلمون. لقد قتل تسعة عشر أمريكيًا في الصومال. ماذا كانت النتيجة استقالة وزيرة الدفاع. ومات المئات وضربت بيوت في مأساة النوبارية والمقطم وحوادث القطارات.. دون ما مشكلة ولو حدثت في أمريكا لاستقال كلينتون نفسه..

لماذا؟! "مش عشان الناس عندنا وحشة. أبدًا.. الحكومة هي اللي زفت وقطران".. السبب يكمن في إصرارنا على رفض تغيير نظرتنا للأمور والاحتفاظ بالبرمجة الفاسدة القديمة البالية من عصور مضت وبالتفاسير الباهتة لجوهر الدين التي نحصد منها التخلف والانطوائية.

أنا صريع ديني رغم عشقي له.

لهذا فدعوني أغرد.. بالثورة عليه.

أنا لست أنا.

أنا نار تشتعل.

نار داخل بشر.

آتية من الماضي السحيق.

صريع ما أحبه.

ومازلت أحبه.

رغم أن الذعر يأخذني وأنا في حضنه.

الخوف مما أحبه.. على ما أعشقه.

أنا نار تحرق جرح الدين المتقيح.

تطهره.. لينبت مكانه زرع أخضر.

يحمل طعم الأمل.

أبدًا لست هذا الإنسان.
الذي يحتقر الأديان.
أمي كانت امرأة مسالمة.
وأبي صاحب العمامة كان طيب القلب.
لم يك فاشيًا ولا داهية
لهذا جئت لأثور على الغيبية والفاشية.
وصفقة يباع فيها الإنسان بثمن بخس
في دهاليز الحكومات العربية.
لا أرهب القانون.
رغم أن قاضيه سجنني بتهمة.
إنني خططت بالقلم حروفًا وكلمات وعبارات.
كونت قصيدة في حب الثورة
على القديم والمسلمات.
حطمت بها الأصنام.
فعلت ما فعله الأنبياء قبلي.
كنت أبحث بها عن الخلاص.
من معاناة الشك فيما لقنوني إياه.
الدين عماد الحياة.

والنار منتهاي لأنني قبلت حبيبتي "جنان"

ولما فعلت أحاطوا معصمي بالسوار.

ودعاً للنفايات الوزير والحاكم وقانون الغابات.

ما عدت أخشى دولة الإرهاب

ولا أمر السلطان أن أعشقه وإلا فالطوفان

أي طوفان وأنا أغرق ومعي وليدي في لحظتي الآن

كيف أعشق من استعمر الذات واللسان

ومن استلب اللقمة من فم طفلي

توهان.. توهان.. والسبب بسيط.

الطفل الصغير يمسح نشاقه في كم جلبابه.. لا يملك منديلاً.

والعجوز يبصق على الأرض. لا يملك منديلا.

ومسئولٌ يبصق من نافذة سيارته على رؤوس الناس يملك منديلاً.

لكن رؤوس الناس باتت أرخص من المناديل.

علينا أن ننقل الدين نقلة حضارية حتى ولو كانت علمانية "وضعية". لا بأس إذا كان هذا هو الطريق للإبقاء على الدين لا نلغيه لكن نطوره.. ننزل به من فوق.. فوق

من الأعالي إلى تحت.. تحت.. حيث مشاكلنا البسيطة نحاول أن نضع لها مفهوما وضعيا.. ولن يتأتى ذلك إلا بالتصدي لها بتفاسير جديدة للكتاب. لن يفت في إرادتنا ادعاء تأليف الرسول له! ولن ندخل في سفسطة حول ذلك فعظمة الكتاب في مضامينه وليس لشخص مؤلفه.. ليست هذه قضيتنا ولن تكون.. إنما هدفنا الأساسي العثور على صيغة جديدة نفسر بها الآيات المحكمات. لقد حاول قبلي كثيرون وفشلوا لسبب بسيط جدًا.. "الخوف".. ولم يكن الفشل سوى تكرار لفشل سابقيهم الذريع.

نحن نريد بعث الدين في ثوب آخر.. بإنبات بذرته في أرض بكر وسقيه من منابع الفكر والمنطق والعقل.. نحن لا ننادي بهجر الدين بل ننادي بتنقية غذاء الروح من شوائبه التي طغت عليه. فلم يعد باقيا منه سوى الشوائب. نحن نريد الدين. ليس لذاته بل بتطويعه لخدمة أغراضنا في التقدم والحرية والرخاء.. بإحلال صيغة جديدة مختلفة تمامًا عن كل الصيغ البالية.. ثوب جديد.. رداء مبهر للعقل قبل النظر..

نحن أناس عاشوا في قطر امتزج الدين بترابه لا يمكن أن نلغيه بجرة قلم كما فعل كمال أتاتورك، لكن بوضعه في المكان الصحيح. علاقة بين الإنسان وربه. لا دخل للدولة في ممارسة شعائره. لا وزارة للوقف ولا أخرى للأزهر. ولا مؤسسات دينية تتبع أجهزتها. فالدين علاقة خاصة جدًا علاقة متصلة بالضمير. إذا كنا نريد حقا للدين الاستمرارية علينا أن نقوي الضمير الإنساني وأن نبعد الدين عن السياسة. عن الحكم. عن الدولة. عن أي مصدر إزعاج له من الدولة.. علينا بخصخصة مؤسساته. لقد بات الدين عقيما بحبوب منع التطور الذي تبلبعه الدولة له وعلينا أن نوقف ذلك وفورا إذا كنا حقا نريد أن نغير من صورة الوحش الخرافي لدى متحضري الغرب.. وأن نلجأ لتفاسير تخدم معاني مفتقدة لدينا معاني أرضية واقعية.. وليست هذه مهمتي بل هي من صميم مهمة شيوخ أجلاء وإذا عجزوا علينا بتفريخ غيرهم ليقوموا بتلك المهمة الجليلة الصعبة.. ليس مستحيلا أن نؤمن بالدين وفي نفس الوقت نطوره وهذا هو الظلم الرابع أو البعد الرابع إننا رغم حبنا المكشوف عنه الحجاب لديننا ودفاعنا المستميت عنه إلا أننا نحاول قتله بمنع التطور عنه بحبسه

في قمقم بعيدًا عن نداءات التقدم. بتنا كالأم التي تمنع ثديها عن طفلها.. بل تحبسه بعيدا عنها حتى أفل فكره.. وانطوى عقله.

إذن لم يعد أمامنا سوى أحد أمرين إما أن نلغي الدين أو نطوره. بغير هذا فالعقل القومي إلى زوال. أنه تحذير وإنذار. وليس تهويش أو هرش فكر ولن يتم هذا إلا بالتوفيق بين متطلبات الحرية وضرورة الدين والحاجة لعقد مصالحة بين الاثنين.. تزاوج.. لينجب المجتمع مولودًا. هو في الغرابة أكثر من ميلاد المسيح.

المعادلة الصعبة

تزاوج الدين بالواقع

الحرية + الثورة + الدين = ؟!

الحرية + الدين = !!

الديكتاتورية + الثورة = ×

الثورة + الحرية = ١

أبعاد المحنة

الراصد لحركة الدين يجد من خلال رصده أنه أي "الدين" لم يتجاوز مكانه منذ مئات السنين. مقعد بعد أن بُترِت قدميه وقُطعت أطرافه وما عاد يملك سوى لسان الكلمات!! مفهوم غيبي يحاول مفسروه الدفع به إلى شرايين الحياة في غيبة فلسفة واقعية فباءت محاولة المزج بين الماء والزيت بالفشل الذريع بعد أن طفا على السطح معلنًا تمرده على بدائية المحاولة التي تمت دون دراسة أو تخطيط وضد طبائع الأشياء فمشاكل الإنس الحياتية من فقر وجهل ومرض وأمية تعليمية وثقافية لا تحلها غيبية الدعوات أو صياح القراءات أو أداء العبادات. ونتيجة لعجز هذا المزج الغيبي بالحياتي تحور هدف الدين الأسمى من وسيلة "إسعاد" البشر إلى غاية "أداء" مجاميع من طقوس العبادات يلزم البشر بأدائها!!

المستطلع لهدف الدين على خريطة المجتمعات منذ بداياته يجد أن سبب تشريعه ليس مجرد أداء تلك الطقوس

وإلا كانت نهايته التقوقع والضمور بل هدفه سعادة البشر وتقدمهم، وسيلته في تحقيق تلك الغاية جبرية التعليمات.. وفرق كبير بين أن يكون الدين هدفًا في حد ذاته بأداء طقوس العبادات وبين أن يكون وسيلة لتحقيق طفرة إنسانية..

في الحالة الأولى عندما يصبح "غاياتي" فمن المحظور تعديل أو تطوير هذه الغاية لا لسبب إلا لأنها هدف في حد ذاتها.. بعكس ما إذا كان الدين وسيلة فالتغيير والتطوير يدعمان تحقيق غاية إسعاد الإنسان. وهذه الفلسفة الأخيرة أخذت بها كثير من المجتمعات فعدلت وغيرت وطورت في أحكام الشريعة.

لا جدال حول هدف الدين "إسعاد البشر" والذي لا يمكن أن ينضوي تحت رايته تعذيب البشر وإيلامهم فإذا حدث وتحول الدين عن هدفه وهو الحادث الآن بعد أن تمحور إلى تحقيق غاية أداء الطقوس فقد انحرف عن هدفه الأسمى وهو إسعاد الناس وافتقد حكمة تشريعه وعلة تواجده على ساحة المجتمعات وكان أن تملحت التربة ووهن الجذر وبدأت شجرته في الذبول وأوراقها تتطاير وأزهارها تتساقط.

وهو ليس عيبًا في الدين بل في الجنايني المهمل الذي أخفق في رعاية الشجرة وهو يبث أخيلته المريضة وتفسيراته الغيبية في عقول السواد الأعظم من الناس من خلال ميكروفونات المساجد والإذاعة والتليفزيون وعلى صفحات الصحف والمجلات وهو يبتعد بالدين لأقصى مسافة ممكنة عن مشاكل جمهرة الناس التي تتحرق شوقا إلى اختراق مدرعات الدين لحصون مشاكلهم المزمنة من فقر ومرض وجهل مزمن وفساد وإفساد عشش وأمراض اجتماعية استفحلت فالابن يقتل أباه والأم تلقي بوليدها في النيل والأب يغتصب ابنته والسارق والمرتشي والنصاب لا تطولهم يد القانون فهي إما عاجزة أو مبرمجة لخدمة أمن السلطة. وما عن سبب يدعو إلى هذا التجاهل المفرط لأماني الناس وأحلامهم سوى منافقة الحاكم وتقديم فروض الولاء والطاعة بغية الكسب المادي أموال يسيل لها اللعاب من صناديق النذور وأراضي الوقف وحسابات بنك اقتراض الموظفين السناكيح!!

واستطاعت فئة الطواقي الدينية بفنية متقنة تحسد عليها تحويل تلك الأموال بقدرة قادر إلى جيوبهم.. فلماذا إذن تعب

الدماغ وتوظيف الدين لتحقيق سعادة الإنسان وبالتالي ضاعت فرصة ثمينة تهيأت في المساجد وحلقات الدروس والمحافل والندوات بعد أن نسفت تلك الفئة بضحالة فكرها تحقيق غاية سعادة الإنسان.

إن المتابع لتطور شجرة الدين يجد أنها ما ورقت وأثمرت إلا بريها بالمياه العذبة ولم يحدث هذا طفرة واحدة بل بالتنقيط الديني المرحلي للإيمان والكفاح العقائدي ونهج الاستمرار في استنباط بذور جديدة وحرث الترب وتعريضها لشمس الحرية فكان أن تحولت الشتلة" إلى شجرة باسقة مزهرة. لكن بعد أن بدأت تلك الشجرة تشيخ وتذبل أوراقها كنتيجة منطقية لتحول الوسيلة إلى غاية والكف عن مبادرات ضخ المياه العذبة بات علينا أن نحلل واقع التربة المنزرعة فيها شجرة الدين قبل أن نقترح العلاج.

خطئان شائعان انزلق إليهما المفسرون والمتفقهون ربما بحسن نية.. ربما بقصد متعمد للإساءة للدين وهم يحاولون ضخ غيبية الدين في شرايين الحياة. أولهما: تغييب العقل البشري بإقناعه بأن الغيبية هي العصا السحرية لعلاج المشاكل الحياتية.. الفقر والمرض والأمية.. فالدعوات بديل

الكفاح والعمل.. والأمية ليست عيبًا فقد كان الرسول أميًا رغم أن أمية الرسول مشكوك فيها من خلال رده على جبريل. ماذا أقرأ وفرق كبير بين ماذا أقرأ وما أنا.. ومن هذا المنطلق يتم فتح عيادات لعلاج الأمراض المستعصية وتسكين الآلام بكلمات من الكتاب مقروءة أو في أحجبة.

ثانيهما: أن هذا المزج الغيبي بالحياتي تعدي مرحلة المكنون إلى الإفصاح للملأ على لسان خطباء المساجد ومذيعي الإذاعة والتليفزيون.. وبدأ الناس يستنشقون الخرافة من الذبذبات فسمعنا من يجسم الجن اللامنظور إلى حقائق ملموسة مادية وما يستتبعها من أكل ومشرب وتزواج وتناسل، وسمعنا من يعلل مشاكل المجتمع بأسباب غيبية.. فالزلزال غضب من الله. والفقر اختباره. والمرض قدرته والجهل إرادته والديكتاتورية لعنته والنتيجة كما نراها في الشارع الإسلامي غياب فكر الواقع وانحطاط فكر المزج بين الغيبية ومتطلبات الحياة..

هذا المزج رغم عنفه وقسوته لم يؤتِ ثماره المرجوة ذلك لاختلاف المادتين إحداهما: إثيرية، والثانية: لها طعم ورائحة الحياة لهذا كان علينا استنباط بذور فعالة لاستنبات

شتلة فريدة بعد إعمال التزاوج بين المادين المختلفتين. مثل هذا التزاوج أصبح ضروريًا وحتميًا لأن خيار فصلهما فصلاً تعسفيًا أو الإصرار على استمرارية المزج ما بين الإثيرية ومادة الحياة أصبح عقيمًا.. لكن كيف يتم التزاوج بين مادتين مختلفتين؟! بتحويل المفهومات الغيبية الإثيرية من طقوس وعبادات إلى معاني حياتية لتصبح بمثابة البخار الذي يدفع قاطرة الحياة إلى محط الارتقاء والإبداع. وبذلك يتحول الدين من هدف في حد ذاته يحقق الإنسان من خلاله مجموعة من الطقوس إلى وسيلة يستعين بها في علاج مشاكله الحياتية الاجتماعية..

إن مظاهر الدين التي تزف عيوننا في بيوت الله وولع الناس بأدائها لو توقفت عند محط هذا المعنى.. مجرد أداء طقوس دون ما هدف سوى إرضاء الله سبحانه وتعالى والذي يهمه في المقام الأول حتى نسترضيه ونبجله ونقدسه أن ننهض بأنفسنا. مثل هذا الأداء إذا لم يؤدِّ إلى نفع أو إذا عجزنا عن استلهام العبر من ممارستنا تلك الطقوس لتدفعنا إلى التحرر والتطلع إلى مستقبل أفضل تصبح هي والعدم سواء وتعبر بالتالي عن فشل الدين في غايته، ذلك أن تلك

الطقوس لا تمارس لذاتها بل هي مرتبطة بمعنى آخر أعم وأشمل. تحرير الإنسان من الحاجة وصولا إلى رفاهيته وهنا تكمن فلسفة الممارسة. بحيث يمكن القول إن استيلاد هذه الفلسفة هو محور تقدم الدين بل هو أحد أسباب شفائه ونهوضه من عثراته المتكررة ورد الصفعات الموجهة إليه من الغرب باتهامه بأنه سبب تشيع الإرهاب العالمي وهذا لن يحدث على أيدي جلاديه من المفسرين بل على وهج العقل وفرضية المنطق.

فالغاية الحياتية التي يمكن تحقيقها من ذلك لا تتم قسرًا أو إجبارًا أو إرهابًا بل بمحاولة استنباط بذور جديدة نستزرعها في أرض ممهدة تربتها صالحة يرويها نبع دائم من المياه العذبة. هذه البذور الجديدة ليس من العسير استنباطها متى كان العقل المستنير معملها الوحيد وذلك بإحداث نوع من التهجين أو التزاوج ما بين مفهومات الدين وإمكانات العقل.

إن الوقوف عند محط المعنى اللفظي أو الحرفي لأي نص في كتب الدين دون التحرك إلى محطات أخرى للمعنى المستخلص أو التوهم بتحرك القطار رغم توقفه لهو أشد

وطأة من الاعتراف بحقيقة توقفه. فالمعنى اللفظي أو الحرفي الذي يصر عليه المفسرون ويشيدون له أبنية ويغلقونه بأبواب ومزاليج ومتاريس ما هو إلا نوع من الدجل الاجتماعي نهايته الحتمية وقف مسيرة التطور بل وحقن شرايين المجتمع بكافة أنواع فيروسات العجز والتحول إلى منظومة التخلف والانطواء الاجتماعي.

هذه المنظومة التي يلحنها الآن الغرب المتجني بكل آليات العدوان وهو يحاصر الشعوب العربية حصارًا رهيبًا ويجهض لها كل مبادرة في التقدم والارتقاء راكبًا ظهر بعض الأنظمة العربية متخذًا من أمنها ذريعة لفرض جبروته وسيطرته وعنجهية استعماره وشاهرًا آليات عدوانه في تبجح ولا مبالاة لا يراعي حرمة شهر مقدس وهو يدك بعدوانه أطفال أبرياء جريمتهم أنهم ولدوا مسلمين!! للدرجة التي يمكن معها القول بلا مداراة أن المقصود هو الدين يفعلون بشعوبه مثل ما فعل الأسبان لكن بأساليب مختلفة: الترهيب والتجويع والتخويف قاصدين في كل هذا رمز قوة تلك الشعوب!! في محاولات مستمرة لتحطيمه لتصبح شعوبًا في ذمة التاريخ بلا رمز وحتى نفوت عليهم هدفهم فنحن

مطالبون "المحتكمون إلى العقل" باستخلاص معاني جديدة لمفهوم الدين تشد من أزره وتقوي من عزمه في مواجهة من ينادي بخفقه مثل بيضة ممششة قبل قذفها في مزبلة التاريخ فبغير استخلاص هذه المعاني التي تدفع إلى شرايينه الهامدة نبض العقل ستنهدم كل تحصينات الدين أمام إغواء دعوات المطالبين بإلغائه من على خريطة الحياة ذلك لأن دعوات إلغائه تستند على حجج قوية أهمها فصل الدين عن أمور الدولة باعتباره معوقًا للحياة المدنية والحق يقال إن المفسرين بتفاسيرهم الهزيلة لمحكم جواهر الدين التي تخدم في الغالب الأعم أغراض السلطة أو مصالحهم الخاصة على حساب مصالح الناس المتضررة من إعمال تلك التفاسير.. مثل هؤلاء المفسرون يسندون دعوات إلغاء الدين من على خريطة الحياة.

فعندما ينحدر الفقيه إلى الحديث عن تفاصيل الجنة من تخصيص بنات حور العين لكل رجل ينكحهم كما شاء حديث رؤى عين فهو يضر بمفهوم الدين.. وعندما يستطرد واصفًا أنهار اللبن والأرائك والصبية والأبكار وصفًا تفصيليًا لكل صغيرة وكبيرة وكأنه آت منها على التو ثم يجد آذانًا صاغية

وقلوبًا مطمئنة لما يقول ولا يواجه بالاستنكار والاستنفار لأحاديث عفا عليها الزمن فهي الطامة الكبرى.. ذلك أنه يجب أن نفرق في تفسير كتب الأديان بين إطلاقية المعنى وتخصيصه أو بمعنى آخر استخلاص معنى كلي من معاني تفصيلية وهو ما يمكن تسميته بفلسفة الشمولية أو التعميم.. بهذه الفلسفة نستطيع الصعود إلى قمة الدين حيث رؤية الكليات من العلو الشاهق والبعد عن التفصيلات المملة العقيمة.

من هنا.. من القمة نستطيع الإلمام بالأرض جمعاء.. هضابها ووهادها وديانها وأنهارها أشجارها وثمارها.. رؤيا شاملة متكاملة تندمج فيها التفاصيل داخل سيمفونية واحدة فيتحول مفهوم الجنة من فاكهة وخمر ونساء وولدان وألبان بكافة أنواعها حيواني أو آدمي إلى معنى أخ أعم وأشمل وهو الإثابة من خلاله يستطيع الإنسان أن يطلق لعنانه الخيال لتحقيق رغبات أخرى غير تلك التي ورد ذكرها رغبات تستحوذ على اهتمامه حاضرًا مستقبلاً.. في الحاضر.. الكمبيوتر.. الدش.. التليفزيون الملون.. الفياجرا.. مونيكا.. كلنيتون بديل الولدان وفي المستقبل التنزه على شواطئ

المريخ.. الصعود إلى نبتون.. التجول بين الكواكب في مركبة فضاء!!

فلا يمكن والحال هكذا أن تقتصر متع الجنة على النساء والخمر والألبان والولدان بل تشمل مشهياتها ما ذكرناه من أمثلة وما لم يأتِ ذكره.. لكنها في النهاية لا تقصد لذاتها بحرفية الكلم.. بل تعني الإثابة وهو المعنى الشامل المطلق الأعم.

وهذا هو مدخلنا إلى المحاور الأساسية التي يمكن استخلاصها من الدين.

التفسير القمي والسفحي للنص الديني

إن رؤية من يعتلي جبلا تختلف عن مثيله القاعد في السفح. من القمة يرى كل ما هو أدنى منه من أنبتة وحيوانات وإنس وتضاريس.. مرتفعات ومنخفضات ووديان هذه الرؤية الكلية تمكنه من المناظرة بين الكائنات وتحديد معايير ومقاييس جماعية والخروج بنتائج كلية تربط بينها وهي تشرب وتأكل وتتقاتل وتتصارع وتتناسل وتموت.. يستطيع من هذا الارتفاع الشاهق أن يلم باحتياجاتها وممارستها وأساليب الصراع والتفاهم وأن يستخلص بالربط بين هذه العناصر نتائج كلية مشتركة تساعده في تحديد وسائل تلبية حاجاتها وأساليب الممارسة تمامًا مثل قائد الجماعة وهو يحاول إيجاد صيغة لتحقيق التوازن بين الصراعات المختلفة بما لا يخل بمبدأ الحياة لكل فصيل، وهذا بالضبط حال من يحاول تفسير النص الديني تفسيرًا كليًا. عكسه تمامًا القاعد في سفح الجبل.. يستطيع من موقعه هذا القريب أن يلم بكل التفاصيل الدقيقة لأي كائن على حدة بعد هذا يأتي دور الكليات بربط الجزئيات في نظرية عامة

وهذا هو دور العلم يبدأ بالتفصيلة وينتهي بالتعميمة بعكس النص الديني فهو يبدأ من حيث ينتهي العلم. فإذا خاض مفسر النص الديني في تجربة العلم ببحث التفصيلة للانتهاء بنظرية عامة فقد تجاوز الصائب من الأمور ولن نكون متجنين إذا ما قلنا إن هذا خطأ شائع وفادح لأنه يحطم قاعدة أساسية في تفسير النص الديني وهو منهج الكليات وحتى نترفع بالدين عن سفساف الأمور ونعدّه للانتقال نقلة حضارية عميقة باستخلاص الرؤى الشاملة الكاملة المعبرة عن روح العصر فليس أمامنا سوى منهج الكليات. فالدين يرى في الجسد الإنساني عظمة الخالق وحكمته إن ضمّنه كل هذه القوانين المحكمة التي تحكم نشأته واستمراريته وهدمه. كليات.. وهذا حق. لكن لا يحق لمفسر الدين أن يتجاوز هذه الحكمة العظيمة ويدخل في تفصيلات عمل الجسد من خلال منظومة الدين.. كيف يتنفس وكيف يتناسل ومتى يمرض ونوع المرض وكيفية علاجه. أي لا يبحث في تشريح المادة لكن يترك هذا للعلم.. بعدها يستطيع باكتشافات العلم أن يقول عنها.. معجزة من معجزات الخالق..

إن ما يعيب مفسرو هذا الزمن الأغبر التجاءهم إلى تفسير النص الديني بالرؤية العلمية وهذا خطأ بيِّن لأن مثل هذه التفسيرات توصلنا إلى استنتاجات قد تخالف ما انتهى إليه العلم وبالتالي تثور قضية تعارض أحكام الدين مع العلم وهكذا نضع الدين كله وليس النص المختلف بشأنه على سطح صفيح ساخن من الجدل قد ينتهي بنا إلى رفض الدين ليس فقط كشريحة بل كقيمة عليا من خلال إجابة منطقية على سؤال خبيث ما ضرورة الدين وقد أصبح عقبة في طريق التقدم الإنساني لتعارضه مع أولويات العلم.

بل يمكن القول دون أن نتجاوز منطقة الحظر الفكري التي فرضها الأزهر: إن غاية الدين هي وضع الخطوط العامة مع ترك التفصيلات للعلم.. خادمه المطيع.. نظرة الدين يجب أن تكون نظرة رئاسية.. من فوق. من العلالي من القمة كما تحاكينا.. أما العلم فنظرته سفلية وهذه النظرة تتفق مع مفهوم النص الديني المُنزل، فرؤية الله كلية رغم أنه هو خالق التفصيلة وليس ثمة تضارب بين هذا وذاك لأن لكل مجال يختلف تمامًا عن مثيله لدى الآخر فتفصيلات العلم تتجمع وتتكامل حتى تنتهي إلى النظرية الشاملة التي هي

جزء من قانون الله، أما الدين فهو يبدأ من حيث ينتهي العلم كما سبق أن أوضحنا. الدين حكمة والحكمة عامة شاملة. والعلم بحث واستقصاء واستنتاج وهو تفصيلي فالطبيب الذي يبحث في سبب الوفاة عليه أن يشرِّح الجثة ويحلل الأنسجة والإفرازات والدم ويخضع شرائح من خلايا الجسد لاختبارات معملية بعدها يستطيع أن يدلي بدلوه عن سبب الوفاة. سكتة دماغية.. حمى معوية.. خلايا سرطانية.. لكن نظرة الدين مختلفة "أجله انتهى" نظرة عامة شاملة لا تطرق إلى الأسباب بل مردودها الإرادة الإلهية نظرة تعتمد على اليقين الايماني وليس التسبيب العلمي.

من أولويات الدين أن لا نبحث عن إجابة علمية.. لماذا؟! لأننا لن نعثر على مثل هذه الإجابة وإذا لوينا الحقائق واستنطقنا الإجابة فستتعارض حتمًا مع صحيحها فبدء خلق البشرية صلصال وروح الله أي طين + قانون أما تفصيلات النظرية الداروينية فتجزم بالأميبا ثم بالانقسام فالتطور. الكيف في العلم ضرورة من ضرورات البحث والعلة أساس الوصول إلى نتائج، أما الكيف والعلة في الدين فلا أهمية لهما. فلا يهم الكيفية التي تم بها تحول الطين إلى صورة

إنسان ولا مراحل هذا التحول، المهم فقط أنه تحول والأهم أيضًا الإيمان بحدوث هذا التحول دون الانسياق وراء نظريات وتحليلات العلم لأن استنباط الكيف الديني تفصيلة من التفاصيل قد تتعارض مع الكيف العلمي ونصبح حيال هذا التعارض أمام اختيار صعب ما بين مسلمة الدين والحقيقة العلمية والذي قد ينتهي إلى رفض الدين كعقيدة كما هو الحادث الآن في أوربا.

إن الوصول إلى إجابة علمية يستدعي من الباحث التشريح ثم الاستنتاج قبل أن يضع نظرية عامة أما الإجابة الدينية فتعتمد على تفسير ظاهر النص وفرق شاسع ما بين التفسير والبحث..

بديهيات الدين تحتم الإيمان به كقضية عقائدية دون الولوج في البحث والاستنتاج فالعلم له نظرية في إمطار السماء لابد من خلالها المرور بظواهر طبيعية.. البخر.. التكثيف ملامسة هواء ساخن.. مثل هذه الظواهر لا يبحثها الدين بتفصيلاتها أي لا يتصدى للكيف أو العلة بل يرها كلها إلى قدرة الله فهو الذي ينزل المطر. ظاهرة إلهية غيبية يستحقها البشر أحيانًا بالدعاء وصلاة الاستقساء أثناء فترات

الجفاف وكلها تعتمد على المسلمات الغيبية.. قدرة الله.. وساطة الدعوات رغم أن المطلوب تحقيقه ظاهرة مادية "سقوط المطر" وهنا تكمن المشكلة طلب تحقيق غاية مادية لدائنها أرضية عن طريق وسيلة غيبية.. حاجات تدوخ!! وللأسف فإن إحدى أسس الفلسفة الإسلامية الاعتماد على الغيبية لتحقيق غاية واقعية على مسرح الحياة لهذا فلا عجب أن نرى على الساحة من يتردد على عيادات تشفي الأمراض بتلاوة القرآن!! عمليات احتيال ونصب يقع فيها بسطاء الناس يستغلون فيها قدسية الدين وهذا هو مكمن تخلف المسلمين محاولة تحقيق غاية اجتماعية أو إنسانية أو علمية عن طريق الغيبية.. بل لقد وصلت العدوى للبساط الأخضر ولاعب الكرة يسجد بعد تهدفيه وكأن الله قد دفع بالكرة للمرمى مستعيناً بقدم اللاعب أية شعوذة تلك!! والله حرام وظلم أن يصل تفكيرنا إلى هذا المدى من التخلف.. ليس معنى هذا رفض الدعوة لله سبحانه وتعالى لكن ليكن دعاءنا لتحقيق غاية غيبية.. فتتسق الوسيلة مع الغاية فإذا دعونا الله فندعوه ليغفر الذنوب أو ليدخلنا الجنة أو ليبعد عنا الشياطين أو يزيح عنا الهموم لكن لا ندعوه ليلبي لنا احتياجاته اليومية الإنسانية

المادية "يا رب جوزني" يا رب ولد".. يا رب مليون جنيه" وهذه إحدى أسباب تدني المسلمين وتواكلهم وسلبيتهم واستسلامهم فهم مازالوا ينتظرون تحقق دعوات الآباء والأجداد أن ييسر الله حالهم وأن يرزقهم من حيث لا أحد يدري.. لذلك فمن الأهمية بمكان فك هذا الارتباط العضوي بتصحيح مفردات المنظومة الإسلامية فنطلب تحقيق الغاية الغيبية عن طريق وسيلة غيبية أما الغاية المادية فوسيلة تحقيقها معروفة: الكفاح والعمل. ورغم الاختلاف البَيِّن بين العلم والدين في مقومات كل منهما إلا أنه يوجد تشابه كينوني.. فقدرة الله النابعة من مفهومات الدين الغيبية يقابلها قانون الله أساس العلم الكوني لذلك يجب أن نفرق هنا بين عقيدة العامة في جدوى الغيبية لتحقيق أمور واقعية وبين العقل الذي ينكر أن تتحقق غاية إنسانية بوسيلة غيبية.

لكن هذا لا يعني أن نتعامل مع طقوس العبادات باستخفاف كما يحلو للبعض ذلك لأنها تعبر عنا الإيمان كقضية مطلقة في الأديان. ورغم أن مادة الإيمان أثيرية غيبية إلا أنها تتحول إلى صفة الواقعية إذا انصبت على قضية إنسانية.. فإيمان العالم بأبحاثه يدفعه إلى تكملة مشواره

العلمي بحيث يمكن القول في النهاية إن الإيمان أحد الثوابت في تكوين شخصية الفرد داخل المجتمع بل يتعدى إلى بلورة منظومة شخصية المجتمع ذاته من مجتمع فوضوي منحل إلى ملتزم ومؤمن بعقيدة. فالإيمان صيغة اجتماعية على الفرد أن يتدرب عليها حتى ولو كان الإيمان بخرافة. هذه الصيغة يمكن توظيفها للإيمان بقضايا أعم وأشمل وأجل كالحرية والعدالة والمساواة نعم نتدرب على الإيمان بخرافة أو بغيبية للوصول إلى اليقين بقضايا أخرى تخدم الفرد والمجتمع. المهم أن نعرف كيف نؤمن وكيف نتدرب على هذا الإيمان حتى تكتسب إرادة الفرد اللياقة والقدرة. تمامًا مثل الجندي الذي يؤمن بوطنه. نستطيع من خلال هذا الإيمان توظيف إرادته الناضجة لأمور قد تصل إلى حد الموت في سبيل عقيدته.. وهذا ما حدث أو قريب منه مع الأوائل.. فالإيمان بالخلود في الجنة كان يدفع آلاف المسلمين لخوض غمار الحروب طلبًا للموت لأن الموت كان يعني الجنة. وهذا أيضًا كان الحادث مع طائفة الحشاشين بعد ليلة في أحضان الجواري وسطلة المخدر يندفعون ليقاتلوا الموت في كهوفه وينتصرون عليه. فيا ليتنا نفعل مثلهم. وأن يكون

لدينا إيمان بأمر ما. نوظفه لتغيير واقعنا المشوش الهش. إيمان نتدرب عليه بغية الوصول إلى اليقين بقضايا تخدم الفرد والمجتمع لا مجرد الوقوف على عتبتها.

بهذا المفهوم نستطيع أن نصل إلى معاني يقينة ما أحوجنا إليها نغير بها ما نحن فيه من تردي وإخفاق وهذا ما فعله اليهود حيث وظفوا خرافتهم "أرض الميعاد" لتحقيق حلم الدولة الإسرائيلية التي جمعت شتاتهم من كافة أنحاء العالم.

فما يعنينا هنا هو توظيف الخرافة لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية أو إنسانية. لا نتداولها ولا نقف على أعتابها بل نتجاوز تلك المرحلة إلى ما يفيد المجتمع ويطوره.. فالخرافة آفة لو تمكنت من المجتمع لحولت نسيجه المتماسك إلى ثقوب غربال بعد أن يصبح الناس ضحايا أكاذيب شتى تمتطيهم.

لهذا كان علينا حتى لا نغرق في بحار ظلمات الجهالة المفرطة أن نلجأ في تفسير محُكْم الآيات بما يؤدي بنا إلى هذا الهدف. توظيف الخرافة لتحقيق غاية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية وهذا لن يتم إلا بالتفسير القمي من

"القمة".. فلو قمنا بتفسير آية "قل هو الله أحد الله الصمد" بالتفسير المادي الأحادي فستنتهي حتمًا إلى أن الله واحد لا شريك له وأنه لا يلد، فليس من خصائص قدرته الإنجاب ولم يولد فلا أب له ولم يكن له كفوًا أحد فلا مثيل له في البشر أو الجن.. مثل هذا التفسير الذي نخلص منه إلى تجسيم الله من خلال تشبيهات مادية تصمه بالعقم وبالأحادية تفسير ساذج يراه فقط القابع في السفح كمدركات حسية تفصيلية لا معاني فلسفية، أما معتلي القمة فله رؤى أخرى شاملة مطلقة حول وصف الله بأنه الصمد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. فإذا قلنا إن هذه أوصاف القانون الإلهي فلم نحد عن جادة الصواب فهو الصمد الذي يسود ولا يسوده أحد.. واحد لا متعدد.. لم يولد لأنه أبدي.. ولم يلد لأنه مطلق.. ولم يكن له كفوًا أحد فلا مثيل في كماله.. فهو القانون الكامل..

مثل هذه التفاسير تضع على عاتقنا مسئولية كبيرة تجاه النص لأننا في هذه الحالة مطالبون بإعمال عقولنا للكشف عن أسرار فروع هذا القانون الصمد الأحد المتكامل المستغلقة على الفهم وأن نفسر ظواهره المختلفة الكلية دون

الوقوف على عتبة التفسير التفصيلي بل يجب أن نربطه كما أشرنا بأمور أعم وأشمل حتى يتواصل الدين مع فروع الحياة ويجري في عروقها وبهذا يتحول الدين من غاية يسعى الإنسان لتحقيقها إلى وسيلة يهدف عن طريقها لتحقيق غاية أشمل وأعم وهي سعادة الإنسان.

وما ينطبق على هذا النص نستطيع أن نعممه على كافة النصوص حتى تلك التي تتناول حوادث فردية وذلك بتأصيله بغاية كلية مثل الإثابة أو العقاب.. التحذير أو التمجيد. الحب أو الارتقاء فتتدرج تحت حكم هذه القواعد الكلية العامة الآمرة عشرات النصوص. وبإتباع هذا المنهج يمكن لنا اختصار الجهد والوقت في فهم النص الديني المقدس بعد استدراجه إلى ماكينة العقل والمنطق ومن هذا المنطلق يكتسب هذا النص الخاصة الإنسانية عندما يمتزج بدماء وعظام البشر وهو يرتبط بالواقع.

بالتالي يصبح لدينا منهجًا في تفسير النص الديني يعتمد على رد المفهوم التفصيلي إلى أصل قضية كلية بحيث يخدم هذا التفسير واقع الإنسان وحاضره ومستقبله فيتحول إلى معنى حياتي يمنع انهيار مجتمعاتنا ويدعم بنيانها.

لكن يواجهنا سؤال مخيف مرعب. إذا كنا سنبعث الدين في شرايين الحياة.. فما موقف الحياة من العبادات؟. إذا كان الدين سيتزاوج بالواقع.. فكيف تتزاوج العبادات به. مع اختلاف لدائن صنعهما؟!

العبادات بمنظور حياتي

قلنا بإمكانية توظيف النص الديني لخدمة الحياة.. لكن السؤال هل يمكن توظيف طقوس العبادة لتحقيق هذا الهدف؟

لن نجد صعوبة في الإجابة على مثل هذا السؤال لو قمنا بصبغ قداسة تلك الطقوس بصبغة حياتية من خلال التعرف على الأهداف التي شرعت من أجلها وتحويل غيبيتها إلى أهداف واقعية تمس واقع الإنسان وتمتزج بـــ [حيواته].

إن أركان الإسلام الخمسة تعتمد فلسفتها على دعامتين فرضية الطاعة والأوامر الإلهية وفي طريقة أدائها تنهض إما على: أقوال كما في الشهادة، وأفعال كما في الزكاة والصوم، أو أقوال مرتبطة بأفعال كما في الحج والصلاة وهي جميعها ملزمة لكن تسقط فرضية أداء بعضها في أحوال عدم القدرة كما في الزكاة والحج كما تحجب فرضية الالتزام بها باستبدالها بتنفيذ فريضة أخرى كما في حالات كينونة المرض والسفر عند الصيام والتيمم في الوضوء. يتضح من هذا أن الفرضية الإلهية يحجب الالتزام بها في أحوال ويسقط أداءها بالاستبدال في أحوال أخرى لاعتبارات

حياتية وهو مبدأ هام أرساه الإسلام يمكن اتخاذه نبراسًا لحياة البشر يهديهم للطريق القويم.

ولكن ليس معنى هذا توقيف أحد الأركان الخمسة دون ما ضرورة تتحقق بضرر واقع على الفرد أو الجماعة بل يعني تقرير الإسلام للمبدأ في حد ذاته أنه لما أضيرت مصلحة الفرد وبالتالي مصلحة المجموع بتنفيذ طقوس أحد الأركان استقضلت عليه المصلحة. فما أروعه وإذا كان هذا كذلك مع أحد أركان الإسلام فما القول فيما هو أدنى؟!

لا أحد يتصور أن يكون سبب تشريع أركان الإسلام مجرد تقديس الإله بتقديم فروض الطاعة والولاء، بل هدفه ــ ولو كان هذا هو ظاهر الأمر ــ خدمة الإنسان والارتقاء بمستواه.. فالهنود والذين يقدسون البقر ويمنعون ذبحها يعبرون بتقديسهم عن التسامح.. حولوا التقديس الغيبي إلى مفهوم حياتي فإذا كان هذا هو حال من كنا نتندر بهم "هنود" فماذا أصابنا نحن؟!

هذا هو منهجنا تسليط الشعاع الحياتي على كهف الإسلام المقدس نستخلص من براثن أهل الكهف مفهوم التطوير لتغيير المجتمعات إلى الأفضل.. نقتحم عش

[الذنابير] يحمينا درعنا الديني بلدائنه المصنعة من قناعة أنه ما من سبيل للارتقاء إلا بإحدى وسيلتين، أما هدم الدين على رؤوس أصحابه أو إحداث تغيير جذري في منهجه ليتحول هدفه إلى إسعاد الناس لا إلى نكدهم وتعذيبهم فمن منا يرغب في هدم الدين؟!

بالنسبة لأركان الإسلام فلن تخرج عن كونها أوامر علوية على البشر فرضية طاعتها. مثلث إسلامي قاعدته البشر وضلعاه أوامر علوية + فرضية الطاعة داخل نطاق قاعدة إلزامية يخل بها أي انتقاص في أحد أضلاعها أو تعديل في فلسفتها. أول هذه الأوامر العلوية الشهادة التي هي إقرار بتوقيع الضمير موضوعه اعتناق دين الإسلام القائم على مبدأ التوحيد "الله .. الرسول.. الرسالة" المتشابه ظاهريًا مع التثليث" الآب والابن والروح والقدس"، قلنا ظاهريًا ذلك أنه في التثليث يتوحد الشكل والمضمون بتوحد الشخصية بخلاف المثلث الإسلامي فشخص الرسول غير الله رغم أنه تربطهما معًا الرسالة بعد أن انبثقت إلى وجدان الرسول فتوحدت معه توحدًا لا يمكن معه فصلهما.

والسؤال المهم ماذا تقدم تلك الشهادة للمسلم.. هي جواز العبور للعقيدة كمثل شهادة ميلاد الطفل بموجبها ينتمي صاحبها إلى أب شرعي فيكتسب بها المواطنة الإسلامية بغض النظر عن جنسية البلد. مثل هذه المواطنة العالمية المفروض فيها أنها تبيح لحاملها الانتقال من قطر إسلامي إلى آخر دون ما عوائق ودون اشتراط الحصول على تأشيرة البلد المدخول بل أكثر من هذا تعطيه حقوق المواطن الأصلي في الإقامة والاستقرار والاستثمار بل ويتميز بها عن غيره ممن لا يحمل نفس الهوية..

نعم هي صورة من صور التعصب لكنها ضرورية وملحه لمواجهة نوع آخر من تعصب أعمى تمارسه حكومات وشعوب أوربا ضد المسلمين باحتقار عقيدتهم وهم لاهون عنها بمنازعاتهم الطائفية وهذا ما شاهدته أثناء زيارتي لأوربا في الطرقات.. على الشواطئ.. في المطاعم. دائمًا يحتقرون المسلمين لذلك يجب علينا أن نشهر في وجوههم نصل نفس السلاح ولن نستطيع ذلك إلا إذا انتهجنا ضخ الدين في شرايين الحياة، فالشهادة هي توثيق للهوية الدينية مثل الشهادة الجامعية التي تؤهل حاملها لشغل وظيفة

معينة وهي ضرورية وحتمية لتأهيل المسلم لتأدية بواقي أركان الإسلام..

ثاني هذه الأركان الصلاة وبعيدا عن التبريرات الساذجة التي تدور في النطاق المادي رياضة ونظافة والمعنوي خشوع وتأمل بعيدا عن كل هذا فهي تعبر عن المساواة المطلقة، الكل يؤدي الطقوس بطريقة واحدة سواء الوضوء أو الصلاة.. تحت عنوان تساوي الرؤوس.. الكل يتساوى لا يستثنى واحد لأنه وزير ولا يعفى من الأداء لأنه حاكم.. بل يقف الحاكم والوزير في صف مع الصعلوك والخفير مساواة أعلى من تلك التي نادت بها الثورة الفرنسية. هذه المساواة تدفع الناس أو المفروض أن تدفعهم إلى الحب ونبذ الكراهية والتسامح والتواضع.

إن الصلاة تحمل معنى آخر أسمى بكثير من مجرد حركات يأتيها الفرد. فتماثلها لكل الناس وأداؤها في وقت معين تعني التوحد.. توحد الأداء في سيمفونية واحدة رائعة في النهاية هذا التوحد يعني القوة. يعني الوحدة. والتوحد هنا ليس منظوره فقط توحد الناس مع بعضهم بل أيضًا توحد الشخص مع ذاته أمام مبدع أو ملهم إله كبير يملك كل

المقادير يقف في معيته الإنسان لا يخالفه بل يحبه. والحب هو ضمير الإبداع ويأتي السؤال العويص ماذا يهم أن يتوحد الإنسان مع نفسه أو يتمزق؟!

إن ممارسة الوحدة مع النفس.. هو نوع من التدريب على قوة إرادة الفرد داخل مجتمعه وثقته بنفسه أمام المحن والأزمات والمهام العظام فعندما يواجه الإنسان الله دون أن يخافه أو يخشاه لن يتنازل عن حقه أمام عصا حاكم أو تكشيرة وزير فمنذ لحظات كان في رحاب من يملك القدرة على سحق الحاكم أو الوزير، إذن فإنماء الحب بالصلاة هي وسيلة الإنسان للترقي والتقدم..

وعلى هذا إذا كان هدف مكان الصلاة سواء كان مبنى أو أرض فضاء هو إنماء الحب فلماذا لا نغني في هذا المكان أغنية للحب نمزجها بالواقع.. أغنية.. أغنية تلحن وليست مجرد ابتهالات. لماذا لا نفعل ذلك في مكان الحب المقدس حتى نطرد شياطين الكراهية والحقد والشقاق.

أنا أحب الله حتى يحبني الناس. أعشقه حتى يعشقني أصدقائي.

أصادق من يحمل لي ضغينة حتى ينسى.

أنا الإنسان..

أمد يدي لجاري..

أخفف آلامه..

أمسح دموعه

يدي ممدودة شغوفة.. حنونة.. عطوفة.

الظلم أن لا نتراحم

الظلم أن لا نشارك بعضنا الفرحة.. الحزن.

الظلم أن لا نتواسى

إني لا أخاف الله لأنني أحبه

ولا أخاف أبي لأني أحبه

ولا أمي لأنها بالأمس قبلتني.

كانت فرحة وهي تزفني لعروسي.

الحب ديانتي.

ولأن الإسلام هو الحب فهو ديانتي.

إن أحد أمراضنا المزمنة هو الخوف.. نخاف الموت.. الله.. الحاكم.. الأب.. رئيس العمل. نخاف الغد. نخاف الضحكة حتى لا تنقلب في الغد إلى نكد. لا أدري لماذا كل هذا الكم من الخوف وكيف نتخلص منه؟! طريقة واحدة.

الحب هو الدواء السحري لكل صور الخوف. فالإنسان الذي يحب لا يخاف. والذي يخاف لا يدخل الحب قلبه. والوقوف في معية الله يعني الحب هذا الحب ليس من طرف واحد. الطرف الثاني الإله. حب تُحب. مبدأ على الإنسان اعتناقه فالكراهية لا تفرخ سوى أفراخ الحقد والبغض والإحساس بالغربة وعدم الانتماء.

إن إحدى مشاكل المجتمع المستعصية هو تمهيد عقل الطفل في الدراسة والبيت ببلدوزر الدين الخوف من الله "البعبع" من عذاب القبر "الثعبان الأقرع" من نار الآخرة "ذات السبع طبقات" وبعد مرحلة التمهيد يبدأ الإنبات.. الكراهية.. الحقد.. العنف.. كلها بذور الشر.. الله ليس اسمه الخوف بل الحب.. الله ليس بالأوصاف التي يعف البشر أن يوصف بها.. متواضع وهو يستجيب لدعاوي المظاليم.. رحيم.. قوته تنبع من الرحمة وليس من الجبروت.. متسامح يغفر ولا يسيء.. وكل تلك المعاني التواضع والرحمة والتسامح هي الحب.

فلتكن دائمًا أغنيتنا في أي دار للعبادة. أنا لا أخاف الله لأنني أحبه.. ولا أخشاه لأنني لا أغضبه ولا أرهب أخطائي

لأنه متسامح.. الحب هو ديني.. عقيدتي ولأنها الحب فهي ديانة عالمية تجب الأديان.

بعد جواز المرور وأداء طقوس الصلاة نأتي إلى الصيام وهو طريق كله فخاخ وذلك لأنه فريضة إجبارية. فريضة بمعنى عمل وجوبي في شهر محدد وبطقوس مقننة لكن في نفس الوقت يمكن استبدالها بفريضة أخرى "إطعام المساكين" أو الاستعاضة عنها "بأيام أخر" في أحوال جاءت على سبيل الحصر "المرض أو السفر".

إن العلة التي تكمن وراء الاستبدال أو الاستعاضة وهي حماية الجسد من الضرر الناجم عن الإنهاك أو الإرهاق يمكن تطبيقها على كل صور الضرر التي تصيب الجسد نتيجة الصيام فالأعمال المرهقة بدنيا أو عقليا وكبر السن والطفولة والإعاقة والعاهات تبيح لأصحابها استعمال مكنة الاستبدال أو الاستعاضة فيسقط هذا الالتزام في أحوال عدم القدرة.

إن للجسد في مفهومات الدين قدسيته الشرعية بانتمائه إلى خالقه فهو الذي أودعه إيانا أمانة يسرتدها متى حان الأجل ومن هنا تكمن فلسفة تحريم الإضرار به فمن يتجرأ

ويوقع به الضرر يعتدي على قدسية الخالق وربما هذا هو سبب مفاضلة سلامة الجسد على أية اعتبارات تعبدية لكنها في النهاية تصب في بوتقة الصالح العام للمجتمع فالفرد العليل يضر بنفسه وبأمن المجتمع.

إن العولمة لا يقتصر مجالها فقط على الاقتصاد والسياسة بل تشمل أيضًا الدين بحيث يمكن القول إن عولمة الدين أصبحت ضرورة حتمية لها نتائجها مثل تلك التي تترتب على الاقتصاد والسياسة. أول هذه النتائج هو تغير النظرة الغيبية للدين إلى حياتية ليصبح الإنسان – وليس الأمة – مصدر السلطات وبالتالي مصدرا للتشريع وما يترتب على هذا المنظور [العولمي] من رحيل كثير من الأسباب المحلية التي ينهض عليها كل دين على حدة، وثانيها هو الإحلال والتجديد من خلال صيغة جديدة عالمية تشمل كل الأديان وتزيل التناقض بينهما وبصورة يستقبلها العقل البشري بلا رفض وبحماس ربما منقطع النظير.

في القدم كان الأعرابي المرتحل مثله مثل كلب البراري الذي يختزن عظمة لوقت حاجته. يحفر حفرة يدفنها فيها ولما يستبد به الجوع يعود لالتهامها. وكان شظف العيش

يدفعه أحيانا للصيام عن الطعام أياما وليالي قبل أن يحصل على ما يقتات به. لكن في ظل العولمة لم يعد لهذا السبب القديم تواجد على أرض يسودها الأمان والطمأنينة من خلال التأمينات والضمانات الاجتماعية وما عاد للحرمان من الطعام أو الخشية من الموت جوعا معنى مع توافر وسائل الحصول عليه حتى ولو كان من صناديق قمامة الأثرياء!!

ومع انتفاء حكمة الصيام اليوم بامتلاء كرش الصائم بأجاود الطعام وتحول تلك الحكمة إلى رمز للرفاهية والتختخة والإنفاق الطائش على موائد الرحمن الشهية وكأن الصائم يعاند حكمة الحرمان من الطعام بالإكثار في كميته وتنويع أصنافه وفلسفة سبب استتانه فضلا عن ذلك تلك الشكوك التي ثارت حول هدف الصيام وجدوى الحرمان، فالصيام هو عمل مادي بحت موضوعه الامتناع عن المأكل والمشرب في أوقات محددة سببه غيبي "كل عمل آدم له إلا الصيام فهو لله" والسؤال وماذا يستفيد الله بالصيام. ثم ما حاجته إلى ذلك. هل هو وسيلة للتقرب إليه أم هو بمثابة أضحية تقدم له بدلا من البشر والخراف؟! والإجابة صعبة بل مستحيلة. فلا الإله في حاجة إلى صيام البشر ولا إلى

أضحياتهم.. إذن ماذا وراء الصيام. ما هي علته المتخفاة خلف أسوار الوهم.. إن الصيام ما شرع إلا لتحقيق غاية معينة فإذا لم تتحقق تلك الغاية فقد انقلب ضد غايته وعلينا أن نعيد إليه الصواب.

والسؤال ولماذا شرع للبشر؟؟ ما هي حكمته؟؟

إن القيام بعمل جماعي في وقت ما.. بعقيدة ما.. يرسخ لفئات الأمة التوحد.. والتوحد يعني القوة.. تلك التي تنبثق من الإرادة.. ومن هذه المعاني يمكن استنساخ أمرين فعندما يؤدي مجموعة من البشر فريضة الصيام في ميقات محدد بطقوس واحدة فيها معاني التقشف والحرمان "شرط جوهري" وليس الشبع والامتلاء فهذا يعني توحد الطاعة.. وعندما يستمر أداء تلك الفريضة أياما بتلك الطقوس الشاقة المضنية الملزمة والمؤلمة فهذا يؤدي بالضرورة إلى التدريب على الصعاب وتحمل المشاق وتنامي حاسة احترام القانون وعدم الخروج عليه وهو ما نراه اليوم واقعا على الساحة السياسية. فشعوب الإسلام طوع يد أي حاكم حتى ولو كان قردا يقودها بمقود ويلهب ظهرها بعصا السلطة!! يدفعها ربما إلى حتفها ربما إلى أفواه قطيع ذئاب يقتنصها. وأكثر هذه الشعوب

إذلالا وخضوعا وتقديسا للحاكم الشعب المصري المغلوب على أمره.. هذا الشعب المتدين العظيم في تحمله كل مساوئ الحكام ومباذلهم يفطر دينا ويتعشى دينا ويستحم دينا ويموت على تنهدات عزرائيل!! فلا عن ذلك نستطيع أن نستخلص من الصيام الحرماني معاني تدعم من ركائزه في مواجهة أعاصير رفضه والتخلي عنه. أول تلك المستخلصات.. هو تقوية الإرادة البشرية بالامتناع عن المتع الحسية. والاقتراب بالضرورة من المتع المعنوية. فلسفة الزهد. والاستمتاع بالجمال والحب والصفاء بممارسة أعمال العقل من قراءة وكتابة فيتم هكذا التسامي بالمتع الحسية المادية المتمثلة في الأطعمة والجنس وبهذا تسنح الفرص للإنسان ليقترب أكثر من إنسانيته وهو يبتعد عن بؤرة غرائزه الحيوانية.. وأخيرا المرموز الفلسفي الذي يمكن أن نستخلصه من تحديد فكرة الصيام من الفجر حتى المغرب أي من وقت طلوع الشمس حتى غروبها.. هذه هي حياة الإنسان من الشروق حتى الغروب معاناة وكفاح ومشقة ثم يليها الغروب الموت مع ما فيه من راحة وسكون.

مثل هذه الأسباب تتفق تمامًا مع العولمة فلا أحد ينكر على الأمة توحد أفرادها ورمزها وهي عناصر قوة، ولا أحد يؤاخذ مواطنيها على احترامهم القانون وهي فضيلة، وتحمل المشاق والصبر على المكاره وتجاوز المعاناة وكلها ميزات تقوي من دعائم الشعوب وتبعث فيا شرارة الانطلاق لكن في المقابل أمامنا عقبة تهز عرش طرحة العولمة وقد شل الصيام إرادة العمل في المصانع والمزارع ودواوين الحكومة وأرجأ مسيرة الحضارة سنوات طويلة وهذه حقيقة مريرة يجب أن نوليها اهتمام العقل. إذن فكيف نحل تلك المعضلة؟! بالتوفيق ما بين فلسفة الفريضة وضرورة العمل.. كيف؟!

إن العمل خاصة منه البدني أو العقلي منهك بطبيعته ومع الصيام يصبح أكثر إنهاكا يتحقق به ضرر بالغ للفرد بانتهاك سلامة الجسد أو للمجتمع بالأداء السيئ لسير العمل وكلاهما يخل بالأمن الاقتصادي للمجموع لذلك كان لابد من المفاضلة بين الاختيارين الفريضة أو العمل.. أو على الأقل التوفيق بين الاعتبارات المتعارضة بصيغة تحقق بينهما التواؤم والانسجام فاختيار الصيام يتطلب التأجيز من العمل ليتحمل العامل تبعة أداء فريضته دون أدنى مسئولية من رب

العمل بإعالة الصائم وهذا منطقي فليس من المقبول [عولميا] أن تتحمل جهة العمل تكاليف أداء الفرد لفريضة هو المسئول في مواجهة ربه بأدائها فهي ضريبة شخصية لا يجوز تحميل رب العمل ولو جزءا ضئيلا منها لأنه ليس طرفاً فيها ولأن المثاب في النهاية هو من قام بتأدية فريضتها ولأنه لا يوجد نص في الدين يلزم صاحب العمل بتحمل ضعف الإنتاج أو انخفاض الأداء أو تدني كفاءة العمل بسبب الصيام. لذلك كان لزما على العامل الذي لا يستطيع التوفيق بين حسن أداء العمل وبين تبعة الصيام أن يحصل على أجازة بدون مرتب قلنا الذي يعجز!!

إنه لأمر مثير للسخرية أن يصوم العامل بينما يتحمل رب العمل نفقات صيامه بنقص طاقاته وانعدام قدراته في أداء العمل المنوط به. مثله مثل من يستقطع ساعات من عمله لأداء فريضة الصلاة متحاجا بالدين.. فالله برئ مما يفعل لأنه مثل من يتصدق بمال مسروق أو يحج بمال رشوة أو يبني مسجدا من حصيلة مخدرات هذا هو الاختيار الأول، أما الثاني وهو اختيار العمل فيمكن وضعه داخل الإطار السليم لو سلمنا أنه أي العمل في قوة المرض ويحمل

فلسفة السفر والإرهاق والإنهاك. إذا سلمنا بهذا الإطار فيمكن استخدام مكنة الاستبدال أو الاستعاضة في منظومة العمل قياسا على السفر والمرض.

هذا يتفق تمامًا مع العولمة إذا كنا حقا نريد الأخذ بأسبابها لنحتل مكانا بين الأمم لا أن نبقى هكذا قابعين كفئران التجارب ننتظر أن تجرب فينا إحدى الدول اختراعها الجديد قبل تعميمه..

يأتي بعد ذلك الحج وهو فريضة اختيارية " من استطاع إليه سبيلا" آفاق هذه العبارة يتسع لمعنى الإرادة الحرة وهي بهذا تختلف عن كل طقوس العبادات السابقة التي تلزم الشخص بأدائها.. وبتحليل أعمق للاستطاعة نجد أنه يندرج تحتها معاني أوسع وأشمل من يطيق.. ومن يريد.. ومن يقدر وهي كلها تدخل في نطاق إرادة الفرد فلا تقتصر على مجرد ظروف المرض أو الحاجة أو الإعاقة بل أيضًا تشمل الظروف الشخصية أو العائلية أو حتى مجرد الخشية على النفس من السفر الطويل.

يستتبع هذا تقنين مفهوم شرط الاستطاعة، هذا الشرط ليس موكولا تحديده للفرد بل هو شرط اجتماعي على

المجتمع تحديد نطاقه وتبعاته وتكاليفه حسب كل حالة على حدة وعلى هذا لا يتحقق بمجرد الميسرة. بل يجب أن يتحمل الحاج ما يوازي النفقات حق للمجتمع في صورة زكاة تسبقها دراسة كل حالة اجتماعيا لمعرفة توفر شرط الاستطاعة يحدد معياره ممثل الجماعة. بهذا نضرب عصفورين بحجر واحد أن نساعد أصحاب البيت الحرام وفي نفس الوقت نساعد أنفسنا فليس من المقبول عقلا الإقدام بكل هذا الحماس الديني لمساعدة الغير ونتقاعس عن فقراء الموطن الذي هم في أمس الحاجة إلى أيادينا البيضاء!!

وبقراءة سريعة لعصور الجاهلية الأولى.. ما قبل الرسالة.. نجد أن الحج كان شريعة وثنية وكان العرب الوثنيون يمارسون طقوسه من طواف وتقبيل الحجر الأسود وتقديم القرابين لكنه في نفس الوقت كان يمثل نظاما اقتصاديا وسياسيا وعشائريا متوجا بالدين فكان سوقا رائجة للتجارة وأيضًا لعقد المؤتمرات الشعرية والقبائلية من خلال التعرف على العشائر من أقاصي بلاد العرب.

هذه هي أهم أسس قيام نظام الحج الوثني والتي مازالت في معظمها قائمة حتى الآن مع اختلاف جوهري في كنه

الإله والقرابين.. فقد تغيرت الآلهة الوثنية إلى إله واحد واستبدلت القرابين الوثنية بالأضاحي الإسلامية..

لكن علينا أن لا نغفل السبب الاقتصادي الهام الذي يحقق لأصحاب البيت الحياة الرغدة فليس معقولا أن يتسول من يحميه ويحافظ عليه من غدر أخوتهم المسلمين!! فلابد لفئة مسلمة مغفلة أن تدفع فاتورة أمريكا حامي حمى الإسلام وجنودها تدنس الأرض المقدسة وأن تنحني هامة الإسلام لجنود المملكة المتحدة وهم يحتسون الخمر ويواقعون النسا داخل حرم الأراضي المقدسة !! ما أشرف للمسلمين مقاطعة الحج وإقامة بيتا آخر لله في بقعة مقدسة . وادي التيه أو سيناء أو القدس يقيمون فيه شعائر الحج، فالله ليس قابعا في البيت الحرام بل هو في كل مكان يذكر فيه اسمه. الله ليس بمستجلس داخل أبنية الكعبة المشرفة.. بل هو في أي بيت للعبادة تؤدي فيه الطقوس.. وليكن هذا البيت الذي نبينه مزارا مقدسا لغير القادرين يؤدون فيه شعائر الحج حتى تتقشع الغمة ويرحل الأوغاد من الأراضي المقدسة.

هذه الطرحة التي طرحناها تتفق تمامًا مع منهج العولمة الذي يعتمد في رؤيته للأحداث على رؤى حياتية. واقعية. عقلانية.

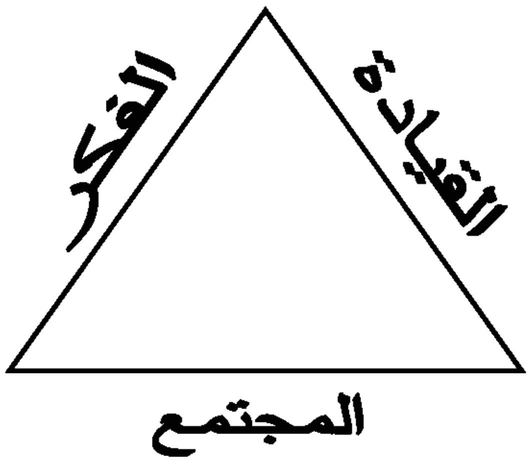
ويبقى أخيرا الزكاة. إن سبب تشريعها يكمن في التكافل الاجتماعي بمساعدة القادر للمعوز. وهي في حكم الصدقة رغم ذلك فهي واجبة على المسلم أداؤها. الفرق بينها وبين الضرائب أنها ضريبة مال أي: تقدر نسبتها على ما يملكه الإنسان من مال منقول أو سائل، وهي تختلف عن الضريبة التي تقدر أما على الأنشطة التجارية أو على الدخل الناتج من الأموال.. ودافع الزكاة هنا يشترط أن يكون مسلما.. لأنها من أحد أركان الإسلام بعكس دافع الضرائب فلا عبرة بديانته بل تستحق عليه الضريبة حتى ولو كان كافرا. وهذه التفرقة في الحقيقة لا تتفق مع نظام العولمة الذي لا يفرق بين شخص وآخر لدينه أو لعقيدته. عقدة.. فكيف التوفيق بين هذا المتناقض.

يجب أن تتحول الزكاة إلى نوع من الضريبة على رأسمال الشخص.. لذلك يتم محاسبته على ما يملك من منقول أو عقار بغض النظر عن ديانته ويجب أن ينشأ بنك

للزكاة لاستثمار تلك الأموال فيما ينفع الفقراء وذوي الحاجة ليس فقط بمساعدتهم ماديا بل بإنشاء مدارس ومستشفيات وكذا شركات ومصانع لاستثمار أموال الزكاة ولا يجب أن تترك هكذا [نهيبة] لموظفي وزارة الأوقاف المعممين ووزرائه الأجلاء!!

إن التقدير المبدئي لمجموع أموال المصريين العقارية والنقدية لا يقل عن ألف مليار فإذا فرضنا الزكاة بنسبة ١ : ١٠ فإن المجموع المتحصل سنويا هو مائة مليار يمكن بها قلب موازين الفقراء لو تم استغلالها على الوجه الأمثل، والزكاة هنا ليست اختيارية بل هي إجبارية على رأس المال يدفعها كل فرد في المجتمع تحت مسمى ضريبة التكافل الاجتماعي.

عولمة الثورة



أولا: خط المجتمع:

المستقيم منه بلا تضاريس.. صعودا أو هبوطا. يعبر عن حالة من الركود الاجتماعي وهو خط جامد ملول افتقد الحركة، تسير مخلوقاته على وتيرة واحدة تسيطر عليها بسلطة قوية تضم كل إرهاصاتها داخل بوتقة لعينة توقف كل نبض فيها.. مثل هذا الخط إذا ما أدمن الثبات وامتنع عليه بديهيات التغيير والتجديد والإحلال ينتهي بالمجتمعات إلى

انحطاطها وتقوقعها وانحدارها وهي حالة تمر بها عادة المجتمعات المتخلفة وأحيانا المتقدمة منها عندما تنسى في غمار تقدمها منهج التجديد والتغيير في شخوص القيادات وأسلوب العمل والمنهج بالابتكار والإلهام لذلك تلجأ بعض أنظمتها عن وعي كامل بإحداث بعض الهزات المصنوعة بمهارة والتي تؤدي بدورها إلى الضغط على الخط المستقيم في فترات جموده هبوطا أو ارتفاعا.. انحناء أو تعرجا لكسر حالة الجمود والملل.

وما تفعله الولايات المتحدة الأمريكية من استقبال أعداد عشوائية محسوبة من المهاجرين سنويًا وما يحمله هذا من تهجين البذرة الكامنة في بطن أرض المجتمع وإحداث نوع من التغيير بتسميد التربة بعناصر غذائية أخرى كاف لإزالة ملوحة بعض الرواسب التاريخية وتطهير جزء من روافد الفكر.. وما تقوم به بداية من حرب فيتنام وانتهاء بكوسوفا ومروراً بالخليج والبقية تأتي ربما في السودان أو في ليبيا أو في مصر بإحداث تفاعيل في خط المجتمع المستقيم بطرد فيروس الملل والجمود.. كل هذه محاولات مجدية في نفس الطريق الصحيح تحفظ للمجتمع حيويته وقدرته على المناورة

والحركة وتحقيق طفرات في مجالات الابتكار والإبداع وليد المخاطرة والفجأة.

إن احتفاظ المجتمع باستقامة خطه لأجيال طويلة يؤدي في النهاية إلى الانحدار لهذا كانت الديمقراطية واحد من أسباب إحداث تفاعيل في خط المجتمع بكسر حلقات الملل فعندما تسيطر الفاشية على مجتمع من خلال حاكم يتولى شئون الأمة لفترات طويلة دون ما تغيير أو تبديل ويؤدي هذا إلى حالة من الاستقرار فهو ليس في الحقيقة سوى استقرار خادع ظاهري سرعان ما ينكشف عند أول محاولة للتغيير أو عند مواجهة الأزمات وهذا هو الملمس الذي نستشعره مع أنظمة الدول العربية.. استقرار خادع تحت قشرة هشة يثور تحتها بركان غاضب هائل طال الوقت أم قصر ستتحطم قشرته الهشة تحت ضغط [صهير] البركان الذي بدأ ينفث ناره.

وهذا ما استشعرناه أيضًا مع بعض شعوب المنطقة الصفراء.. فقط استمر الخط على استقامته زهاء سنين طويلة وعاشت شعوب المنطقة في حالة من الاستقرار الاقتصادي والسياسي.. لكنه كان استقرارًا ظاهريًا خادعًا ذلك لافتقاد

تلك الشعوب ميزة التغيير والتجديد في ظل أنظمة ديكتاتورية فاشية.

فالشعوب تفقد قدرتها على الاحتفاظ بحيويتها بخمول مركز الدائرة المتمثل في القيادات التشريعية والتنفيذية ولا تستطيع استعادة حيويتها إلا بتنشيط مركز الدائرة بالإحلال والتجديد ولن يتم هذا إلا بوسيلة واحدة لم يكتشف غيرها حتى الآن الحرية والديمقراطية.

وغياب الديمقراطية يدفع خط المجتمعات إلى الانحدار بسرعة رهيبة رافعا راية تحذير للنهاية المحتومة.. والأمثلة كثيرة ومتنوعة.. صارخة أحيانا كما في مصر.. زاعقة أحيانا كما في الدول العربية وأفريقيا.. فقد أصيب مركز الدائرة في تلك البلاد بالخمول بل وصل إلى حد العته والبلى.. معظم الحكام إما معاتيه متخلفين وإما مرضى أو عجائز حط عليهم الدهر بكلكله، وبمرور الوقت يصاب مركز الدائرة بفيروس الشلل الرعاش.. لكن بعض الشعوب تكتشف الهوة التي تنحدر إليها فتحاول جاهدة أن تخرج من محنتها بعزم وإصرار مطالبة جموعها بتنشيط مركز الدائرة وسيلتها في ذلك دمقرطة النظم السياسية.. بغيتها وقف

انحدار الخط المجتمعي.. وكان لإندونيسيا فرس السبق عندما ثار الشعب على حكامه واستطاع خلال فترة زمنية قياسية في عمر الشعوب تنشيط مركز الدائرة بتغيير بعض القيادات السياسية وبالإحلال والتجديد الديمقراطي لتصبح هذه التغيرات نقط ارتكاز جديدة لخط المجتمع تمنعه من الانحدار بل وتدفع به إلى الأمام منبئا عن طفرة قريبة في ارتفاع مد المجتمع.

هذا الخط ليس مجرد خط وهمي.. بل خط له ركائز تتمثل في قواعد صناعية وزراعية واجتماعية وعلمية وسياسية في إطار بنية تحتية قوية وفي غياب نقط الارتكاز تلك أو في أحوال ضعفها تضغط نقاط التحميل على خط المجتمع فتدفع به إلى الانحدار. كيف؟! الثروة والحرية والديمقراطية والتعليم والصحة نقاط ارتكاز تساند خط المجتمع وتمنع انحداره والفقر والديكتاتورية والجهل والمرض أحمال على خط المجتمع تنتهي به إلى الانحدار بعد أن تبطئ أو توقف حركة مده.

فإذا تجاوزنا هذا إلى التمثيل بداية من ذوات الأربع عطبت إحدى ركائزها ولم تعد صالحة للسير فهي أي تلك

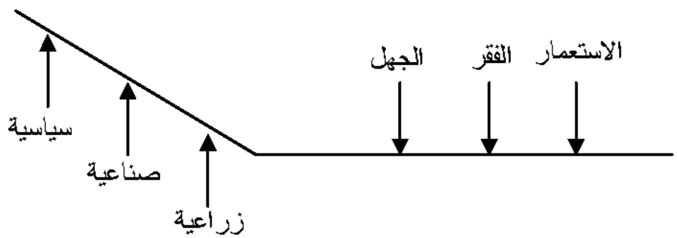
الركيزة تتحول إلى نقطة تحميل وبالتالي تبطئ من حركته، فإذا ما فقد الثانية توقف نهائيا أما فقده للساق الثالثة فيعني سقوطه وانحداره.. هذه صورة أما الصورة الثانية إنه حتى مع وجود الركائز يتم تحميل الدابة بما يتجاوز قدرة هذه الركائز. وكلما أضفنا أثقالا هبط أداء المسيرة إلى الوقت الذي تتجاوز الحمولة طاقة المحمول فيتوقف أو [يتأرض] وما يحدث للدابة يحدث لأي تحميل زائد إنساني. وهو الحاصل في خط المجتمع عندما تتلف بعض دعامات نقط ارتكازه أو عندما يتزايد الحمل عليها.. الخلفة والجهل والمرض والديكتاتورية. في كلتا الحالتين يتجه الخط للانحدار ليصبح في غيبة الدعامات أو تلفها أو للتحميل الزائد عن الحد مثل الدابة التي تعطب ركائزها.

وتختلف حدة الانحدار حسب قوة تحمل الدعامات أو ثقل التحميل فكلما ضعفت الدعامات وازداد الحمل انحدر الخط إلى أسفل في سرعة تتوافق مع قوة ضغط التحميل وضعف الدعامات. وإذا طبقنا تلك النظرية على خط مصر المجتمعي نجد أنه قبل ٥٢:

أولا: مركز الدائرة النشيط كان يفرز قيادات تشريعية وتنفيذية نابهة نتيجة اساع قاعدة الحرية وبالتالي كانت حركة الشعب المصري تحتفظ بحيويتها.

ثانيا: أن خط المجتمع رغم وجود أحمال الاستعمار والجهل والفقر كانت له ركائزه الاقتصادية والزراعية والصناعية والسياسية التي تمنعه من الانحدار فارتفع منحنى الخط إلى أعلى.

قبل ٥٢:

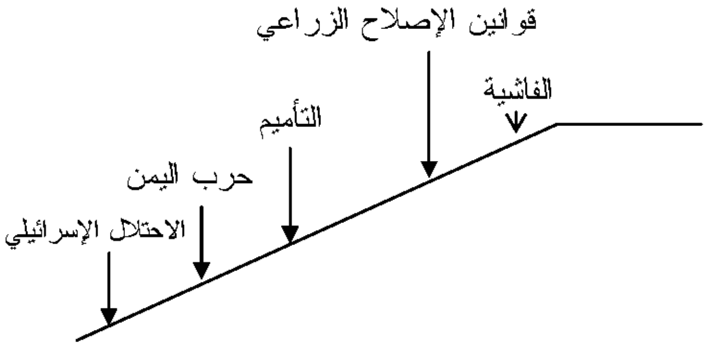


ما قبل ٥٢ تمتع المجتمع بحالة من الاستقرار السياسي والاقتصادي الحقيقي لهذا ارتفع خط المجتمع إلى أعلى مستوى له قبل انحداره،على يد طائفة الحشاشين فقد كان لمصر احتياطي نقدي بلغ خمسمائة مليون جنيه ذهب في زمن تساوى فيه الجنيه المصري بالجنيه الذهب كما

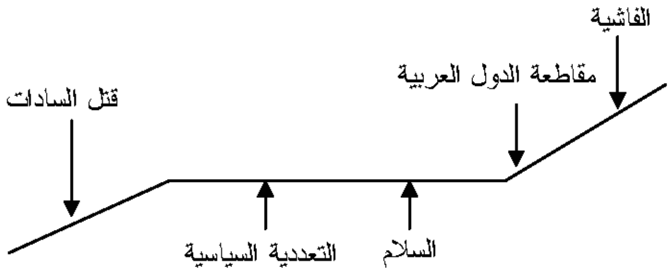
أن ركائزه الاقتصادية والسياسية كانت تدعم خط المجتمع فالحرية كانت مكفولة حتى حرية سباب الملك، أما أيام العسكر فإياك أن تنتقد وزيرا أو تتهق في حضرته.. المصير معروف. عليك أن تختار أحد السجون أو تدفع غرامة تقسم وسطك!!

بعد يوليو ٥٢ أي ما بعد انقلاب العسكر نجد أن الخط انحدر بسرعة رهيبة وأن ما يحسه المواطن من استقرار ظاهري واهم لا يعبر عن حقيقة الخط المتدهور.. فهو مجرد إحساس ذهني بالاستقرار نتيجة اغتيال موجات الإعلام المتتالية لمفهومات العقل البشري وغسلها تمامًا من كل شكوك حول حقيقة هذا الاستقرار.

إبان حكم عبد الناصر والتي أمسك فيها قادتها المنافض ينفضون بها سجاجيد وأكلمة العصر البائد.. هبط خط المجتمع هبوطا حادا نتيجة أحمال الفاشية وقوانين الإصلاح الزراعي والتأميم والمصادرة وقوانين الطوارئ والقوانين الاستثنائية وحرب اليمن والاحتلال الإسرائيلي.



وفي عهد السادات استمر الخط على انحداره لأسفل ثم توقف ليعاود انحداره يعبر بحدة انحناءه عن حالة من الانهيار الاقتصادي والتخبط السياسي والجهود تتكاتف لتطويق الحرية وحبسها داخل قمقم وسجن بعض المناوئين من كتاب وصحفيين وأصحاب رأي، رغم هذا فقد كانت شخصية السادات الفاشية متخفاة خلف ستار التعددية الحزبية بخلاف عبد الناصر الديكتاتور الصريح المباشر.

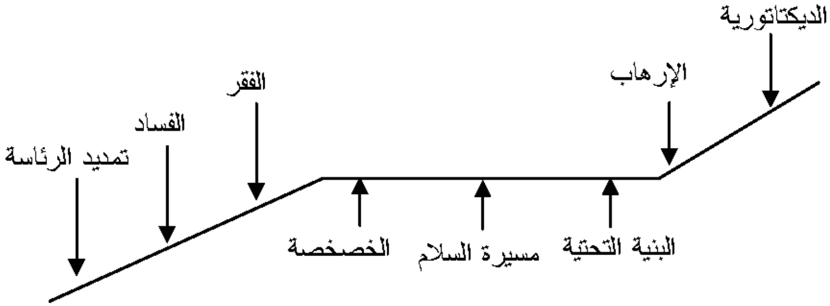


ويأتي العصر الأخير وهو هكذا لأنه لن يعقبه عصر مماثل فالعصر القادم والذي يليه سينعم فيه الإنسان بالحرية السياسية بكل صنوفها وأشكالها من حرية رأي وتعبير وتكوين أحزاب وصحف وتعددية حقيقية لا صورية، هذا العصر القادم سيختلف تمامًا عن هذا الذي نعيشه عصر النمطية السياسية حيث الحرية المقننة بالزيف وقد تمثلت في أحزاب لا حول لها ولا قوة أمام إخطبوط القرار السياسي الواحد.

التطور هو الحتمية التاريخية الذي لا عودة فيها للوراء لمثل هذه العهود المظلمة.. أحيانا أشفق على الرجل الجالس على الكرسي وأنا أتساءل في دهشة عن رؤيته فيما يحدث من تجاوزات على حقوق الإنسان؟! عن رد فعله حيال

ما يدور حوله من فساد وإفساد وإفقار؟! ماذا هو فاعل تجاه هذا الإخطبوط الهائل.. الوساطات والمحسوبيات والرشاوي وقد دعمت مركزها بعد أن تحولت من استثناء إلى قاعدة؟!

هل يحاط علما بكل هذا؟! لكن أجهزته التنفيذية باتت مشلولة عاجزة بعد أن أصابها مس من اللامبالاة أم أنه لا يرى إلا بعيون مستشاريه!! الصورة الوردية. الناس الحليوة. الجو الربيعي. الضحكات على شفاه يطحنها الفقر أم أنه يعرف ولا يأبه؟! في الأحوال الثلاثة قلبي على بلدي انفطر!! وأحيانا أخرى أتعاطف معه وقد طال مكوثه داخل إطار وحدته الذهبي المقدس يفصله عن الناس والمجتمع جدار زجاجي سميك يمنع عنه صراخ المعذبين وأناتهم وأنا واحد منهم!! يحجب عنه شبح آمال البشر وطموحاتهم بل طموحاته هو الآخر أن يسبح في المستنقع مع باقي الأسماك. يختلط بهم يشاركهم طعامهم. شرابهم. أحزانهم أفراحهم. لكن يمنعه هؤلاء الذين عزلوه تمامًا عن كل من أحبهم وأحبوا الرمز فيه!! وفصلوه عنهم فصلا جائرا لا يريده ولا يسعى إليه.



ونتيجة منطقية لانحدار الخط ونتيجة لانفلات المعايير الأخلاقية حدث ما يشبه انقلاب في قانون الانتخاب الطبيعي – الحياة للأفضل – انقلب لمعكوسه تمامًا الحياة للأوسخ الأضعف.. الأجهل.. الأخبل.. الأعته.. وحلت قيم جديدة مغايرة لما ألفه الناس في عصور سابقة. ولم تعد الجماعة تكترث بالأخطاء الفادحة بل تقابلها باللامبالاة فتشيعت وتشعبت المفاهيم الخاطئة، وبدأ المجتمع يغض الطرف عن الرشوة فقننها أهل السلطة في أحايين كثيرة بدءا من سمسرة صفقات السلاح الخارجية والداخلية والمشبوهة وانتهاء بصفقات البترول ومرورا بالخصخصة التي يذهب عائدها إلى جيوب المحاسيب وقطاع الطرق وتبدلت نظرة المجتمع

المتشددة حيال جرائم الفساد إلى أخرى تساهلية فمهد للدروس الخصوصية طريق المشروعية بمعاذير الدخل المتدني لكل من مدرس المدرسة وأستاذ الجامعة!١ وصدرت عشرات الأحكام القضائية بالبراءة للمتهمين في قضايا لهف المال العام بعد أن تعثر العدل في حفر الأهواء الشخصية لبعض القضاة وتحولت مضامين أخلاقيات السلف الصالح إلى مضامين هشة رقيقة تدوسها الأقدام لهشاشتها وضعفها. وساءت صناعة الدقة في الزراعة والصناعة وتحولت إلى فهلوة وعنترية وعيوب وآفات فتوقف التصدير واتجه المجتمع إلى استكفاء حاجاته من الاستيراد وهذا هو القاسم المشترك لكل الدول العربية فهي تتجه بقوة وعزيمة وإرادة خلال ربع القرن الحالي ٢١ إلى الانهيار والتحلل والوصول بخط المجتمع إلى أكبر معدل انحدار في تاريخها.

رغم هذا فمن الممكن وقف الغزوة البربرية وتقليل حدة الانحدار بعصا سحرية خلال فترة وجيزة .. وهل يوجد فعلا هذه العصا السحرية؟! نعم لو دعمنا خط الحرية بركائزه الأساسية الحاضرة الغائبة.. الحاضرة قولا والغائبة فعلا. الديمقراطية.. تقديس العمل.. وقف نزيف النسل

"نزيف = زيادة" وتحقيق غاية تلك الركائز الأساسية ليس بالمستحيل بل من الممكن ذلك من خلال زرع شجرة الحرية تستظل بها السياسة والاقتصاد وبمنابر حقيقية للتعددية الديمقراطية لا صورية وبتقديس العمل بوضعه في مصاف الأديان وبخصي مشكلة تزايد المواليد بالعقوبة الرادعة!!

إن الراصد لهذه الأمور رصدا جيدا يجد أنها مرتبطة ببعضها البعض ارتباطا جذري،ا فالديمقراطية بذرة شجرة الحرية. وأفرع شجرة الحرية كثيرة متنوعة أهمها الحرية التعبيرية التي تورق بإنماء الحافز الفردي وتقديسه من خلال تشجيع الإبداع واستثماره الاستثمار الأمثل لتحل الابتكارات محل الاتكالية الفردية على أن لا نغفل تحقيق التوازن بين مصلحة الأفراد بعضهم والبعض الآخر وبينهم كأفراد وبين المجتمع وأكبر مثل لهذا ضريبة الحرية التي يتم بها استقطاع جزء من حرية الفرد في صورة قوانين تنظيمية ومالية.. أداء مثل هذه الضريبة حتمي يحقق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع.. من هذا المنطلق نستطيع تطبيق نفس المعيار على رب الأسرة الذي ينجب فئران ويعجز عن

إعالتهم بتحقيق التوازن بين مصلحة الفرد كفرد ومصلحة المجتمع كجماعة كيف..؟!

إن المواليد مثل أية سلعة مباعة أو مشتراة الفرق أنها سلعة بشرية آدمية لكنها تستغل مثل أية سلعة.. والسلعة إذا كانت معيوبة فليس أمام صاحبها سوى اختيار من ثلاث إعدامها أو اختزانها أو بيعها بأبخس الأسعار هذا إذا وجدت مشتريا!! وفي الأحوال الثلاثة هي عبء ثقيل على صاحبها ولكن لأن السلعة البشرية لا يمكن بيعها أو إعدامها لذلك يتم اختزانها. فالمتخلفين عقليا.. والمعوقين والقزميين والمرضى عبء كبير.. على المجتمع أن يتحمل نتيجة تحزينها لديه من أرضية.. وصيانة.. فإذا كانت نسبة التخزين البشري ٢٠% إذن فلدينا راكد سلعي بشري في حدود إثنا عشر مليونا، معنى هذا أن على كل فرد في المجتمع أن يتحمل عبء ربع فرد آخر. فالأسرة المكونة من أربعة أفراد عليها أن تتحمل إعالة فرد واحد لا يمت لها بأية صلة. أي منطق هذا وأي عدل؟!

لذلك كان علينا البحث عن وسيلة لوقف نزيف النسل هدفنا تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد والمجتمع.. ولن يتم

هذا بالتدليل أو التوبيخ أو حتى التوجه برسائل الإعلام المتخلفة بل بالجرأة وبأقسى وسائل الشدة..

الأمثلة صارخة تضج باللامعقول وخصوصا في القرى والأحياء الشعبية والمساكن العشوائية للدرجة التي يمكن معها القول إن الناس ولدت لتلد فقط وبهذا تحولت لمجاميع من الفئران تقرض في نسيج المجتمع وتلد أجيالا لتقرض هي الأخرى في النسيج البالي لذلك ليس أمامنا من وسيلة سوى عصا القانون حتى لا نفاجأ بأن نسبة مخزون الراكد البشري تعدت النصف بعد عشر سنوات فماذا يرجى من شعب نصفه متخلفين عقليا ومعوقين ذهنيا.. لابد وأن تعاد جدولته سياسيا من جديد لينضم إلى طابور المجتمعات التي تفرض عليها الوصاية الدولية!!

لسنا متفائلين بل غاية في التشاؤم لأن القيادة السياسية رغم فهمها خطورة هذا النزيف وتحذيرها المرة تلو الأخرى إلا أنها تجبن عن اتخاذ أية خطوة توقف هذا النزيف المستمر ليتحول الناس لمجرد أعداد واحد اثنين عشرة لا تعني شيئا بل مضامين هزيلة سقيمة. علينا إذن عندما نتصدى للمشكلة أن نرفع شعار الموت أم الحياة.. الموت يعني استمرار

النزيف والحياة العكس منه تمامًا إن أجيالا كثيرة تحملت عن أجيال أخرى حروب التحرير.. وعلى هذا الجيل وأجيال أخرى قادمة أن تتحمل وقف هذا النزيف.. لن نمنع الزواج أبدًا ولن نمنع الخلفة. بل نقرر عقوبة تنظيمية فمن ينجب أكثر من واحد عليه أن يتحمل تبعة الإنجاب.. وعليه أن يدفع قيمة تكاليف تواجد مثل هذا الفرد داخل المجتمع من الألف للياء. من لقمة الخبز حتى نفقات تعليمه وصحته.. كيف؟!

بإجراء دراسة جدوى حول تكلفة تنشئة الطفل من وقت ميلاده إلى أن يصبح فردا نافعا داخل المجتمع فيلزم وليه بدفع ضريبة تماثل كل ما يتحمله المجتمع من أجله ويطبق هذا على الطفل الثاني أما الثالث فهو طفل ولد بالمخالفة لأحكام القانون يترتب على ميلاده تقرير عقوبة رادعة تتراوح ما بين الحبس والغرامة.

الحرية دعامة كل إصلاح بدونها لا أمل في أية محاولة لرتق العيب.. الحرية تعني الرقابة والرقابة تعني النقاء والنقاء يعني سد كل الطرق أمام الفساد والإفساد. في غيبة الرقابة تذبح الشركات وتقدم على مائدة الرحمن للوزراء والكبراء والمحاسيب والأعوان بينما لا يحصل البسطاء

الغلابة إلا على الفشة والمصارين والكوارع والذيول. في ظل غيبيتها تروح أموال الخصخصة إلى جيوب المخصخصين الأفذاذ غلاظ القلوب والكروش والعروش. وتصم الآذان عن سؤال يطن بشدة.. أين أموال الخصخصة يا ولاد القط والنمس والثعلب والكلب؟!

الحرية هي الأب الشرعي لكل إصلاح اقتصادي أو سياسي.. فأي إصلاح بدون أن تواكبه الحرية إصلاح لقيط طال الوقت أم قصر إلى زوال فالنظام الذي يستلب من الأفراد حريتهم ويضع من نفسه وصيا على الناس ويوجههم فيما يفعلوه أو يرفضوه هو بمثابة الحبل الذي يلف عنقه ليخنق به نفسه والنظام الذي يحصر دور المبدعين والمبتكرين في التقليد أو التجميع يدق دون أن يدري المسمار الأخير في نعشه. وإذا حاولنا تطبيق مقولاتنا تلك على أنظمة الدول العربية نجد أنها تشترك جميعها في الرذيلتين الاستلاب والوصاية من خلال حربها الشرسة ضد الحرية بكافة صورها بلا خجل أو أعذار من رفض للمنابر الديمقراطية الحقيقية.. من تنكر لحرية التعبير.. من خلال محاكمة المبدعين بفصلهم وسجنهم "مصر والأردن"

أو بجلدهم "اليمن".. من اعتقال للمخالفين في الرأي كما هو شائع مشيع في كل الأنظمة العربية.. من تجريم إقامة رؤوس الكباري الديمقراطية على ضفاف مستنقع التخلف بصوره المختلفة.

وهي في حربها تلك المستمرة المعلنة على حرية البشر تجني ثمار العلقم كما نرى الآن على الساحة السياسية.. أنظمة يائسة .. مهلهلة. مخلخلة بائسة. محاصرة بالقديم الزائل إن آجلا أو عاجلا ستنقلب ضد نفسها عندما تلف حول رقابها حبال الثورات..

إن الصور التي نراها الآن في الدول العربية [أسيفة] ومحزنة تتجه بهم إلى الانهيار. جهل وأمية وفساد وإفساد واحتقار للعمل واستنفاذ للمخزون السلعي الاستراتيجي من بترول ومعادن والاعتماد في "المم" على الاستيراد وصور مقرفة مقززة متمثلة في ضرب القيم السائدة في مقتل ثم قراءة الفاتحة عليها والتأقلم مع الصور الجديدة الفجة بلا أدنى اكتراث أو اهتمام فينحدر الإنسان إلى النقطة التي يفقد فيها اختيارات الإصلاح إلا بالثورة خاصة مع إصرار الحكام بكافة ألوان نظمهم ملكية أو رئاسية على الاستمساك بكراسي

الحكم وكأنه إكسير الحياة إلى أن توافيهم المنية. وهذا الموت الزؤام لا يحدث غالبا إلا بعد أن يخربوا دواخل الإنسان يتركوه هامشا بعد أن كان أصلا ثابتا.. أنقاضا بعد أن كان حصنا منيعا. لا يحدث هذا إلا بعد استنفاذ أجمل ما فيه.

إن وقف انحدار خط المجتمعات العربية يحتم على الحكام ضرورة الإسراع في التخلي عن كراسيهم للاختيار الديمقراطي حاكم ومجالس تشريعية.. بدون هذا فستنفجر قنبلة الثورات وعندما تنفجر ستصيب شظاياها وجوههم وأفئدتهم. ومصر رغم ما تعانيه من مشاكل اقتصادية وإفساد ونقص في حبوب الفياجرا الديمقراطية إلا أنها الدولة التي تتصدر قائمة التهيؤ للتجربة الديمقراطية الحقيقية وذلك أن نقاط ارتكازها رغم ندرتها فهي أكثر بكثير مما تملكه أية دولة عربية وصعود خط المجتمع وتوقفه عن الانحدار لأسفل مرتبط بتوسيع قاعدة الحرية والديمقراطية فبعد الانحدارة الهائلة أثناء حكم عبد الناصر بتغييب الديمقراطية وغيبة الحرية وغياب الأحزاب وتشريع قوانين التأميم والإصلاح الزراعي الجائرة وإعلان حالة الطوارئ قام خليفته بوضع ركائز.. محاولا وقف.. أو على الأقل تقليل حدة الانحدار

فثبت دعائم السلام وأعاد مساحة ضئيلة من الحرية متمثلة في رؤوس كباري تعددية ديمقراطية لعبور مستنقع الفاشية واستطاع رغم هشاشة نقط الارتكاز أن يبطئ من الانحدار بنسب طفيفة غير محسوسة وفي بدايات عهد مبارك توقف خط الانحدار بعد تدعيم نقط الارتكاز بتوسيع دائرة الأحزاب وإفساح المجال للرأي المنشور المعارض في صورة صحف أو مجلات واستكمال مسيرة السلام المصرية وانحسار الإرهاب بعد توقف عملياته الطائشة.

لكن للأسف وللأسف الشديد بدلا من تطوير نقاط الارتكاز وتدعيمها وصب مزيد من الدعامات لها تم إجهاض التجربة الديمقراطية الوليدة في مهدها فتحولت الأحزاب لمجرد مانشيتات في صحف وتغلغل الفساد والإفساد أركان الأجهزة الحكومية حتى أصبح إحدى علامات العصر وتم توسيع قاعدة القوانين الاستثنائية المقيدة للحريات وتحولت أقلام أعاظم الصحفيين إلى لحن عالي النبرات داخل سيمفونية النفاق للسلطة. ورسم قلة من القضاة الموالين للسلطة التنفيذية بعض تضاريس خريطة الحرية السائدة في صورة أحكام قضائية قضت بسجن الكتاب والصحفيين

وأحكاما أخرى بفصل البعض الآخر عن وظيفته أو زوجته وعبرت تلك الأحكام عن ضيق أفق المسئولين واهتزاز كراسيهم وخوفهم من الكلمة الصادقة، كما عبرت عن كنه الولاء الذي يكنه بعض القضاة للنظام الذي يظلنا بناره المتقدة. وكان أن تخلخلت نقاط الارتكاز وتحولت إلى نقاط تحميل وبدأ الخط من جديد في الانحدار بصورة بطيئة.

لا أحد يشك في نوايا القيادة السياسية نحو خير البلد ورقي شعبها وتسريع خطى تقدمه، لا أحد لكنها مجرد نوايا طيبة!! يجب تدشينها بالفعل وتدعيمها بنقاط ارتكاز جديدة حتى يتوقف خط المجتمع عن الانحدار. أول نقطة ارتكاز توسيع رقعة الحرية وتعديل الدستور على أن يتضمن هذا التعديل إلغاء نسبة التمثيل النصفي الهزيلة في المجالس التشريعية والتي تحمل مفاهيم تطبيقها الطائفية بتقسيم فئات الشعب إلى ثلاث طوائف أصحاب الطاقية وأصحاب العفريتة والثالثة الفتات.. طائفية مقننة بقوانين أقل ما يقال عنها إنها ضد الدعوة للوحدة الوطنية. فما الفرق بين مفهومها ومفهوم تقسيم الشعب إلى أقباط ومسلمين. طائفية شرعها المرجوم عبد الناصر. هدفها تفصيل بردعة بالمقاس ولجام رادع

للقطيع.. ونجح في هذا لأقصى حد.. وسار على نهجه لاحقيه!!

لهذا يجب أن يتم تغيير الدستور لتتسق مواده مع المنشود اليوم من توسيع قاعدة الحرية ومع النوايا الطيبة للقيادة السياسية، فالنوايا لا تصنع تاريخًا. بل الذي يسطر التاريخ هو الجرأة والاقتحام بالتغيير والتبديل والتنوير والرقابة ومنع اللهف المستتر والمكشوف.

إننا بأسلوبنا المميز في استلاك السلبية وتغذية الأحقاد من خلال التفاوت الصارخ بين الدخول والإحساس بانعدام المساواة.. "أولاد الست وأولاد الجارية" وتزايد حدة المتناقضات. وقلة الحيلة وبذر بذور الكراهية. بهذا الأسلوب نعدم كل الحلول السلمية على مذبح المستحيل ويصبح الحل الوحيد المطروح هو حتمية الثورة.. ثورة حمراء تأكل الأخضر واليابس فلا يتبقى سوى هشيم النار.

إن الأثرياء في غيهم وضلالهم وهم يسرقون ويلهفون ويكوشون يلعبون في نفس الوقت الضائع والفقراء بحقدهم وفوارقهم الاجتماعية والاقتصادية وهم لا يملكون سوى قوت يومهم يلعبون أيضًا في الوقت الضائع. والمسئولون بسلبيتهم

وعجزهم يلعبون أيضًا في الوقت الضائع.. لا أحد يريد أن ينتبه أن الوقت أزف.. وأن الأيام تمر وأن الساعة قريبة عندما يطلق الحكم صفارة النهاية.. لا أحد يريد أن يعرف أن الفرصة مازالت سانحة لكن الكل يتجاهل وكأنهم جميعًا يتعجلون لحظة الخلاص عندما تقتلع الزوابع أعمدة السلام والحب، فلا يتبقى سوى أشلاء ومساجد وكنائس مدمرة محشورة بآلاف الضحايا.. لا أحد.. لا أحد..

إن البلية كبيرة والفالج ضخم رغم أن العلاج ليس مستحيلاً أو عسيرًا، بل هو سهل وميسور مثل قزقزة اللب ولا يتطلب سوى دعم خط المجتمع بركائز القوة الاقتصادية والحرية والديمقراطية. لم يعد مفهومًا بل مستعصيًا جدًا على الفهم تلك المناقشات السفسطائية حول جدوى التدرج المرحلي " الخطوة بخطوة" في ممارسة الديمقراطية وكأن الأمر موكولاً للناس.. هي التي تملك قرار الديمقراطية والحقيقية أن هذا كلام هزل في مضمونه وسياقه والرد عليه سهل وميسور. فكيف بممارسة ما هو محظور.. مثل هذه الممارسة شبيهة بممارسة العادة السرية!!

إن انتفاضة أي ثورة لا تحدث إلا في ظروف ملائمة.. والملائمة لا تتحقق إلا مع خط مجتمعي متدنٍ انحدار إلى الهاوية، وهل نحن وصلنا في مصر إلى هذه المرحلة.. ليس بعد. فما زالت السلطة منكبة بكل قدراتها على رتق الثوب المخروم. كلما بلى جزء قامت برتقه.. لكن ماذا لو تمزق الثوب كله؟؟ البديل الوحيد ثوب جديد من مجاميعه.. عناصره:

١- الفكر.

٢- قيادة تحمل هذا الفكر.

٣- البيئة الصالحة.

وهي ليست شروط استمرار بل نشوء.. فالتغييرات ليست وليدة الصدفة بل هي محصلة عوامل تتحكم في نشوئها واستمراريتها.. فالفكر هو بمثابة مركز الدائرة أو النواة في الخلية وهو ليس كذلك فقط في مفهوم الثورة بل أيضًا في دائرة المجتمع فهو العقل المدبر في تسيير وتنظيم حركته وهو أيضًا حجرة العناية المركزة عندما تصبح الحالة حرجة.

وحتى يستطيع أن يؤدي دوره في سلاسة لابد وأن يمتلك الأسباب التي تؤهله لذلك.. حرية الحركة.. أي مرونة

تشغيل التروس حتى لا تتكسر. هذه المرونة تتمثل في الإبداع والابتكار والتصور والتخيل بامتلاك أدواتها ومقومات ممارستها. فإذا انعدمت هلكت الخلية.

إن أهمية النواة في أي مجتمع تتمثل في القدرة على إفراز العصارات وإمداد بواقي الخلية بها تغذيها وتنشطها وتجدد أنسجتها فإذا عطبت النواة بطأت حركة أيونات ونيوترات المجتمع وأصابها الكسل والخمول ثم الخلل.

ومهمة النواة في المجتمع من استقبال وهضم وإفراز لا تستقيم إلا مع الحرية فإذا ما حدث خلل في ديناميكية حريتها أو في أجهزة الاستقبال الوجدانية أو في عملية الاستيعاب المعلوماتية يحدث ما يشبه الانفصام ما بين الخلية والنواة يؤدي في النهاية إلى رفض الخلية لنواة وطردها. وهذا هو الحاصل اليوم في الدول العربية فمحاولات طرد النواة قائمة على قدم وساق من خلال عمليات القسر والإرهاب ضد الفكر ووضع العراقيل والصعاب لوقف حركته أو إبطاء مسيرته، فالفكر ليس سوى نحلة تجول في الأنحاء.. مرة تحط على زهرة يوسفي ومرة على زهرة برسيم وثالثة على زهرة ياسمين تمتص الرحيق حتى تفرز

عسلا فيه شفاء للناس. لكن ماذا لو كان الرحيق ساما. ماذا لو كانت الزهرة تحمل سما زعافا فلن يفرز الفكر سوى السم. وهذا هو الحادث اليوم. أقلام الكتاب.. معظمهم.. لا تفرز سوى السم وإذا ما حدث واصطنع كاتب لنفسه بعيدا عن الديكتاتورية التي سممت مياه البئر العذبة عالمه الخاص.. زهور حديقته التي يمتص منها رحيقه وحاول أن يفرز عسلا شهيا يواجه بالتنكيل والتعذيب حيث يتم قص جناحيه ليحرم من تجواله العقلي ونشاطه الذهني!! ما هذا وما ذاك؟! أين مكاننا من العالم.. في طرف ذيله أم ما بين فخذيه أم في دبره؟! ما عاد الناس بشر. بل هم أقرب إلى الدواب.. يأكلون ويشربون ويتناسلون. الرحمة يا وزرا. الرحمة يا حكام الغبرا.. إن اليوم آت وقريبا جدًا أكثر مما يتصورون عندما يقدمون فاتورة الحساب لتاريخ. وقتها لن يرحمهم أحد. الدفع بالعملة الصعبة شامل تكاليف ظلم البشر وفوائد معاناتهم.

رئيس الوزراء المبجل المحترم – الذي كان – ينهض متثاقلا. يشد قامته.. يزحف بقدميه المتعبة من القعدة إياها إلى المنصة في مواجهة السادة العظام أعضاء مجلس

الطواقي واللبد والعفاريت ليتحدث عن الحرية التي يتمتع بها الناس ويلقي بيانا مبجلا أقرب إلى الغزل.. يتغزل بعباراته الإنشائية في معشوقته الحرية رغم أنها من ألد أعدائه!! فهي الوحيدة القادرة على الحد من سلطانه ومراقبة فحش أجهزته وحرمان وزرائه المحصنين من الهم والمم.. يشيد بها رغم أنه يكرها كراهية التحريم ويرجف كلما أتى ذكرها في سياق حديث مقروء أو مسموع. المبجل رئيس الوزراء يتحدث عنها حديث عاشق ولهان.. هي لا تعطي ولا توهب ولكن يمكن استحضارها كما الجن والعفاريت بالممارسة الديمقراطية!! سيدنا وحامل راية حريتنا يتناقض مع نفسه.. حقا الحرية لا توهب.. فمن يهب لابد وأن يملك ما يهب والحرية ليست ولن تكون ملكا لأحد هذا حق.. ولكن الباطل كيف بممارسة ما يتسمى بالحرية وهي أصلا غير موجودة إلا في الأخيلة.. كيف بممارسة ما هو غائب.. مفتقد.. كيف السير بدون ساقين.. كيف التنفس بلا رئتين.. وهل حقا الحرية موجودة مع تلك ترسانة القوانين الاستثنائية والطوارئ ومواد الدستور الشمولية. وهل يمكن أن ينبت الزرع الأخضر في أرض شديدة الملوحة.. إن التشدق بكلمة

الحرية والتغني بمآثرها لا يكفي لتواجدها على الساحة بل الأهم هو وجود فعلي لها.. وإلا هو كلام والسلام؟! إننا لن نختلف مع حامل راية حريتنا إننا نملك حرية.. لكن أي صنف منها؟! تلك التي لا تتعارض مع الولاء للنظام. حرية أكل رغيف خبز الذرة.. حرية شرب الماء الملوث.. حرية التناسل.. حرية الرشوة.. النفاق.. وبالعربي الفصيح أي حرية لا تخرج عن الإطار المرسوم لها. يا ويله.. يا سواد ليله من يتجرأ على الخروج عن هذا النطاق وأنا واحد منهم. وهذا لا يحدث عادة إلا في الأنظمة الديكتاتورية التي تسود فيها الخدعة أركان الحظيرة ويركب الغش الدابة ويهز ساقيه وتعلو سحابة النفاق الداكنة الآفاق العليا فتمطر أمطارا حمضية تقتل الزرع الأخضر. في هذه الأنظمة يصبح للحاكم منزلة الإله المنزه عن الخطأ فتقدم له القرابين. نشرات أخبار في الإذاعة والتليفزيون والصحف والمساجد تمجده وكتب تقدسه. معزوفات متتاليات تطن على أذن الحاكم ومن تكرارها يظن نفسه أنه خليفة الله على الأرض.. فيمارس سلطانه ويتشبه به فيستمسك بالحكم استمساك الإله بالألوهية. فمن يخلف الله؟.!

ويتساءل عوام الناس وخاصتهم في دهشة ممزوجة باليأس. لماذا هو.. هو.. ولماذا الوزراء.. هم.. حتى ولو تغيرت مواقعهم أو أشكالهم أو تصنيفاتهم على رقعة الشطرنج.. فمن يأتي مثل من سبق.. كربونة. فوله وانقسمت نصين.. لماذا لا يأتي من يختلف عن الآخر ولماذا لا يختفي نهائيا من سبق.. هل أصاب المجتمع العقم.. هل تحول إلى مجموعة من القوارير الفارغة.. الزلع الملآى بالمسن؟!

بعد العروج إلى النفق المحلي بهذه الملاحظات نعود إلى موضوعنا الأصلي.. عولمة الثورة. لابد إذن لقيام الثورات من فكر تنهض عليه يمدها بمصدر دائم للطاقة حتى تستقر أوضاعها فالثورة إطارها التطرف وهي كذلك لأنها تحارب المألوف في المجتمع من فساد وانحلال وترف بهدف التغيير للأفضل، لذلك فالثورة أي ثورة بلا فكر ثور هائج. الفكر يزف نشأتها ويبارك خطواتها ويدشن مسيرتها ويصيغ مبادءها ويحدد هدفها.

إن إنقلابة يوليو لم تكن ثورة بالمعنى المتعارف بل إنقلابة قصد بها تعديل أوضاع وتغيير مراكز فمن حكم

المدنيين إلى العسكر ومن الديمقراطية إلى الفاشية ومن الاقتصاد الحر إلى المصادرة والتأميم والإفساد الزراعي.

لم يكن الهدف من كل هذه التغييرات عيون الشعب بل خزقها حتى لا ترى الهدف الحقيقي المستتر خلف بارفان المصلحة العام.. الهدف ليس عسيرا على الفهم فالمعروف سياسيا أن التكتلات الاقتصادية لها تأثير قوي على اتجاها الدولة السياسية والاقتصادية.. لذلك كان هدف الانقلابة تفريغها من قوتها إما بالاستيلاء على مقوماتها الاقتصادية وضمها إلى مفردات السلطة أو بتفتيتها إلى ملكيات صغيرة لا حول لها ولا قوة.. الحالة الأولى طبقت على تأميم المنشآت الاقتصادية، والثانية على الملكيات الزراعية. استطاع العسكر تفريغ التكتلات الاقتصادية من مضمونها وقبلها تم ضرب العمود الفقري للأحزاب السياسية فلم يتبقَ على الساحة سوى مجموعة من الذئاب الجائعة النهمة للسلطة تعيث في الأرض فسادا أو إفسادا وتنهش كل فضيلة أو قيمة بأنياب حادة.

إن أحد أسباب قيام الثورات حدة الفوارق الاجتماعية المتمثلة في فحش التفاوت بين الثروات فعندما تصبح الصورة كالآتي:

فيلات × أكواخ صفيح

بحيرات صناعية × طفح مياه مجاري

منتجع مراقيا × سكن القبور

مياه معدنية × مياه ملوثة

ملبس بـــ ١٠٠٠ دولار × هدمة بـــ ١٠ جنيه

مرسيدس × شبشب زنوبة

دخل شهري مليون جنيه × دخل شهري ٧٠ جنيه

ناس لهيفة × ناس لا تجد اللضى.

فإذا ما وصلت إلى هذا التفاوت الصارخ دون ما علاج. وإذا أصبح هذا التفاوت سمة واضحة في المجتمع وظاهرة فإن الثورة حتمية بل وضرورة لإعادة التوازن في هيكل المجتمع فمن يملك السلطة والمال نصف في المائة والباقي عامة المجتمع يعيش أغلبهم تحت حد الفقر..

ولابد أن تكون البيئة صالحة لإنبات بذرة الثورة وهذا لن يحدث إلا إذا توافرت كل أسباب نجاحها من بيئة صالحة

وبذرة وإنبات ورعاية البيئة الصالحة تستدعي وجود السماد والبذرة فكر الثورة والإنبات مسئولية الشعب والرعاية القادة.

إن مصر تمر بمخاض الثورة السلمية من الممكن أن نساعدها لتلد مولودها بسهولة ويسر ومن الممكن إجهاضها. لكن الخوف كل الخوف أن يركب موجتها العسكر. لذلك علينا أن نرتب خطوات ميلادها في سلام دون إراقة قطرة دم واحدة لأن العكس خطير. السيناريو لا يمكن تصوره عندما يحفر الثري لنفسه قبره. وعندما تدق قبضات العنف على بوابات السلام والضحايا وشيطان يقهقه عاليا من منظر الدماء والجماجم.

علينا إذن أن نتخذ خطوات جادة حتى نفوت على راكبي الموجة غرضهم الخبيث العودة بمصر إلى عهود العسكر.. فلنبدأ بإلغاء القوانين الاستثنائية وقوانين الطوارئ.. إلغاء الدستور وإحلال آخر ينبثق من مقتضيات هذا العصر وينهض على أسس ديمقراطية انتخاب رئيس الجمهورية لا فرضه بجبرية النص.. إلغاء نص اللبد والطواقي والعفاريت في المجالس التشريعية.. فلا يوجد ما يسمى بديمقراطية المراحل مرحلة.. مرحلة.. كل شيء أو لا شيء.

لا خشية من الانفتاح الكامل على الحرية فهي الوسيلة لثورة سلمية فإنقاذ مصر من العنف والدمار في الخارج وخاصة في أمريكا يرصدوننا.. يتصيدون لنا الأخطاء.. يتحينون فرصة الانقضاض.. لن يمنعهم عن هذا سوى تفاعيل الحرية في ضمير الشعب.. مصل الديمقراطية حتى يقف النزف الذي ينزفه المواطن المصري فلندع الناس تتناقش.. تتحاور.. تتصارع.. تتخاصم.. تتصالح.. فليس أمامنا من طريق سوى الحرية.. إن ثورة الإصلاح وشيكة.. فلنساعدها بتمهيد الطريق لها بتحطيم الأصنام وتفجير العوائق فلا نخاصمها أو نحاربها ولن يحدث هذا إلا إذا بدأنا مسيرة الحرية. نعقد معها معاهدة سلام موضوعها الحفاظ عليها ورعايتها وتدعيم تواجدها.. عند هذا فقط لن يحدث عنف أو نزف دماء في الشوارع ولن نرى أجسادا تتطاير أو قنابل تنفجر.

إن ما يحدث في مصر الآن من عملية نشل تذكرنا بمثيلتها بعد إنقلابة ٥٢ والتي أخذت صور المصادرة والتأميم والاستيلاء على ما يتم اليوم تحت منظومة الخصخصة تكرار لما حدث مع اختلاف في أطراف النشل.. فالنشال كان في

الماضي الدولة ممثلة في العسكر والمنشول الناس.. أما اليوم فهي عملية قرصنة يقوم بها قراصنة كبار ووزراء وأعضاء مجالس تشريعية متحصنين داخل سفينة الدولة بالمدفعية الثقيلة والدروع ضد رقابة منهكة غافلة وعدل حبيس داخل ضمائر هشة وقاذفات صواريخ بعيدة المدى تطول كل من يتجرأ على التفوه بعبارة "أف عليكم وعلى أهاليكم" حتى تتم عملية القرصنة بدءا من الهجوم وانتهاء بتوزيع الغنائم ومرورا بالقنص..

لم نتعلم من الماضي ولا تجاربه ونحن نكرر أخطاءنا السابقة.. فمنشآت الدولة تباع بثمن بخس ويتم سرقتها عيني عينك بالتواطؤ مع المسئولين دون ذرة خجل بينما أفراد الشعب المغلوب على أمره لاهية بلقمة الخبز العسرة المغموسة في مرارة المعاناة المخلوطة بالذرة الشامية طعام الدواجن.. كنا نأكل الفول وارتضينا أن ننهق كما الحمير والآن نأكل الذرة.. فهل يأكل الوزير نفس الرغيف؟! نأكل الذرة وعلينا أن نكاكي كالدجاج. كل الناس تتطور إلى الأفضل ما عدانا نحن دون. دون بالإنجليزي أي تحت. تحت .. بالعربي.. الحمير ترفص وتعض أحيانا أما الدجاج

فيذبح.. ونتمنى من أعماقنا بعد أن انحدر الخط البياني للمجتمع أسفل سافلين أن نذبح كما الدجاج حتى تنتهي مشكلة النظام بعد التخلص من الناس.. كل الناس.. هذه أمنية رغم أن تحقيقها يفقد النظام صفة الشرعية المرتبطة بوجود بشر.. فلماذا إذن تعذيب البشر رغم أن تواجدهم ضرورة حتمية لأي نظام لا يستقيم أمره إلا بهم. فلماذا يتم جلدهم وإيلامهم حتى يصلوا إلى حد الكراهية.. أو ليس هذا منتهى التناقض أو ينقلب النظام ضد قاعدته العريضة ويخاصمها بل ويناصبها العداء بينما هي تعد الليالي والساعات وربما الثواني للتخلص منه.

إن المتأمل لأمور القرصنة يصيبه التعجب والدهشة حول الصمت المريب الذي يغلف وقائعها المتتالية. أبدًا ليس خوفا فالذي يخاف كثيرًا ما يتمرد على مصدر الخوف بل هو السكون الذي يسبق العاصفة.. أشبه بصمت الحكيم قبل أن يتلو الحكمة. وإنني أشتم رائحتها العبقة بالدخان والبارود والدم الطازج فكيف لا أبالي وأنا أستشعر الخطر على بلدي وشعبي العريق.. كيف لا أكترث وأنا أرى الغيوم تتكاثف في سماء وطني نذير الشر كيف أصمت على محنة اقتربت مني

ومن أسرتي وأولادي تخنقنا بأيادي العنف.. كيف أبكي ولا يرى أحد دموعي في تلك السطور حتى يسألني فأجيبه أخاف على زهور بلدي أن تدوسها قدم العنف.. أخشى على وطني كوسوفا أخرى والتنين الأمريكي يتنمر وهو يهدد ويتوعد.

إن بدايات العاصفة تشتمها الأنف الذكية من خلال هذه المفارقات التي فاقت حدتها كل العصور.. ثراء وصل من الفحش حدا يخجل منه الثراء نفسه وفقر وصل حتى النخاع ولا مردود لتلك المفارقات.. المردود الوحيد تقارير مخابراتية وأمنية "كل شيء عال العال" رغم أن الأعمى يستطيع أن يحس زحف أوراق الأشجار وقد لوثها الحقد التي تقذف بها بوادر العاصفة على الأرصفة والإسفلت الأسود.. اليوم الأوراق وغدا تتكسر الفروع قبل أن تقتلع العاصفة الأشجار وقتها سنذرف دموع الندم أننا اشتممنا ورأينا وانخدعنا لكن بعد فوات الأوان!! إنني أشتم بوادرها وما من سبب يدعو لذلك سوى الاستمساك بكراسي الحكم ووأد الحرية وسجن الكلمة وحبس عصافير الشباب داخل أقفاص البطالة كم أخشاها تلك العاصفة.. كم أخاف على وطني

منها.. على ابني.. على حب دفعت ثمنه في السجون والمعتقلات.

ستصرخ أمي في قبرها وأبي وجدي الأميرالاي "على عمر" الذي حارب مع عرابي وستصل الصرخات إلى مالكها تنادي ببعث الأموات بعد أن عجز الأحياء عن وقف زحف العاصفة.. عن تطهير الأرض من دنس المفسدين وسأنضم لطابور الأموات أدافع عن وطني بروحي.. أفتديه من الطغمة الفاسدة.. وكنا نستطيع ذلك.. ليس بعسكر الأمن المركزي وعصيهم وكلابهم ولا بتمركز الدبابات على نقاط العبور ولا بلجان التفتيش الشرطية ولا بقتل عشرات أو مئات الأبرياء أمر واحد يغنينا عن كل ذلك أن نرحل بعقولنا إليها بأن نتعرف على أسبابها.. هي ليست خافية علينا.. ثم نحاول الفحت في الجذور.. سنجدها تالفة بعد أن تملحت الأرض وتسرطنت.. ثم تأتي المغامرة العظمى تغيير التربة أو تسميدها بأن ننفخ في الصور أن الحرية مشاع لكل الناس.

يتبقى أخيرا من عناصر الثورة القيادة.. والقيادة تتم بطريقة الانتخاب الطبيعي.. الطبيعية تفرز الأقوى.. تنتخب

الأفضل لذلك لابد للقيادة من أغلبية كاسحة تؤيد مسارها ومنهجها.

ولأن القيادة نظام إلهي. فالله يقود الكون بقانونه الذي سند بدقة متناهية.. دائرة هذه القيادة الضخمة يليها دوائر أقل.. قطعان الحيوانات.. الطير.. البشر لابد لها من قيادة تترسم خطاها.

التوأم اللدود

قلت لمصباحي وقد أضناني التعب وهدّني الإرهاق:

- أما حان لي أن أعود لمملكة السلام؟

زهزه بنوره.. أجابني:

- زهق أم يأس؟؟

- الاثنان معًا.. فقد بح صوتي والناس ودن من طين والثانية من عجين.

- ولماذا الاستعجال؟

- كل هذا الوقت واستعجال!!

- نعم فحتى تثمر شجرة الحرية أمامنا سنوات وسنوات.

- لكن الظلمة كثيفة وأشعة الشمس ضنينة.

- بالجهد والمثابرة ستتكشف الغمة وتضاء جوانب المعمورة.

- متى؟

- عندما تعثر على الإجابة.

- ألم تقل لي أن الإجابة متغيرة تختلف من شخص إلى آخر حسب ثقافة هذا الشخص أو قدراته أو تقاليد مجتمعه أو طول ذيله أو قصره أو ضموره.

- ما عدا الثوابت التي أفردنا لها فصولاً والتي ستبقى لازمة من لوازم المجتمعات.. انفصالها عنها يؤدي إلى انهيارها..

- ومن يفهم؟! ومن يعي؟!

- إنها رسالتك يا صديقي التي تحملها إلى هؤلاء البشر.. متبلد الذهن عقيم الفكر.

- والنتيجة مع مثل هؤلاء!!

- نراها الآن على الساحة وقد انسابت قطرات الماء إلى شقوق الأرض العطشى وغدا وليس هذا الغد ببعيد تنبت الأرض.

- بعد كام سنة. بعد كام قرن!!

- مازال أمامك الكثير لتفعله المهم أن لا يمسك اليأس بتلابيب إرادتك!!

- بل أنا في بؤرته. فالحاكم تتقد عيناه بالشرر.. والقيادات تسن أسنانها لي.

- تخاف الموت..

- بل أخاف ما هو أشد وطأة من الموت.

- تقصد السجن!!

- وهو فيه غيره.. فما أقسى أن يموت الإنسان وهو حي.

- إلى هذا الحد؟!

- وأكثر فسجن حرية الكاتب أشد وطأة من موته. هل تعرف لماذا؟ لأن الموت يحدث للإنسان مرة واحدة أما السجن فيموت الإنسان معه كل دقيقة.. ألف وأربعمائة وأربعون مرة في اليوم الواحد.

- ألا تساوي هذه التضحية ما أنت مقدم عليه؟!

- يساوي في حالة واحدة أن يقدر الناس تضحيتي.

- ليس الآن.. ربما فيما بعد سيتغنون بك كما تغني الفرنسيون بجان جاك روسو مفجر الثورة الفرنسية.

- كنت أتمنى أن أرى تباشير دعوتي قبل أن أموت.

- مثل كل المصلحين والأنبياء.. لم يعيشوا فترات ازدهار دعواتهم.

- كم تريحني بكلماتك.

- كفاياك كلام وتعالى بصحبتي لأريك أكثر المشاهد إثارة.

- حركْتَ كوامن استطلاعي وكأنك ذاهب بي إلى حافة الخطر.

- أكثر.. بل حافة الموت.

- زدتني تشويقًا.. أفصح.

- هل رأيت مرة كيف يصنع الساسة التآمر!!

- سمعت كثيرًا لكنني لم [أرى].

- هذه المرة سأريك كيف يمسك المتآمرون بخيوط المؤامرة وكيف يخططون لإنجاحها.

- وأين سنجد هذه الإثارة.

- بعيد.. بعيد.. حيث يسلقون بيض العرب.

- العرب مثل غيرهم من أجناس البشر.

- لكن بيض العرب أسود من الزفت.

- فهمت.. تقصد الجاز.. لكن ما صلة هذا بذاك.

- حتى تستكمل المؤامرة كل أبعادها فهم يخططون لنزف قلبها.

- ويصبح الموت هو النهاية المحتومة.

- صدقت.

- هيا إذن إلى الحقائق.

- الحقائق قبل أن تتعرف على الضحية والذابح..

- لقد حوّمت حول الضحية منذ قليل لكن ما أجهله هو الذابح.

- لأن له وجوه ثلاثة.. الأول تعلوه ابتسامة زائفة، والثاني تكشيرة صامدة، أما الثالث فهو خليط.

- ما هذا وما ذاك وما تلك.

- البسمة حتى يستنزف موارد أنظمة عربية غبية.. والتكشيرة يظهر بها العين الحمرا.. والأخيرة يؤدي بها دور الحرباية.

- بدأ عقلي يقترب من فهم أبعاد شخصية جيكل ومستر هايد.

- الأيادي تشير إليه كلما حلت كارثة على شعوب العالم المتخلف.. الانقلابات والمؤامرات والدسائس..

- لم أعد قريبًا فحسب بل بت أتعايش مع الحقيقة بعقلي.

- إذن فأنت تتفق معي.

- على طول الخط.. فهي تقدم المعونة بالشمال، ثم تعصر القلب باليد الأخرى.. تتشدق بالديمقراطية وتدعو للحرية في الوقت الذي تساند الأنظمة الفاشية وتهلل لقادتها وتحميهم من مخالب الديمقراطية اللعينة!!.. فإذا ما احترقت أوراقهم حرقتهم.

- بدأت تدخل منطقة الخطر يا مصباحي.

- لماذا الحقيقة دائمًا موجعة؟ إنها وراء اختفاء عبد الناصر من الساحة ووراء اغتيال السادات ووراء عزل شاه إيران.

- قلت اختفاء عبد الناصر من الساحة. ماذا تعني بهذا؟

- أعني أن عبد الناصر لم يمت بل كل ما حدث أنه ترك الحكم جبرًا بعد أن عزلوه.

- كلام خطير.. أكيد هذا حدث قبل موته!!

- هذا إذا كان قد مات أصلاً!!

- يا نهار أبوي أسود!!

- هو أسود ومنيل بستين نيلة عندما نجهر بالحقيقة.. وإنها قصة أخرى ليس مكانها هذا الباب التآمري الضيق.

- ولماذا كل هذا التآمر. لماذا خوزقة محاولات التقدم الاقتصادي والترشيد الديمقراطي.

- حتى الآن لا تعرف.

- لقد عجز عقلي أمام مواقفها المتناقضة. تندد بالإرهاب في الوقت الذي تمارسه.. تنادي بالحرية في نفس اللحظة التي تجهضها.. بح صوتها من الحديث عن حقوق الإنسان المهدرة في العوالم المتخلفة في الوقت الذي تمارس فيه الاعتداء.. الدعارى ضد أي ممارسة لحقوق إنسان تطولها.. تشجب الديكتاتورية والفاشية وتعاديها في الوقت الذي تصادق فيها حكامًا يقيمون لها عرسًا وأفراحًا وليالي ملاحًا.. تتباهى بالنظام العالمي الجديد لأنه يضعها سيدًا على العالم كله. هي هند بنت عتبة التي لاكت كبد حمزة وجذعت الأذنين والأنف وصنعت منها خلاخيل وقلائد.

- إلى هذه الدرجة.

- وأكثر.. إنها تمنع مبادرات الشعوب للتقدم بتخويفها.. سلاحها قوتها ووعيدها المفرط في الصلف "هتتخلفوا ولـلا هيه نجيب عاليها واطيها"

- زدتني تشويقًا وإلحاحا في المعرفة.

- هيا إذن معي لتقرأ معي السيناريو المقبل.

- أي سيناريو تقصد؟

- هذا الذي تم إعداده منذ زمن بعيد توطئه لوضعه موضع التنفيذ.

- معك إلى النهاية.

- إذن هيا إلى المستقبل نفتح متاريس أبوابه حتى نستطيع أن نرى ونطلّع على كتابه.. نفتح صفحاته ونقرأ فيه ألاعيب لا تقل غرابة عن ألاعيب السحرة.

- أية متاريس تتحدث عنها.

- الشفرة يا صديقي.

- ومرموزها..

- هذا الاجتماع العاصف الذي جمع بين ستة من صناع سياسة هذا الغول الذي يعيش على مص دماء الفقراء.

السيناريو المقبل

القنفد.. الرئيس الحليوة صاحب الوجه الصبوح.. ملامح طفولية غضة تحفها بسمة عفوية تلقائية حتى في أشد اللحظات نكدًا.. خلف نعومتها الخادعة أنياب ومخالب ذئب متحفز.. شعر فضي ناعم ينمو في فروة رأس منبعج بأوهام عظمة الأوحد.. سرعان ما تنفر تلك الشعيرات الناعمة. تتحول إلى أشواك حادة لحظة الإحساس بالخطر. رغم وداعته فهو مثل ذئب شرس متحصن داخل قطيعه يتحين لحظة الانقضاض على الفريسة. يناوشها في إصرار ليتعرف على نقاط ضعفها وفي اللحظة المناسبة يطول رقبتها بأنيابه ويبدأ في الالتحام بها حتى يفترسها.

النمر على يمينه يجلس على كرسيه بداخله كل الحقد على الرئيس الحليوة.. يتمنى أن تمر الأيام ليحل محل هذا القرد المتربع على عرش العالم!! هو انطباعه عنه كلما أمعن النظر إليه لا يراه سوى متعلقًا بفرع شجرة متنقلاً على غصون الأشجار.. لذلك فهو دائمًا يتعقبه بابتسامة هزلية

حتى لقد سأله الرئيس مرة عن معنى هذه البسمة فرد عليه بتلقائية "قرد أقتنيه في قفص رغم أني أريد التخلص منه".

على يسار القنفد تجلس امرأة مكتنزة.. آنسة قولاً لا فعلاً.. دسمة الفخذين تحت ذقنها العريض يتجمع شحم غزير يغطيه طبقة جلد ناصعة الإبيضاض.. وسؤال يتخايل على القنفد.. كيف هذه المرأة مع رجل في فراش.. هل تثيره هل لها ما للنساء من أحاسيس ورغبة في الإنشاء من رجل.. أم نسيت تمامًا أنها امرأة لا تضمنها أحضان رجل ولا تلهث على صدره. القنفد يبتسم.. في ابتسامته معنى القرف وهو يتخيلها في أحضانه عارية كما ولدتها أمها.. هي الأخرى تنظر إليه لكن نظرتها حانية.. لقد تمنته كثيرًا بل وعبرت عن أمنيتها تلك مرة وهي تدلك يده براحة يدها عندما صافحته.. فهم القنفد الإيحاء.. أهملها وتنكر لها وهو يهاجم سياستها في علاج أزمة الطفل الكوبي.. المرأة أو الفتاة تضع ساقًا على ساق. ليس للإثارة بل للتعبير عن الثقة.. الرئيس ينظر إلى سمانة فخذها.. يبلتع ريقه.. "بس لو ترجع عشرين سنة لورا"

أمام الرئيس مباشرة يجلس "بيرجو" مستشار الأمن القومي في حلته الفاخمة دفع ثمنًا لها ثلاثة آلاف دولار منذ أيام. مثل طاووس يستعرض ريشه الأرجواني لا ينقصه سوى التجوال في الحجرة البيضاوية. متأهبًا لكل سؤال يثور حول السيناريو. فقد اشترك في كتابته مع مجموعة عمل وقام بمراجعته عبارة.. عبارة.. كلمة.. كلمة.. كل حرف فيه.

بجواره يجلس "جون" مدير السي آي إيه متنمر.. متحفز.. فهو المسئول عن تنفيذ الخطة بحذافيرها. المخرج الذي يحول كلمات السيناريو إلى أدوار حقيقية المخطط الأول.. المهندس التنفيذي للمشروع.. عليه اختيار العناصر التي تكفل النجاح والمعدات والأفراد والوقت والمكان.. عليه أن يراعي الملاءمة بين التخطيط و التنفيذ يعرف ذلك لهذا فهو مستعد.. متوثب لأي طرحة سؤال من جانب الحضور.

أمام الرئيس في أقصى اليسار يجلس "كريز" حكيم الجلسة "وهو كريز" السفير المسالم المتسالم.. ما يميزه عن كل هؤلاء هو الخبرة والحنكة السياسية.

موضوع الاجتماع محدد.. جوهره حماية الأمن القومي الأمريكي.. أقطاب السياسة مدعوون لمناقشته لاتخاذ قرار

بشأنه.. الفريسة على الورق تنتظر نهشها وانتهاك قدسية جسدها.

مصر بلد مسالم بأناسها بحكامها الذين توارثوها وحولوها إلى أنشوجة معبأة في علبة من القوانين الاستثنائية لا حول لها ولا قوة. الخوف كل الخوف أن تدب الروح في هذه الأنشوجة فتتحول من كينونتها المحفوظة إلى حياة لتحطم غلاف صفائحها وتعلن التمرد على معاني العدم والموت واللاتواجد ويفاجأ الجميع بحوت ضخم.. يبتلع كل ما حوله من أسماك عربية وأفريقية! السيناريو تم وضعه منذ الستينيات. ثم حفظ في الأدراج إلى وقت الحاجة إليه عند ملائمة مناخ التنفيذ وتم استبداله بحلول وقتية.. لم يكن المناخ ملائمًا لوضع السيناريو موضع التنفيذ فالبلد كلها من أدناها إلى أقصاها تنتحر.. تخنقها يد غير منظورة فما الداعي إلى مثل هذا السيناريو الصريح وحتى بعد ٧٣ مع الاندفاع المتهور لحضن أمريكا، إلى أوائل سنة ٩٣ لم يجد صناع السياسة الأمريكية ضرورة لجر رجل مصر إلى حفرة السيناريو.

لكن ما الذي طرأ حتى يسحب صناع السياسة الأمريكية السيناريو من درج رئيس المخابرات المركزية وينعقد هذا الاجتماع الهام لبحث تنفيذه ضمن إحدى مخططات السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط.. لابد وان حدثًا جليلاً قد طرأ.

بعد تحقق قدر طيب من الحرية الاقتصادية وآخر يسير من الحرية السياسية وبد أن شبع أهل الحكم وامتلأت كروشهم وزهدوا المم بدأت الروح تدب في الأنشوجة ونما لها زعانف وخياشيم وتحركت توطئة للخروج من علبتها وتجاوز المساحة المحددة لها إلى المتاحة بالتحول من النظام العسكري الفاشيستي إلى آخر مدني تنتقل بموجبه السلطة من مجموعة أفراد عسكريين إلى جموع الشعب من خلال نظام ديمقراطي هذه النقلة تمثل تهديدًا للمصالح الأمريكية التي تعتمد في استراتيجيتها على ضعف الدولة المصرية وكمونها.. وما عاد يصلح لها الحلول الوقتية بل يجب وضع حل دائم وثابت تعود به الدولة المصرية إلى ما قبل عهد مينا وقد تحتاج إلى مئات من السنين ليوحدها مينا آخر..

فالخوف كل الخوف من تنامي القوى الشعبية الديمقراطية التي تهدد بالتالي الكيان الصهيوني المنزرع

في قلب الدول العربية.. أمريكا تعرف أن السبيل الوحيد لاقتلاع هذا النبت الغريب من كيان العرب هو إحلال نظم ديمقراطية تحل محل النظم الفاشية.. لو حدث فهو البداية لتهديد الكيان الصهيوني وبالتالي تهديد المصالح الأمريكية في المنطقة بأسرها..

لذلك فإن إحدى دعائم سياسة الأمن القومي الأمريكي إبقاء هذه الدول داخل طوق التخلف ولن يتم هذا بإحلال الديمقراطية محل الديكتاتورية.. لهذا فساسة أمريكا يعظمون الديمقراطية لشعبهم في الوقت الذي يحاربونها في أي دولة عربية. فقواعد الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط قائمة على دول متخلفة "أنظمة ديكتاتورية" تحقق مصلحة الشعب الأمريكي.. فليس من مصلحة الشعب الأمريكي قيام نظم ديمقراطية عربية لأن هذا يعني بالبنط العريض انتقال السلطة من الحكام الفاشيست إلى الشعب ولو حدث فلن تستطيع أمريكا بهيلمانها هزيمة إرادته خاصة وأن لها تجربة مأساوية في فيتنام انتصر فيها الشعب الفيتنامي الأعزل.

لهذا فالتفكير في إجهاض أي تجربة ديمقراطية أو اقتصادية ناجحة داخل رحم أي شعب عربي هي من

أولويات سياستها الأمنية الاستراتيجية وهو الوسيلة الفعالة لقتل أي جنين قبل أن تتضخم ذاته ويصبح من العسير القضاء عليه.

هذا السيناريو طبق بحذافيره على تجربة العراق الاقتصادية النامية التي كانت ستؤدي حتمًا إلى ترسيخ تجربة ديمقراطية ناجحة عندما حشد الساسة الأمريكان جيوش العالم بأجمعه للقضاء على الجنين الاقتصادي بعد أن تجاوزت نسبة نموه ١٢%. وانضم لزمرة المحاربين بعض جيوش الأنظمة العربية أملاً في الحصول على قطعة من التورتة ولكن للأسف عادوا من المعركة وقفاهم يقمر عيش بعد أن فقدوا ثقة الشعوب فيهم.

لم يكن مفهومًا للشعوب أن تتسابق بعض أنظمة الدول العربية لحرب لا ناقة لها فيها ولا جمل. وسؤال يتخايل على الساحة السياسية ما هو الأفضل احتلال بلد عربي للكويت أم استعمار أمريكا لكل دول الخليج!! نعم أمريكا تستعمر الآن دول الخليج وتتنمر لباقي الدول العربية. مرة تكشر عن أنيابها ومرة أخرى تهدد وتتوعد ومرة ثالثة تسقي السم في صورة معونات.. تعطي باليمين ما تأخذه بالشمال فما هي

الكويت هذه حتى تقوم أمريكا بحمايتها.. لا شيء.. مجرد رذيلة صغيرة محسوبة خطأ أنها دولة. لكن مصلحة أمريكا هي كل شيء.. هي دافعها الحقيقي إلى استعمار دول الخليج وحصار العراق.

بالدور.. بالدور يا سادة.. كله بالدور.. العراق أولا.. ثم مصر ثانيًا يليها السودان فليبيا. بالدور فلماذا الاستعجال؟!.. لكن ما سبب هذا الترتيب الأحمق. لماذا مصر قبل السودان لماذا لم تكن ليبيا؟!. لأن أمام السودان وليبيا وقت أطول حتى تدب في الإنشوجتين الروح والحركة. أما مصر فقد بدأت تنفض عن نفسها غبار الماضي الكئيب بفتح صفحة جديدة من الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ليصبح لها دور ذاتي مستقل بعيدًا عن غوغائية السياسة الأمريكية وامتهانها وإهانتها للشعب المصري بهذه الملايين من الدولارات التي تتجسس عن طريقها على كل تفصيلة علمية واقتصادية وسياسية وعسكرية..

تدفع له معونة للتجسس على شئونه كلها.. حتى أبحاث التغذية والأطعمة والمواليد والأمصال والتعليم والاتصالات والإعاقة والفقر والثراء كلها مرصودة بالعين الأمريكية.

استعمرت أمريكا سجلاته وأموره وشئونه الخاصة حتى باتت تعرف كم من المرات يأتي الرجل زوجته في الشهر!!

بدأت أمريكا منذ سنين قليلة تستشعر الخطر والشعب يحاول تصحيح أوضاعه الاجتماعية والسياسية المتردية وإذا حدث هذا فقد تحول إلى قنبلة موقوتة في وجه أمريكا.. لماذا لأن طموحاته لن تقف عند حد. لقد أقنعت أمريكا حكام دول الخليج أصحاب الشباشب والزنانيب بأن انتفاضة مصر خطر عليهم وأنها هي الأم الحنونة صاحبة الصدر الناعم.. تهدهد عليهم وتحكي لهم حكايات الشاطر حسن والعفاريت ليغطوا في النوم وكان. أنظمة خليجية متهافتة وشعوب تمارس حياة قريبة من حياة قريش قبل الرسالة.. الفرق هو هذا المال الذي أتى إليهم من بطن الصحراء.. لولاه لكانوا الآن يرعون الإبل والأغنام منخرطين في قبائل تهاجم بعضها البعض طلبًا للزاد.. لكن هذا الثراء المفاجئ لم يغير كثيرًا من طبيعتهم البدائية التي تحن إلى الإبل والماعز والعشب وما يتصل بها من أخلاقيات البدو والانخراط في التخلف.. وعندما ينفذ معينهم من البترول سيعودون إلى حالتهم الأولى همج.. الفرق أنها تقطن العمائر بدلاً من الخيام.. يمارسون حياتهم

البدائية الأولى من رعى وصيد ويأكلون الأظلاف والدما مخلوطة بوبر الجمل..

وإذا كانت أمريكا الآن تسن أسنانها الآن لنهش مصر فهي تفعل ذلك تحت مظنة حماية مصالحها في الشرق الأوسط التي باتت مهددة بفعل الديمقراطية الوليدة.. لقد بدأت بالعراق بعد أن أعطيناها المبرر هدية في ورق سلوفان واستطاعت أن تشق الصف العربي بقوة واقتدار وأصبح للعرب معسكرات عدة أو بمعنى آخر انشقت الأنظمة العربية على نفسها.. فمن أيد العراق في محنته يلعق جراحه ومن ساند الكويت "واخد صابونة" والأخير وقف موقف المتفرج.. وانكسرت عظمة الترقوة للدول العربية عامة وأصبح التئامها من رابع المستحيلات بعد أن أصابها مرض انفصام الشخصية بانفصال الشعوب عن أنظمتها.

والآن جاء دور مصر في أوراق الخطة الجهنمية لوقف نبضها بنزفها حتى الموت بعد أن أصبحت مرموز القدوة. فهي مستهدفة لفصيل جديد من التآمر هدفه الارتحال بها إلى الماضي حيث الديكتاتورية والشمولية وحكم العسكر اعتماداً على سياسة الانشقاق.. تفكيك الحبل المجدول بعنصري الأمة

قبط ومسلمين وتمزيق خيوط كل منها وإتلافها.. ذلك بإحداث صدمة الفوضى العارمة ولن يتم هذا إلا بألم شديد تجهض من خلاله آمال عظام وتدفن طموحات غالية في التقدم والترقي.

لكن هذا لن يحدث إذا امتلك الشعب شجاعة المواجهة وجرأة التحدي بإعمال قانون الحرية. حيث يتواجه بكل فئاته مع دنس المؤامرة بالتطهر من رجس الفاشية بقطع خيوطها والقذف باللاعب المتآمر في مزبلة التاريخ.

لذلك فالتعجيل بامتلاك الشعب لإرادته إحدى أهم أولويات السياسة المصرية حتى يستطيع المواطن العادي أو يدوس بحذائه إذا كان يملك حذاء أو بالبلغة أو بالشبشب رئيس أي دولة يجرؤ على التفكير في تفكيك الحبل المجدول.

وهذا يتطلب وإعلان حالة التنبيه العام القصوى على كافة المستويات لخطة أمريكا الجهنمية في وأد الحركة الإصلاحية المصرية بتفكيك الضفيرة ثم إتلاف نسيجها.. فقد بات من غير المفهوم سن قانون أمريكي لتنظيم حياة شعوب أخرى.. وهل تسمح أمريكا لدولة ما أن تفعل ذلك بمصالحها.. هل تسمح أمريكا لمصر أن تسن قانوناً يحمى

السود من عنصرية البيض داخل ولاياتها.. غير مفهوم التدخل في خصوصيات دولة أخرى بسن قانون للاضطهاد الديني.. واتخاذه ذريعة للتدخل السافر بتمزيق نسيج المجتمع إلى فئتين أو فئات.

لابد من الاعتراف أن قانون الاضطهاد الديني الذي شرعته أمريكا كان مقصودًا بتشريعه مصر..

إن نصوص هذا القانون توجب على الإدارة الأمريكية التدخل في شئون دولة أخرى إذا استشعرت وقوع اضطهاد ديني يستهدف فئة أو مجموعة أفراد!! إطار فضفاض وضعته أمريكا للتدخل في شئون الدول لمجرد الاستشعار عن بعد!!

ويثبت هذا تقرير خطير تم رصده من داخل أروقة صناع السياسة في الولايات المتحدة الأمريكية.. تقرير سيصيب العالم بفزع أكبر من الفزع النووي سيضع أقدامه على حافة فوهة بركان سيفضح ساسة دولة الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان سيصمها بوصمة أبدية.. سيوقظ التساؤل النائم في أحضان المجهول من هي الضحية

التالية لمصر.. ربما روسيا.. ربما الصين. أندونيسيا.. اليابان.. المانيا؟!

لهذه الأسباب فالتقرير مفزع.. استغرق في إعداده وقتًا وجهدًا ومراجعة دقيقة لكل بنوده من الألف للياء.. لكن الاستعجال في تنفيذه قد يصيب السياسة الخارجية الأمريكية في مقتل.. لهذا يجب تمهيد الأرض وريها وتسميدها بالمخصبات قبل قذف بذرة الشر فالخطأ قد يترتب عليه فقدان الثقة وهذا هو لب مصداقية السياسة الأمريكية وربما تخبطها.. لذلك فقد أرجئ أكثر من مرة اكتفاء بالحلول المرحلية.

الاجتماع عاصف.. متوتر شديد الحساسية.. فالحُضور صناع السياسة الأمريكية يرأسهم القنفد والموضوع خطير يحمل في داخل إطاره كل عناصر المؤامرة لكنها أمريكا والمتآمرون ساستها!!

الاجتماع العاصف

الجلسة طالت والنقاش ما زال دائرًا على أشده.. بغية وصول صناع القرار إلى قرار بشأن وضع قانون الاضطهاد الديني موضع التنفيذ.. المقدمات والأسباب التي تخول للإدارة الأمريكية التدخل.. النتائج المحتملة لهذا التدخل والمتوقعات على الساحة العالمية والمحلية.. ورغم أن الرئيس قرأ خطة التقرير أكثر من مرة قبل أن يعترك مناقشته مع معاونيه إلا أن علامات استفهام كثيرة أطلت برأسها لتشكك في جدوى هذا التقرير.. وكل مرة تلوح في الأفق بادرة شك كان يطرحها للنقاش حتى لقد أصبح شبه مؤكد أن التقرير بحالته التي قدم بها سيرفضه الرئيس بثلث ولن يتم التوقيع عليه توطئة لإجراء تعديلات جوهرية على بعض بنوده تتناول أكثر دقة نتائجه المحتملة.

التقرير معنون "التوأم اللدود".. يشتمل على ثلاث مخططات "الصقر" و "الزوبعة" و "النحلة".. الأولى تعتمد على صدمة الانقضاض، والثانية عمادها سرعة الريح وما تثيره من غبار يحجب الرؤى، والثالثة شغالة النحلة التي

تلدغ ثم تموت ويتم تنفيذ الأخيرة في أحوال فشل الخطة الأولى والثانية.. الفارق الزمني بين الخطط الثلاثة ضئيل تحكمه اعتبارات النجاح أو الفشل.. لكن المشكلة التي تنبه لها الرئيس وركز عليها وأشر بها على صلب التقرير إسقاط التقرير من خريطته نهائيًا مردود الشعب المصري بفئاته المختلفة وكأنه شعب غواني أو معاتيه غابت عنه إرادة الحياة بعد أن تحول إلى بغل مركوب.. خطأ فادح هذا الذي وقع فيه التقرير فلم يقم للشعب أي اعتبار أو حساب اعتمادا على انهيار السلطة وفقد النظام لسيطرته على مقاليد الأمور.. لم يكلف واضع التقرير نفسه تحليل مزاج الشعب المصري بدقة تحليلاً علميًا فلو حدث لتغير التقرير تسعين درجة، ذلك أن هذا الشعب سيتصدى بقوة لأي محاولة لتقطيع أوصال وحدته الوطنية لن يقف ساكنًا أمام محاولات تفكيك أو إتلاف نسيجه..

أمام هذه النقطة توقف الرئيس كثيرًا وهو يطرح سؤالا ذكيا على "بيرجو" مستشار الأمن القومي:

– التقرير خالي تمامًا من ردود الشعب المصري إزاء عملية التوأم اللدود.

- تقييمنا أن سلبية الشعب المصري التي هي أحد طبائعه أو خصاله ستوفر لنا كثيرًا من الاطمئنان لتنفيذ الخطة.. فأقصى ما يمكن حدوثه هو بعض الاحتجاجات في صورة مظاهرات سيتم قمعها بشدة من القيادة المصرية خوفا من استغلالها في رفع حالة التوتر بين المسلمين والأقباط.. كما نتوقع أن تهاجم الصحف بكافة اتجاهاتها مسألة الفصل بين التوأم اللدود.. فضلا عن ذلك فإننا نعتمد في تنفيذ خطتنا الضرب بشدة على وتر الدين الحساس بإشعال فتنة دينية بين الطائفتين.. ستخرج فئران كثيرة مسلمة من جحورها تهاجم القبط باعتبارهم كفرة بل ويطالبون بفرض الجزية عليهم في نفس الوقت الذي تطالب فئران أخرى قبطية بطرد المسلمين من وطنهم باعتبارهم محتلين للأرض كما حدث في فلسطين مع المطالبة بإنشاء دولة قبطية على كل أرجاء مصر.. أو على الأقل تقسيم مصر إلى وطن قبطي وآخر إسلامي بعد إجراء استفتاء.

- هل هذا الكلام يعني تأييد الأغلبية للتقسيم.. نعم.. أم لا؟

- ليس من المؤكد لدينا تأييد الأغلبية للتقسيم أو للمذابح فهو شعب عاش منذ آلاف السنين رغم ما قابله من عواصف وأنواء متوحدا مع نفسه وحكامه رغم تعدد دياناته وهذا نابع من عقيدة التوحيد.. الإله الواحد والحاكم الواحد لكن خطتنا تعتمد على إثارة الغوغاء من كلا الفصيلين وإظهار صورة تعاطفهم مع فكرة التقسيم.. فيستقيم الحال هكذا مع الواقع.. ونعتمد لتحقيق هذا الهدف على مجموعة من متطرفي الدعارة من كلا الطرفين في المساجد والكنائس.. كل طرف يندد بنقائص الطرف الآخر ويوغر صدور العامة للقيام بأعمال تخريبية.. وقد قمنا حتى نتأكد من سلامة تخطيطنا بتنفيذ بعض المؤامرات الصغيرة في المنيا وأسيوط ونجحنا في هذا لأقصى حد.. كل هذا لاختبار مدى فاعلية خطة التوأم اللدود.

- تقصد بالون اختبار.

- هذا هو بالضبط ما فعلناه يا سيدي الرئيس وكانت النتيجة ايجابية للغاية فيما عدا تنديد بعض المثقفين وهو ما شجعنا على اقتراح تنفيذ خطة التوأم اللدود في أقرب وقت ممكن.. فالانتظار لم يعد في صالحنا لو حدث وتواجهت

السياسة الأمريكية مع الشعب المصري الذي بدأ في الخروج من الشرنقة بمساعدة شرذمة من المثقفين وعلى رأسهم ما يسمى نفسه بمنقذ مصر!

- يفهم من هذا أننا سنجد معارضة قوية من بعض المثقفين وأصحاب الرؤى على الجانبين المسلم والقبطي.

- بعد أن نسقط من حسابنا العامة والغوغاء والفلاحين.. نعم .

- ومدى تأثير تلك المعارضة على تنفيذ الخطة.

- أعتقد أنها يمكن أن تمثل شكلاً من أشكال "التصعيب" أو التعقيد لكنها لن تعوق التنفيذ خاصة بعد أن يفقد النظام لواء سلطته على الغوغاء.

- مفهوم إجابتك أن نجاح الخطة قائم على سلبية أغلبية الشعب المصري بكافة فئاته.

- هو عماد الخطة يا سيدي الرئيس.

- ماذا لو رفض الشعب المصري بكل فئاته التقسيم.

سأل الرئيس في خبث.

- التدخل هو سبيلنا الوحيد لمنع الكارثة.

- تصف رفض الشعب المصري للتقسيم بالكارثة.

– لأن مثل هذا الرفض سيحطم عناصر استراتيجيتنا القائمة على تشابك السلسلة بفقدنا أحد حلقاتها.

– مزيدًا من التوضيح يا بيرجو.

نهض الرجل من مكانه. أمسك بمؤشر.. اتجه نحو خريطة العالم معلقة على الحائط أشار بدقة إلى العراق.. قال في ثقة:

– في الشرق ثلاث دويلات في العراق.

حرك المؤشر مستطردًا قائلاً:

– في الجنوب دولتين قطبية ومسلمة في السودان. وفي الشمال دويلتين في مصر.. وتنتهي السلسلة بإسرائيل.. فإذا فقدنا إحدى حلقات تلك السلسلة فقدنا بالتالي فلسفة استراتيجيتنا بتطويق شعوب هذه المنطقة وحرمانهم من الحركة التي تؤدي إلى الإضرار بالمصالح الأمريكية.

– حتى الآن لم تجب على سؤالي بوضوح.. فإذاً لو رفض الشعب المصري وقاوم حركة التقسيم.

– التدخل بلسعة النحلة حتى يجبر النظام على قبول قرار التقسيم وقد نجحنا في تطبيق ذلك على كوسوفا ويوغسلافيا وتيمور الشرقية.

- لكن مصر تملك جيشًا قويًا وستكون المقاومة عنيفة أمام تدخل صريح.

- يمكن لنا شل فاعلية المقاومة بضربة طيران ناجحة غير متوقعة للمطارات ومنصات الصواريخ يليها عدة طلعات تستهدف تجمعات الجيوش والمنشآت العسكرية حتى يعلن النظام الاستسلام.

- فإذا أصر على المقاومة.

- ليس أمامنا من سبيل سوى ضرب المنشآت الاقتصادية والمعابر والكباري لفصل المحافظات عن بعضها البعض القاهرة عن الجيزة، والجيزة عن القليوبية، والدقهلية عن الغربية.. وهكذا وهكذا حتى نحصر حركة الشعب داخل محافظة واحدة محددة.

- وموقف الدول الأوروبية.

- لن نكون منفردين سيدي الرئيس.. بل سنلجأ لمجلس الأمن بعد تردي الأوضاع وسنضغط حتى يوافق على التدخل، لكن قبل هذا لابد من مقدمات لتبرير هذا التدخل وهذا ما نخطط له من الآن في بعض المناطق القبطية بالصعيد لنجعلها أكثر سخونة.

رد الرئيس مؤكدًا:

- أبدًا لن نكون منفردين وحدنا في الساحة.

- أبدا.. لا في اتخاذ القرار ولا في التنفيذ.

- وموقف الأنظمة العربية.

- معظمها سيحيلها الرب إلى فئران صغيرة تسعى للشقوق عندما يحين الحين وستعلن حيادها أو صمتها خاصة وأنها أصبحت تتحفظ في علاقاتها مع مصر لأنها تخشى على شعوبها من عدوى دمقرطة الحكم في مصر.

عقب الرئيس ضاحكًا.

- والعدوى معناها انهيار الأنظمة الملكية والشمولية.

- أو ثورة الشعوب.

- من هنا تكمن خطوة مصر.

- خطوة مصر في شعبها.. الأنشوجة التي بدأ ينمو لها زعانف وخياشيم ومهمتنا هو تحجيم هذه الأنشوجة قبل أن تتحول إلى إخطبوط هائل أو حوت يبتلع كل ما حوله من أسماك صغيرة أو على الأقل نمنع انتقال فيروس الأمل إلى الجوار.

– وبناء على هذا التقييم يمكن تقسيم الأنظمة العربية في ردود أفعالها إلى صمت أو حياد أو شوشرة أو تهليل.

– سيدي الرئيس سيحدث هلع في المنطقة عندما تدق القنابل والصواريخ.. أقوى دولة عربية. ملامح الخطة تنبئ عن نجاح منقطع النظير في ظل مواقف الأنظمة العربية المتخاذلة.. لكنه هلع محسوب بالهندسة السياسية حتى لا يتحول إلى فوضى عارمة تؤدي إلى تدمير المصالح الأمريكية.. هلع مقصود لذاته حتى يعرف كل نظام عربي متطاول قدره فلا يملك حيال هذه الضربات سوى الهتاف "الله أكبر".

– دعهم يهتفون ودعنا نؤدي واجبنا تجاه السلام فالعرب هم حمقى العالم.. والمسلمون أكثر حماقة.

– وإرهابا يا سيدي الرئيس لذلك فقد طرحت أثناء انعقاد اللجنة مشروعا يقضي بتصفية الإسلام بعد تفكيكه تمامًا كما حدث مع الاتحاد السوفيتي.

– رغم أن هذا موضوع آخر لكن كيفية هذا التفكيك تثير فضولي.

- النظام العالمي الواحد الجديد يتعارض تمامًا مع منظومة الإسلام في كل مبادئه السياسية والاقتصادية والاجتماعية تمامًا مثل تعارض الماركسية معه لهذا لابد أن نضع الشعوب أمام اختيار من اثنين إما الإسلام أو النظام العالمي الجديد.

- اختيار صعب..

أو ليس في الإمكان أن يتعايشا سويًا.

- الغزال لا يتعايش مع أسد جائع سيدي الرئيس.

- الإسلام ليس أسدًا.. بل هو مجرد ضبع هزيل مريض والنظام العالمي ليس غزالاً بل نمرًا مفترسًا.

- صدقت سيدي الرئيس. وأكثر من هذا فالإسلام ضد منظومة العولمة خاصة بتبنيه الإرهاب قلبًا وقالبًا لذلك فعلينا أن نصل خلال فترة معقولة إلى إذابته نهائيًا في محلول العولمة الحمضي وإزالة كل آثاره من على خريطة العالم.

- نعود إلى موضوعنا.

سكت الرئيس قليلاً قرأ إحدى ملاحظاته على التقرير .. عاد مستطردًا:

- والوقت الملائم للتنفيذ.

- الظروف كلها مواتية للتنفيذ أولاً حتى يتسنى لنا إجهاض التجربة الشعوبية المصرية الوليدة قبل أن تستفحل فالانتظار يعني النضج إلى الحد الذي يستحيل معه تنفيذ مخططاتنا الرامية إلى استغلال ثروات المنطقة أفضل استغلال.. الخوف كل الخوف أن يتسلم الشعب المصري مقاليد أموره.. لهذا حذرنا القيادة السياسية بضبط إيقاع المسيرة الديمقراطية بخطى الكلمنجاور سياسة الخطوة خطوة. أي خطوة يعقبها توقف قبل التالية ولكن الواقع أن القيادة السياسية قد فقدت سيطرتها على الإيقاع الديمقراطي الذي ارتفع معدله لخطو أرنب بري!!

سأل الرئيس في ذكاء:

- وما الخطورة في هذا؟!

- الخوف كل الخوف انتقال العدوى الديمقراطية إلى بلاد الخليج.. وما يترتب عليه من حكم الشعوب لنفسها وهذا يؤدي في الواقع إلى تهديد حقيقي للمصالح الأمريكية وسنفقد بالتالي نصف إيرادات النفط التي نحصل عليها في مقابل حماية الأنظمة من أعدائها المتربصين بها. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فالعرب الآن أشبه بقطيع أغنام أو كما قال

نبيهم عنهم أشبه بالغثاء. فصائل منشقة تحارب بعضها البعض تتقاتل وتتصارع.. توحدها الكراهية ويدعمها الشك ويغذيها الخوف ويجمع بينها الحذر.. لم يكن العرب أبدًا سيدي الرئيس على هذه الدرجة من الانشقاق والانقسام والتطاحن والتخبط واللاوعي واللامدرك للأمور مثل أي وقت مضى.

الرئيس يطالع التقرير يقلب صفحاته. يقرأ ملاحظاته المدونة في تروي يتساءل:

- خطة تأمين الحدود ألا تظن أنها قاصرة!!

- بالنسبة للحدود الغربية فقد اعتمدنا على الورقة الرابحة بين أيدينا عندما يعترف الإرهابيان الليبيان أن وراء تفجير طائرة لوكربي العقيد نفسه. عندئذ سنطلب منه تسليم نفسه للمحاكمة.

- وسيرفض!!

- نعرف ذلك.. لكن مثل هذا الطلب الذي يتزامن مع تنفيذ خطة التقسيم في مصر سيشغل العقيد كثيرًا عن المسألة العربية.

- وهكذا تضربون عصفورين بحجر.. إرباك وإبعاد لكنكم تأخرتم كثيرًا.

- هذا التأخير كانت له أسبابه ذلك أنه كان يقدم بفاشيته وديكتاتوريته للسياسة الأمريكية العذر في التأخير عن ملاحقته لأن إغراق مثل هذه الشعوب في التخلف واحد من أعمدة سياستنا وماذا كنا نريد منه وهو يقدم لنا دون أن يدري ما نخطط له.

- لماذا إذن إسقاطه إذا كان ينفذ مرسوم سياستنا.

- في ظل تعاظم القوة السياسية لأمريكا لم يعد مقبولاً السياسات الغامضة لابد وأن تكون التبعية صريحة وواضحة لا لبس بها.

مرت فترة صمت قصيرة.. يخال فيها أن الرئيس يراجع أقوال المستشار القومي للأمن الأمريكي من خلال الملاحظات التي دونها على التقرير... لكنه فجأة أوقف استرساله معه وهو يشير للمرأة التي تتحكم في سياسة العالم.. "أولبو" في صمتها أشبه بصنم اللات العربي المقدس. لكن عندما بدأت الحديث فكلماتها متوغلة في القسوة على ضفافها التوتر وفي مسيرتها الانطلاق وهي ترد قائلة:

- لو استمعت لنصيحتي سيدي الرئيس لأعلنا الوصاية على كل الدول العربية كما هو الحادث الآن في دول الخليج.. فهي شعوب تذكرنا بحال الهنود الحمر أيام الاستقلال لا سبيل لتقدمها إلا بالوصاية تتعلم من خلالها دروس الحضارة والتحضر. لأن بقاءها هكذا حرة طليقة يؤدي في النهاية إلى تحطيم ذاتها قبل أن تؤذي الآخرين. إن مكمن الخطر يا سيدي الرئيس ليس في الأنظمة التي استطعنا تسييس أغلبيتها بل في الشعوب التي عليها أن تفهم كنه العلاقة التي تربطها بالشعب الأمريكي تلك التي تتحدد في إطار المعلم والتلميذ فإذا ما خرج التليمذ عن أدبيات تلك العلاقة بالتمرد أو العصيان فللمعلم اتخاذ كافة التدابير ضده حتى يثوب إلى رشده، بناء على هذا فأنا غير متحمسة بالمرة لتلك السياسة العرجاء.

سكتت.. العبارة الأخيرة تحمل معنى الاتهام.. واتهام صريح واضح.. الرئيس يبتسم نفس ابتسامته الخبيثة يستحثها معلقًا.. قائلاً:

- عرجاء؟!!

كيف؟

- أستطيع التأكيد على أن القيادة المصرية لن تقف مكتوفة الأيدي أمام أي محاولة للتقسيم.

- ماذا تعني؟

- قبلاً إذا سمح لي السيد الرئيس أريد أن أقدم تحليلاً حول مكمن الخطورة في الخطة الأمريكية.

سكت "كريز" حثه الرئيس قائلاً في اهتمام:

- تكلم.. تكلم.

- أولاً من السخف التعامل مع النسيج المصري مثل ما حدث في قضية كوسوفا ذلك أن هذا النسيج متداخل تداخلاً بينيًا من المستحيل فصله إلا بعد إتلافه.

- مزيدًا من التوضيح يا كريز.

- من دراسة البنية السكنية نجد أنه يوجد تداخل بين مساكن القبط والمسلمين فهي متجاورة رأسيًا أو أفقيًا والملاحظ من تحليل البنية الاقتصادية نجد أنه يوجد تمازج في المصالح والتعاملات والممارسات اليومية بين الفئتين وهذا راجع إلى أن أصل هذا النسيج لوزة مصرية واحدة

نبتت على أرض مصر وترعرعت بالتسامح وأثمرت بالتآخي.

عقب الرئيس مقاطعًا في عجالة:

- هذا أولاً!!

استطرد "كريز" قائلاً:

- أما ثانيًا وهو الأهم أن الأقلية القبطية التي تقطن شوارع وحواري القاهرة ومدن وقرى الدلتا طبقًا لخريطة التكوين الديمغرافي للشعب المصري هذه الأقلية القبطية ليست سوى رهينة للأغلبية المسلمة وأي محاولة لفصل خيوط النسيج ثمنها التضحية بالرهينة، لأن أي نظام حاكم مهما كانت درجة ضعفه لن يسمح بالتقسيم حتى ولو كان الثمن إبادة سبعة مليون قبطي. ولا أظن سيدي الرئيس أنه يمكن للسياسة الأمريكية في ظل هذا التقسيم أن تقامر بمثل هذه التضحية.

عقب الرئيس قائلاً:

- لكن في المقابل توجد أقلية مسلمة تتعدى الثلاث مليون في الجنوب هي الأخرى رهينة في يد الأغلبية القبطية.

- معنى هذا سيادة الرئيس أن المطلوب التضحية به يجاوز العشرة مليون مواطن مصري.

- رغم هذا لا أظن أن أي قيادة مصرية قد فطنت لهذا أو خططت له.

- هي الحقيقة يا سيدي الرئيس حتى لو تغاضينا عنها. إن المسلمين والقبط رهائن لدى بعضهم البعض بطول وعرض القطر المصري من الجنوب إلى الشمال، بعكس كوسوفا وتيمور الشرقية فقد تم البتر بألم قليل فضلاً عن ذلك فإن احتمال تولي الإرهابيين حكم الضفيرة المسلمة بعد فصلها احتمال راجح، وفي هذا قضاء مبرم على أمل الحفاظ على النفوذ الأمريكي أو على ماء الوجه إذا تبقى منه قطرة.

- اقتراحاتكم في هذا الخصوص.

- الاستقطاب وليس الاستبعاد والتمزيق.

عم الصمت .. استقام الرئيس بقامته. حوّم حول الجلوس.. اقترب من "كريز" وضع يده على كتفه تمتم.

- بدلا من هدم الخطة بأكملها واستبدالها ابحث لنا عن عناصر لإنجاحها.

– الحقيقة أنني لا أتوقع نجاحها.. ولا أريد إنجاحها. بل مصيرها الفشل الذريع لأنها تعتمد على افتراضات سيئة الصنعة!!

سأل الرئيس مدير "السي آي إيه" قائلاً:

– ما رأي "جو"؟

– أي قيادة لا يمكن أن تجرؤ على مثل هذه التضحيات الجسيمة.

تساءل الرئيس معقبًا:

– واحتمال حدوثها؟

– ربما لا يوجد احتمال.

رد الرئيس في حسم:

– لا أريد ربما بل أريد تنسيبات حسابية.

– واحد في المائة.. ربما أقل.

عقب "كريز" في حدة:

– إنني لم أكن سيدي الرئيس نائمًا ثم استيقظت لأحكي لكم حلما. فما عرضته من حقائق تسنده أرقام وحسابات سياسية ومقاييس للرأي العام واستشفاف لأحاديث المسئولين وصناع القرار ودراسة جادة لخريطة الشعب المصري بكافة

فئاته. وقد تواجهت سيدي الرئيس بهذا الموقف أثناء اجتماعك الأخير بالرئيس المصري. ألم يقل لك بملء صوته "لن نسمح تحت أي ظرف من الظروف بالتقسيم أو حتى التفكير فيه وسيتم التعامل مع الموقف هذا بمنتهى الشدة التي لا قبل لأحد عليها بل كل ما نستطيعه تلبية مطالب عادلة لكلا الطرفين".. فإذا كنت جادًا سيدي الرئيس في تنفيذ هذا المشروع فعليك أولاً ترحيل سبعة مليون قبطي يقطنون العاصمة والدلتا قبل بدء التنفيذ. وأنا شخصيًا أؤيد الرئيس المصري في تلبية المطالب العادلة للأقباط، أما حجة التدخل للاضطهاد الديني فهي حجة بالية تذكرنا بتدخل الإنجليز بعد مقتل المالطي. نعم يوجد بين التوأمين أزمة ثقة.. كل منهما يخشى الآخر والسبب في هذا يرجع إلى تصرفات المتطرفين من كلا العنصرين، لكن علاج هذا يسير عندما نصبغ خيطا النسيج بلون واحد.

ضحك الرئيس.. قال معقبًا:

- لم نأت هنا لنناقش علاج التطرف المصري يا كريز.

- كنت أتمنى هذا سيدي الرئيس.. فعلاج التطرف يجب أن يكون من أولويات السياسة الأمريكية بتحويل الخطة من التوأم اللدود إلى التوأم الحبيب.

قلت لمصباحي في دهشة والرجل يتحدث:

- هل سمعت. كأنني أرى أحد المصريين يدافع عن النسيج المتوارث.

رد المصباح في خفوت:

- قولة الحق لا تعرف التمييز بين أجنبي ومصري.

سالت مصباحي في لهفة:

- تُرَى هل تفشل مؤامرتهم؟

اعترى المصباح كسوف شديد:

- في حالة واحدة فقط أن يتجرع الناس السم!!

- ماذا قلت؟!

- إن الحكام تخشى تداول الحرية. تخاف على الناس من المغص والإسهال الديمقراطي وربما الموت من الحرية.. هذا هو مفهومهم.. سم زعاف. لكن لو تغيرت نظرتهم تلك وفهموا أن السم ليس سوى مصل يحصن عقولهم ضد أمراض الأوحد والفاشية والديكتاتورية لا تصلح الحال.

قلت لمصباحي والضجيج يعلو:

– لقد احتدم النقاش بين الرئيس ومعاونيه وبين بعضهم البعض الآخر حتى لقد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من التعارك بالأيدي.

الرئيس يتمتم في لهجة حاسمة. صادقة:

– بعد حديث "كريز" أرى أننا نخوض في مستنقع عميق تسبح فيه التماسيح المصرية والأفاعي والحشرات القاتلة لهذا علينا أن نستكشف موقع أقدامنا فيه بدراسة ما أورده كريز في تقريره حول احتمال إبادة ملايين البشر عند محاولتنا فرض واقع التقسيم، ومدى صحة فرضية استعمال وسيلة الرهائن للضغط علينا لوقف كل خططنا ودارسة خطة الطوق الأمني من وجهة نظر كريز كما أوردها في ورقته.

كريز منتش.. معبق بالثقة.. يصيح بتعالي:

– سيدي الرئيس أمر أخير أريد توضيحه قبل فض الاجتماع..

الرئيس يرد قائلا وهو ينظر لعقارب ساعته:

- إننا هنا نتناقش لمدة تجاوزت ثماني ساعات. فلنؤجل ذلك للاجتماع القادم.

- ربما لو أحطت به علمًا فلن تكون ثمة ضرورة لاجتماع آخر لمناقشة هذا الموضوع.

الرئيس يهز رأسه تحتي وفوقي. كريز يستطرد بحماس:

- الحرب العالمية الثالثة.

استنفر بكلماته أحاسيس الجمع الصغير. ابتسامة الرئيس الخبيثة تطوف كلماته المدهوشة:

- ماذا قلت؟!

- إذا تم تنفيذ التقسيم فاحتمال قيام الحرب العالمية الثالثة كبير.

الرئيس يقاطعه قائلاً:

- ألا تظن أنك تماديت كثيرًا في تصورتاك.

- بالعكس فأنا لم أكن قريبًا من الحقيقة مثل الآن.

- باختصار.

- الخطر القادم المتمثل في حلف اقتصادي ودفاعي بين الاتحاد الأوربي وموسكو وبكين.

في تلك اللحظة.. دق جرس الإنذار.. الحراس تهرول شمالاً ويميناً يجولون في ردهات البيت الأبيض.. المصباح يزهزه بنوره. تدوي صيحته وأنا أتساءل في دهشة:

- ماذا حدث؟!

- لقد دست بقدمك زر جرس الإنذار.

الهلع والخوف والحراس ومصباحي يجذبني قائلاً:

- هيا.. هيا قبل أن يعثروا علينا.

- ويفوتنا الحديث عن قيام الحرب العالمية الثالثة بسبب التقسيم.

- ربما في وقت آخر.. في زمن آخر.

أسرعنا إلى الحديقة كما دخلنا متخفين.. إلى بلاعة المجاري إلى النفق إلى الشارع.

الارتحال إلى المستقبل

قلت لمصباحي في تبرم:

- إلى أين؟

- إلى المستقبل.

- كل هذه المشاوير ولم تتعرف عليه.

- هي خيوط توصلنا إلى مشارفه.

- تقصد بها النبوءة.

- بل رؤى كثيرة متنوعة.

- وتغرق العقل في الخيال كما فعلت الأديان.

- ما أجمله من خيال وما أجله من رؤى عندما نتعرف على منهج مجتمعات لم تر ولم تسمع عنها.

- تريد أن تكدس عقلي بموضوعات مملة سمجة سئمنا رؤيتها والاستماع إلى حكاويها. متناقضات فجة الغني والفقر. ناطحات السحاب وأكواخ الطين والقش. المتدثرون والعراة الحفاة.

- يا صديقي إنها مدينة المستقبل.

- ثاني.. يوتبيا ثاني.

- بل مدينة حقيقية للمستقبل.. بشر ومباني وقوانين وقيم وأخلاقيات جديدة.

- سترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

- هيا إذن.

ركبنا الشعاع.. تحولت إلى مجرد ذرات. مر زمن لا أدري مساحه الوقتية قبل أن تعود إلى ذاتي وأنا أنفض ذرات نفسي. أفتح عيني على وادي واسع كما وادي التيه. منزرع بأشجار باسقة مورقة. سألت مصباحي في دهشة وأنا أشير لها:

- كأنها تنبض!!

- صدقت. تنبض وتتحدث!!

صعقني بكلماته سألته مدهوشاً:

- تتحدث!!

- نعم وتحب وتكره وتبكي وتفرح وتتألم.

- كلام مهفوف.

- جرب وأنت تعرف.

أمسكت بإحدى وريقاتها.. ضممتها داخل قبضي.. سمعت صرخة:

- خللي يدك عني بدل ما أشلها.

ابتعدت بيدي.. بجسدي.. تساءلت في دهشة:

- سحر!!

- بل علم.

- لقد استطاع العلماء تدريب الشجر على الكلام. والدفاع عن نفسه ضد أي غازي.

- كيف؟!

- لو تجرأت وقطعت الورقة تفرز رائحة سامة تفتك بك في الحال.. حادثها.. حادثها!!

- ماذا يمكن أن أقول لها.

- كل ما يجول في خاطرك.

- أغرب ما يتخيله إنسان أن يتحدث الشجر.

- ولا غريبة ولا حاجة. النمل يخاطب سليمان منذ أزمان سحيقة فما هو الغريب أن يتحدث الشجر.. لما سليمان تحادث مع النمل صدقتم الحكاية والآن وبعد مرور أكثر من خمسة آلاف عام لا تصدقون.

- الحشرات والحيوان لها لغة، لكن الأنبتة كيف؟!

- هي نفس اللغة.. هل رأيت مرة الدم الذي ينزفه ساق الموز عند تقطيعه.

- هذا صحيح.

- استطاع العلم أن يرصد الذبذبات الخارجة أثناء القطع، التي تعبر عن ألم شديد مثله مثل ألم البشر عندما يتواجه بنفس المصير، لكن المشكلة كانت في إخراج تلك الذبذبات على هيئة حديث، وهذا ما فعله العلم استطاع ترجمة تلك الذبذبات وفي مرحلة أخرى متقدمة استطاع أن ينقل جينات الكلام إلى الشجر فبدأ يعبر عن آماله وطموحاته باللغة النباتية.

تقدمنا إلى المدينة. فجأة صدمت.. تراجعت.. مصباحي يزهزه بالضحكات. ويدي تمتد إلى الفضاء اللامرئي.. حائط سميك أحاول دفعه فلا يتحرك.. الهواء تحول إلى كتلة سميكة. سألت مصباحي:

- ما هذا؟!

- العلم!!

- العلم حائل بيني وبين دخولي المدينة.

- بل حائل بينك وبين الفضول.

- كيف؟!

- لقد استطاع العلم أن يحول ذرات الهواء المتناثرة إلى جدار سميك صلب لا تستطيع حتى القاذفات تجاوزه.

- وارتفاعه!

- إلى الحد الذي يمنع الفضوليون أمثالك من اختراقه.

- وكيف لنا باقتحامه؟!

- باستعمال الشفرة.

- تقصد افتح يا سمسم.

- كان زمان وجبر.

- دلني إذن على الشفرة فأنا متشوق إلى هذا العالم الغريب.

- إنها كلمة يتداولها الناس كل ساعة وكل دقيقة ولكنهم لا يعرفون مغزاها الحقيقي!!

- هيا إذن قلها..

- ثلاث حروف أولها "ح".

- لازمتها إيه الدوخة. قلها وتوكل.

- شغل عقلك.

- فهمت هو الحب.

فور أن نطقت بتلك الكلمة.. هز أسماعي صوت رعد وبرق.. وكأن فجوة في السماء انفتحت. أعقبها حزمة أصوات.. صلصلة أجراس حادة.. دانة مدفع.. صدام قطارين.. لا أدري.. وبعد أن حل السكون همس مصباحي:

- تقدم فقد انفتحت البوابة.

تقدمت بخطوة حذرة.. اثنين .. ثلاثة. ومصباحي يقول ضاحكًا:

- لقد أصبحت داخل المدينة.

يا إلهي. ما هذا الذي أراه.. لا يمكن لبشر أن يصف ما طالعته عيناي. الشوارع البيضاء.. المباني الواطئة.. السيارات التي تسير بالدفع العكسي للهواء على وسادات هوائية.. الناس.. البشر في ثياب بسيطة والبسمة لا تغادر شفاهم.. لا أحد يشغله أحد.. لكن المدهش أن الكل مبتسم.. مذهول بما أرى.. في الطريق رأيت بستانيًا بقطع بعض أغصان شجرة.. سألت مصباحي:

- ربما الشجر هنا لا يتألم.

- بل يتألم

- ولماذا إذن لا يصرخ؟

- لأنه مخدر.

- ولماذا؟!

- هنا لا يقطعون الفروع انتقاما بل من أجل العلاج فيتم استئصال الفروع السرطانية. هيا.. هيا لنستقل الأتوبيس..

- وليس في جيبي قرش أبيض.

- هنا في مدينة الحب تهيئ الدولة للناس الخدمة بلا مقابل.

- كل الخدمات.

سألته مدهوشًا.

- كل الخدمات.. من تعليم.. لصحة.. لمواصلات..

- هي الجنة إذن..

- إنك في الجنة لن تجد سوى اللبن الحليب أو الرايب وقُبلة على الجبين والخدين وعبارة "نام يا حبيبي نام".. لكن هنا متع كثيرة. أكثر مما تتصور.

- كيف؟!

- فلنستقل أولاً الباص ثم نتحدث.

توقفنا على المحطة.. توقف الأتوبيس.. هبط بجانبه الأيمن.. صعدنا السلالم.. واصل سيره.. وقبل أن أجلس صحت قائلاً:

– أتوبيس بلا سائق.

– وما ضرورته وهو أتوبيس آلي.. يؤدي عمل السائق..

– ووجهتنا؟

– الجنة.

– الجنة على الأرض؟!

– نعم..

– انظر عنوان المحطة.. السلام.

– كل أسماء المحطات مرموزات للحب.. ستجد السلام.. السماحة.. التعاون.. الإخاء.. المساواة.. العدل.. فلا مكان للكراهية والحقد تحت ظلال هذه المعاني.

– إذن كيف الصراع عندهم.

– الصراع تحول إلى تنافس شريف حامي الوطيس. صراع العلماء تنافس من أجل اختراعات علمية جديدة.. وصراع السياسة من أجل استنباط بذور جديدة للحرية

وصراع الاقتصاديين لتطبيق نظريات جديدة في تعلمة الاقتصاد.

توقف الأتوبيس.. المحطة "الحُلم" هبطنا.. سألت مصباحي:

- إلى أين؟!
- لقد قرأت العنوان.
- هي زيارة إذن.
- زيارة لبلد تقدسها وتحلم بها.
- كم أريد أن أراها فتية عفية.
- ستراها في أحسن حال.
- هيا.. هيا لا تضيع الوقت إلى أرشيف التاريخ نطالعه سويا.

دلفنا إلى هول واسع.. منقوشات كثيرة.. صور محفورة على الحوائط.. هي صور لحكام حكمت مصر سنين طويلة.. مصباحي من جديد:

- هل ترى؟
- هذه صورة لثلاث حكام أحدهم يمسك بالكرباج والتالي بعصا المارشالية والثالث في يده مسمار..

مرت فترة صمت وتأمل قبل أن أساله قائلا:

- ما هذا وما تلك؟!

- أشار للصور الثلاثة.. تأملتها.. الأول بيده كرباج يضرب به عبدا لا تستره ملابس، والثاني يلوح بالعصا مهددا جمعا غفيرا من البشر، والثالث ينخس بالمسمار حمارا.. بعد فترة التأمل القليلة أجابني المصباح:

- هكذا كان الثلاثة يحكمون.

- وماذا حدث بعد ذلك.

- انظر إلى الصورة الثالثة.

تأملتها.. رأيت جمعا غفيرا من الناس تحمل رجلا في يده علم.. سألته مدهوشا:

- وماذا أفهم من هذه الصورة؟!!

- حتى تفهمها عليك أن تتأمل ما قبلها.

تأملتها.. رأيت فرعون يسلم وثيقة إلى جموع.. صحت:

- وماذا في الوثيقة.

- لقد سلمهم حلم الحرية.

- كيف؟.

- في الولاية الرابعة تنازل عن الحكم وقبل أن يفعل حرر الضفادع.

- أي ضفادع؟

- الناس.. أصدر قانون تحريرهم بعد أن ألغى القوانين الاستثنائية.. وعدّل الدستور.. وسلم وثيقة الحرية للناس.

- وبعد!!

- ماذا تقصد ببعد؟

قالها المصباح في استياء!

- أقصد ماذا بعد فتح منافذ الحرية؟

- كما ترى في الشوارع.. آثار الصدمة.

- كل ما أراه ابتسامة فوق شفاه حزينة.

- هي مرحلة استخلاص الدواء من السم.

- كم هي صدمة جميلة.

- هذا الرجل دخل التاريخ من أوسع أبوابه.

- ومصير حاشيته التي كانت تسوق العبيد.

- دخلوا الشقوق.. عفا الله عما سلف.

- أخيرًا امتلك الناس أقدارهم..

- نعم وما زال أمامهم الكثير لاختصار الطريق نحو الرفاهية.

- تقصد مزيدًا من الحريات.

- بل مزيدًا من احترام حقوق الإنسان.. لتتسع دائرة الحرية فتشمل كل مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. نطاقها عدم الإضرار.. وحاكم ديمقراطي كل مهمته العمل على احترام تلك الحرية وعدم الإخلال بقاعدتها العريضة.

- وخابت كل تكهنات الخطوة خطوة.. والورقة ورقة.. وملء البطون قبل العقول.

- هذه التكهنات كانت من صناعة حاشيته حتى تظل كاتمة لأنفاس الناس.

- رغم أنه لم تُرَق نقطة دم واحدة.

- ثورة بيضاء قام من خلالها بغربلة أبجدية الهمج وأغلق دكاكين الوهم ومسح لعنة الصدأ فنما زغب الثورة.

- تقول زغب.

- نعم وعما قريب سيقوى ويتحول إلى ريش يحلق به الطائر في السماء.. انظر إلى الرجل وهو يصافح الناس

ويقبلهم.. تهديه الورود والبسمات.. يسير بلا حراسة.. بلا قميص ضد الرصاص.

- الراعي إذا أحب الناس رعته عين الله.

قلت وأنا أسرع نحوه:

- كم أرغب في أن أصافحه وأقبله.

جذبني المصباح.. نهرني قائلاً:

- هل جننت حتى تصافح رؤى.

- وماذا حدث حتى يتغير النظام مائة وعشرين درجة؟!

- حلم أتاه رأى من خلاله سبع بقرات سمان تأكلن سبعًا هزال وبعد أن أتت عليها انفجرت بطونها.

- كأنني أرى غموض حلم فرعون.

- ولا غموض ولا حاجة فالتفسير سهل.. فعندما يأكل القوى الضعيف وتصيبه التخمة تنفجر دواخله.

قلت في تذاكي:

- وربما يحكي الحلم عن التوأم اللدود.

- هذا تشبيه متآمر لا أحب أن يكون من مفردات لغتنا.. لكن عمومًا المهم النتيجة.. انفجار.

- وهذا ما دفعه إلى تغيير سياسته. لهذا أعلن راية العصيان على الفاشية والديكتاتورية واستبدلها بثورة الحرية.

وقبل أن أنهى جولتي جذبني من يدي قائلاً:

- هيا.

قلت محتجًا:

- دعني أرى المزيد عن المستقبل.

- أنت في حاجة إلى فترة راحة تستوعب فيها الأحداث قبل الخطوة الكبرى.

- ماذا تعني بالخطوة الكبرى؟!

- أمامك مشوار طويل ترتحل فيه إلى المستقبل بكيانك كله. تعيش مع الناس.. تحادثهم.. تسمعهم..

- أي ناس وأي مستقبل.

- كل الناس.. سترى العوالم المتقدمة وستخوض مستنقعات الفقراء.. ستشرب الشمبانيا ثم الماء الملوث.. تستقل سيارة ثم تركب جحشاً.

- ولماذا التأجيل.. أريد أن استكمل رحلتي.

- كما قلت لك.. فترة راحة تسجل فيها خريطة الهمج تضاريسها.. مرتفعاتها.. منخفضاتها.. سهولها.. ودیانها.. قبل أن ترتحل إلى أعماق المستقبل.

- لكنني دخلته.

- يا صديقي هذه هي البوابة الأولى من سبع بوابات.

- كم أنا في شوق إلى تكملة رحلتنا.

- سنعود.. سنعود.. سنعود..